جامعة المولى إسماعيل
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
مكناس

البحث الأدبي في المغرب
التأصيل و التحديث

سلسلة الندوات
8

1994

رقم الإيداع القانوني: 277 / 1995
ر.د.م.كـ 7-00-933-9181

مطبعة فضالة
3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)
الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)
فاكس : 32.46.44(03)

الفهرس

الجلسة الافتتاحية :

- كلمة السيد عميد جامعة المولى إسماعيل 9
- كلمة قيدوم كلية الاداب والعلوم الانسانية 11
- كلمة اللجنة المنظمة 15

البحث الأدبي الحديث في المغرب : قضاياه ومناهجه .

- البحث الأدبي الحديث في المغرب : المجال والمنجزات

أحمد اليابوري 21

- حداثة البحث الأدبي في المغرب .

حسن المنيعي 29

- الصراع بين القديم والجديد والمشروع النقدي في الأدب العربي .

حميد لحميداني 39

- قضايا المنهج في تحليل النص الأدبي القديم .

عبد العزيز الحلوي 49

- الجانب الأدبي في أبحاث الراحل عبد الله كنون .

محمد كنون الحسني 61

الانفتاح على الشرق والغرب : تأكيد الهوية وتحقيق التواصل .

- غربة التأصيل والحداثة في مسرح الطيب الصديقي .

مصطفى الرمضاني 91

- المسرح المغربي والانفتاح على الغرب : مسرحية فاوست والأميرة الصلعاء نموذجا .
يونس الوليدي ـــــ 107
- مصادر تفسير النص الشعري عند العرب القدامى .
مصطفى السلاوي ـــــ 117
- أثر تكريم الشيوخ والعلماء في الدرس الأدبي بالمغرب .
عـلال معكول ـــــ 141

جهود محمد الكتاني في البحث الأدبي : تحقيقا وتأليفا.

- جهود محمد الكتاني في تحقيق " روضة التعريف بالحب الشريف ".
نجاة المريني ـــــ 171
- "روضة التعريف " نموذج للتحقيق الجامعي .
عبد الله الهمس ـــــ 179
- "روضة التعريف " بين تحقيقي محمد الكتاني وعبد القادر احمد عطا.
محمد بنعبد الجليل ـــــ 201
- تحقيق النص الأدبي لدى المدرسة المغربية بين الأصالة والإحاطة " روضة التعريف " نموذجا .
عبد اللطيف مومن ـــــ 209
- منهج الدكتور محمد الكتاني في كتابه الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث .
أحمد الدويري ـــــ 223
- جوانب من الشخصية الفكرية للكتاني من خلال بعض كتاباته .
إبراهيم القادري بوتشيش ـــــ 239
- قراءة في كتاب محمد اقبال مفكرا إسلاميا لمؤلفه الدكتور محمد الكتاني .
عبد العزيز العماري ـــــ 249

تكريم الأستاذ الدكتور محمد الكتاني:

- كلمات :

* عباس الجراري 257
* عبد الوهاب التازي سعود 263
* أحمد الطريسي 267
* أحمد اليابوري 271
* محمد السرغيني 273
* محمدالعميري 277
* عرس الفضيلة (قصيدة) عبد الرحمن بناني 281
- كلمة محمد الكتاني يوم حفل تكريمه 283
- اختتام السيد القيدوم 289

الجلسة الإفتتاحية

كلمة السيد عميد
جامعة المولى إسماعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

لا شك أن مهمة الذي هو مكلف بإعلان افتتاح لقاء علمي مثل الذي نحن فيه لا شك أن مهمته ليست بالمهمة السهلة ، في أن يغامر في بحر رواده أمامه ، وهو ليس له من الجهد إلا الشيء القليل في هذا الباب ، مع ذلك استوقفتني في برنامج الندوة العام أمور ثلاثة أحب أن أقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة لأعطيها ما تستحق من آهتمام وأثير ما يستحق من انتباه .

المسألة الأولى ، هو هذه الحيوية وهذا النشاط الذي تتميز به هاته المؤسسة التي احتفلت في السنة الماضية بسنتها العاشرة . وقد لا يكون من حقي أن ألاحظ هاته الملاحظة وأنا واحد من هاته الدار. ولكنها ملاحظة كيفما كان الحال ، موضوعية ، لا يسعني إزاءها إلا أن أهنئ كل الشعب وكل الأساتذة العاملين في هاته الكلية على نشاطهم وحيويتهم العلمية ، وعلى رأسهم قيدوم الكلية الأستاذ ادريس أوعويشة ، فليعتبروا جميعهم في هاته الكلمة تعبيرا بسيطا جدا ، تلقائيا ، واعترافا بالجميل على كل ما يسدونه من خدمات للبحث العلمي الرصين ، الأكاديمي ، الجامعي لهاته البلاد .

المسألة الثانية ، التي تستوقف الانتباه ، هو أن هاته الندوة تنظم بتعاون بين كلية الاداب وبالأخص شعبة اللغة العربية وآدابها ، وبين الجماعة الحضرية لحمرية بمكناس . وأود أن أستغل هاته المناسبة لأدعو بكل حرارة المنظمين - كلية ومجلسا، أن يثابروا في هاته الطريق وأن يسيروا في هاته الطريق ، وأن يوسعوا مجالات تعاونهم لتشمل مجالات أخرى وما أكثرها غير تنظيم الندوات ، وهذا

لا يقلل في شيء من أهمية هاته الندوات العلمية . غير أنني كنت أحب أن تنضاف إلى مجالات تعاونهم مجالات أخرى وهي كثيرة كما يعلم الجميع.

المسألة الثالثة التي استوقفتني ، هي الجلسة الأخيرة التي تنظمها لجنة التنظيم وخصصتها لتكريم أحد أعلام الفكر والأدب في مغربنا المعاصر أخي وزميلي الأستاذ محمد الكتاني ، وأعتقد أن هاته المبادرة محمودة أشد ما يكون الحمد لشعبة اللغة العربية وآدابها . فإذا كانت العادة أن نكرم الأموات ، فإن في تكريم الأحياء فضلين : فضل التكريم ، وفضل أداء بعض واجب الاعتراف لواحد من أساطين كلية الآداب في بلادنا . فشكرا للجنة المنظمة . وشكرا للسيد القيدوم على تفكيره ومبادرته لتكريم أستاذنا الكبير سيدي محمد الكتاني .

لا أريد أن أطيل ، فمرحبا بجميع الحاضرين ، شكرا للزملاء الأساتذة الذين تحملوا عناء السفر من مدن أخرى إلى مكناس، وتهانئنا مرة أخرى للجنة المنظمة ، ومتمنياتي للجميع بالتوفيق .

الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي

كلمة السيد قيدوم
كلية الآدب والعلوم الإنسانية

السيد عميد جامعة المولى اسماعيل ،
السيد باشا المدينة ،
السادة رؤساء المؤسسات الجامعية ،
زملائي الأساتذة،
معشر الطلاب ،
أيها الحضور الكريم :

إن تواريخ الكليات والمعاهد العلمية أصبح يقاس بما يتحقق من منجزات علمية وثقافية وبما تقتطفه من ثمار البحث والتحصيل أكثر مما يقاس بما يمر من سنوات متتالية من أعمارنا على تأسيس هذه المؤسسات . وبهذا المنظور فإن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، رغم أنها تندرج ضمن الكليات حديثة العهد التي لم يتجاوز عمرها عقده الأول ونيفا ، فإنها كلية ذات رصيد علمي يحترم ، ذلك لأنها ظلت حريصة على إيجاد نقاط التوازن الممكنة بين الضرورات التربوية – التعليمية أولا ، والثقافية ثانيا ، والعلمية ثالثا .

فمن الناحية الأولى ، استطاعت الكلية بفضل يقظة أساتذتها الباحثين ونباهتهم في مختلف الشعب والتخصصات أن تطور برامجها وتعيد النظر فيها كلما اقتضت ضرورة التطور ذلك من أجل تحصيل أكثر فعالية . كما استطاعت من الناحية الثانية أن تكون مركز إشعاع ثقافي محليا وجهويا بما تنظمه من تظاهرات ثقافية وعلمية ، وبما يساهم به أساتذتها من مداخلات ومقالات في التظاهرات الثقافية المختلفة. ومن الناحية الأخيرة استطاعت أن تكون مركز إشعاع للبحث العلمي بما ينجز فيها من بحوث ورسائل وأطروحات أعتقد أنها قد تجاوزت حد العابر العرضي ، وأصبحت تطأ عتبة الظاهرة المتلألئة

السعيدة .

قد يكون هذا العامل هو الذي حفز أساتذة شعبة اللغة العربية وادابها لتنظيم هذه الندوة حول موضوع : " البحث الأدبي الحديث في المغرب : التأصيل والتحديث " . ربما كان هذا صحيحا ؛ غير أنني موقن من أن الشعور بتعاظم الظاهرة لم يصبح لدى زملائي الأساتذة في شعبة اللغة العربية وآدابها بحجم جبال الغبطة والزهو الكبرى لأن الإحساس بضرورة التساؤل حول واقع البحث العلمي في الحقل الأدبي في بلادنا هو المحفز الأكبر على اختيار هذا الموضوع ، لاسيما أنه كل لا يتجزأ . فكان من الضروري الإنطلاق من وصف المنجز في محاولة استشراف الآفاق الرحبة التي يجب ارتيادها في المستقبل .

إن ما بلغه البحث الأدبي الحديث في المغرب ما كان ليتحقق لولا جهود الأساتذة الباحثين بمختلف درجاتهم ، ولولا تضحياتهم الكبرى بحثا وتأطيرا وتنقيبا ومعاناة ، لأنهم يدركون جيدا أن قدرهم هو العطاء بدون حساب علما بأن كل المكافآت قاصرة عن إعطاء ما هو روحاني حقه .

.

في هذا السياق فكرنا في صيغة مناسبة للإحتفاء بالبحث الأدبي الحديث في الجامعة المغربية . وقد تم الاهتداء الي ضرورة تكريم أحد أقطاب البحث الأدبي الحديث البارزين في بلادنا ، ألا وهو الاستاذ محمد الكتاني الذي قضى أكثر من ثلاثة عقود في البحث والتأطير. ولعل تكريمه هو تكريم لسائر رجالات البحث العلمي في المغرب في شخصه الكريم . فأرجو أن نستمر في هذه السنة الحميدة الثقافية كفعل وتقدير لتكريم رموزنا علماء ومثقفين ومبدعين كلما سمحت الظروف بذلك . وحتى نترك للتكريم نشوته في اللحظة المناسبة له ، لابد من الإشارة إلى أمرين اثنين :

أولهما هو أن هذه الندوة تنظمها الكلية بمبادرة من شعبة اللغة العربية وآدابها ، التي تعتبر من أعرق الشعب بهذه المؤسسة . وقد حفلت أنشطتها العلمية والثقافية ونضجت تجربتها علميا وتنظيميا ، لذلك فإنني إذ أنوه بسائر أساتذتها وأشكرهم على جهودهم المتواصلة لجعل كليتنا في الواجهة الثقافية والعلمية ؛ أرجو لباقي الشعب النجاح في تحضير ندوات وتظاهرات أخرى كل في ميدان اختصاصها .

والأمر الثاني ، هو أن الكلية – التي تعتبر كلية آداب الجهة الوسطى الجنوبية كاملة – كانت دائما كلية متفتحة على محيطها ، مصرة على

الانسجام مع الشروط التي تنتجها المتغيرات الواقعية والتاريخية . لذلك ظللنا نعتقد أنه لا مناص من مد الجسور بيننا وبين الجماعات المحلية التي كرسنا في هذه الكلية تقاليد عريقة في مضمار التعامل معها في تنظيم التظاهرات المتحركة.

ونحن إذ نشكر الآن واليوم جماعة حمرية الحضرية في شخص رئيسها الدكتور أحمد العلمي على تعاونها المستمر الذي أثمر هذه الندوة وغيرها من الندوات السابقة ، فإننا نرجو أن يتم إنجاز تظاهرات لاحقة بتعاون مع جماعات أخرى في مختلف مناطق الجهة الوسطى الجنوبية خارج ولاية مكناس وداخلها على السواء ، لا سيما وأن التجربة قد دلت بما لا يدع مجالا للشك أن عملنا يجب أن يكون متكاملا حتى يؤتي ثماره .

أيها السادة ،
أيتها الأخوات ،

ما كان يمكن أن تعقد هذه الندوة لولا جهود الكثيرين من المساهمين . فلا يفوتني أن أشكر كل من وضع لبنة في هذا العمل لإنجاح هذه الندوة . وأخص بالذكر السادة الأساتذة من ضيوف الكلية على مساهماتهم العلمية ، وتحملهم أعباء السفر من مناطق مختلفة ليغنوا نقاشاتنا بتدخلاتهم المهمة . والسادة الأساتذة أعضاء اللجنة المنظمة الذين أعرف مقدار تعبهم ومعاناتهم قبل أن يوفروا للندوة ما هي في حاجة إليه من شروط . كما أشكر الإداريين والأعوان على ما بذلوه من جهود لإنجاح هذه التظاهرة .

وأخيرا أشكر المتتبعين الذين حضروا ليتابعوا هذه الندوة راجيا للضيوف إقامة سعيدة بمكناس وللمتتبعين متعة الإنصات ولذة التلقي وللمنظمين قدرة الوقوف على قدم واحدة حتى نهاية هذه الندوة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إدريس أوعويشة

كلمة اللجنة المنظمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه كافة أجمعين

السيد المحترم : عميد جامعة المولى إسماعيل ،
السادة المحترمون : قيادمة الكليات والمعاهد ،
السيد المحترم : قيدوم كلية الآداب بمكناس ،
السادة الأساتذة المحترمون ،
الحضور الكريم ،
الطلبة الأعزاء .

دأبت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس ، منذ تأسيسها على تأكيد حضورها العلمي بتنظيم وانتقاء الأنشطة الثقافية الهادفة ، التي تستجيب لضرورات التكوين المعرفي الجيد للطالب ، والتي تمسك "بالأصالة الشخصية " للباحث ، باعتبارها المحرك الرئيس للخلق الأدبي، وما يتضمن من اشتغال البنيات المعرفية الذاتية له ، في ضوء علاقاتها الموضوعية بالواقع الإجتماعي والثقافي ، مما يشكل عونا حقيقيا مقنعا للطالب / الباحث على الإنتقال من طور تحصيل المعرفة إلى انتاجها ، وذلكم خير تعزيز لفعالية الدور الإجتماعي والثقافي للجامعة .

إن مبنى النظر السالف الذكر ، يقرر حقيقة كلية ، يمكن تحويلها من سياقها العادي إلى سياق شمولي علمي ، يتمثل في أن البحث الأدبي يرتكز على سلطة المعرفة العامة للباحث ، وأنه يختلف باختلاف ذوات الباحثين ، وأن النص الأدبي ، يعد حقلا خصبا قادرا - بطاقته الهائلة - على تحريك " آلات " البحث ، الذي تتلاقى فيه مبدئيا المشكلات المنهجية المتصلة بالمادة الأدبية ، مع مفاهيم خواص الخطاب الأدبي .

لذا يصعب فهم هذه المسألة ، التي تضعنا - في نهاية المطاف - في

صميم الممارسة الأدبية النقدية بجميع مظاهرها المعرفية ، حيث يقوم البحث الأدبي الحديث على أنواع من " الإستراتيجيات " ، نجملها في اثنتين : "الكتابة " و "القراءة "، اللتان تتطلبان المزيد من الملاحظة والإكتشاف ، خاصة مع تعدد المناهج وتنوع طرق المقاربة .

ولقد دفعت هذه الشروط ، التي يبدو أنها تتحكم في الدرس الأدبي ، بشعبة اللغة العربية وآدابها بالكلية ، إلى تنظيم ندوة حول "البحث الأدبي الحديث في المغرب" ، ترتبط رسالتها بالراهن والمستقبل على حد سواء ، وتطمح إلى الإحاطة بوظيفة "القراءة " وطبيعة إواليا تها ، بمعنى كشف وتفسير الكيفية التي تتم بها قراءة النص، وتمييز مكوناته ، وطبائع تجلياته الدلالية .

ولاسيما أن البحث الأدبي في المغرب ، قد وقف بما يكفي عند مختلف أسئلة النص وأسئلة المنهج (1) ، طيلة العقدين الأخيرين ، وخضع إلى أنظمة المقاربة "الوصفية التحليلية" المألوفة ، إلا قلة من كثرة ، حيث أصبح "تحديث" بنيات الدرس الأدبي اليوم يفرض تملك وسائل أخرى علمية ، تحرص على إثارة أحكام القيمة والتأويل، استجابة لمتغيرات أدبية وثقافية واجتماعية .

وهكذا تراكم عناصر البحث الأدبي بصفتها نشاطا ذهنيا ، محكوما بقراءة "استكشافية" - وليس استنساخية - لأدبية النص ، متتاليات من الأسئلة ، ستعيد الندوة تنظيمها وتماسكها ، وتنميتها ، بما يقتضي إعتبار "مقولات " البحث الأدبي قضية "متراكبة" ، تتفاعل فيها المنظومة النقدية والخبرة الأدبية ، ويجد " الباحث " نفسه فيها طرفا محاورا منخرطا بوعي مدبر فيما يلي:

1 - **إبراز قضايا وظواهر البحث الأدبي** ، وما تحتويه من مفاهيم تختبر " مسألة " النص الأدبي ، وتبلورها في شبكة متعددة الأبعاد ، تعيد النظر في طبيعة البحث الذي قد يتحول إلى كتابة متذبذة بأصوات منهجية كثيرة ، من دون تفادي هيمنة الذات الباحثة .

2 - **التفاعل بين تأكيد الهوية وتحقيق التواصل** ، في ظل ما تمتاز به جدلية العلاقة بين "التحديد الإجرائي" و"التفكير الأدبي"، يكشف عنهما تشكيل البحث عادة وفق مؤشرات مكثفة مستحدثة ، تنهل من الموروث والتجارب المعاصرة في عملية واحدة ، وتحتكم إلى مشكلات الكتابة والوسط الثقافي ومسألة الأجناس وغيرها في أثرة النظرية الأدبية المعاصرة ، وعندئذ يتعذر التمييز بين ماهو

موضوع بالقوة وما هو واجب بالفعل في البحث الأدبي .

وبدهي أن إشكالات البحث الأدبي ومكوناته السالفة الذكر ، يمكن نظمها بطريقة موضوعية ، ضمن " موضوعة THEME:التأصيل والتحديث في شكل نمطين مركزيين متساندين ، لا على أساس أن "التأصيل " (2) هو التقدم إلى الأمام بالإرتداد إلى الوراء بفعل سلطة الماضي، ولا على أساس أن "التحديث" هو المد في حالة انحباس كمي ونوعي للوعي الثقافي، وإنما بتوليد مقولة "التأصيل والتحديث"-بغض الطرف عن الخلفية التاريخية - دلالات ايجابية ، تنبني على الإنسجام، وتستوعب علائق التضاد ، من أجل أن يتميز البحث بفاعلية إجرائية، ويرتبط بالإنتاج ؛ لأن البحث الأدبي يمثل نظاما ورسالة في الآن معا، باعتباره "كيانا حيا له عالمه الخاص " ، وبقيام التأصيل والتحديث قاعدة، هي خلفية لرؤية " محايثة IMMANENTE " تثير أسئلة هامة، تلك التي نهيب برجال البحث المهتمين إعادة تشخيص مضمونها، على أمل أن تكون الندوة حافزا ، لتركيب أجزاء الأطروحة الآتية :

أ - تمييز "الصحيح" من "المعتل" في البحث الأدبي الحديث في المغرب.

ب - إعادة صياغة إشكالات " التأصيل" و " التحديث " استجابة لمتطلبات التغيير ، وتمهيدا لـ " حداثة " تسم الحياة عامة ، والمعرفة الأدبية خاصة .

ج - تنمية روح البحث والنقد والمبادرة وملكة التحليل ... لتعود لدرس الأدب جاذبيته في الدراسة والتدريس ، ويتصدر البرامج بعد أن كاد يقف على حافتها .

وإذا كانت تلكم العناصر وغيرها تبسط أمامنا البحث الأدبي ، في تأصيله وتحديثه ، نظاما وتوجيها ، فإنها تؤكد - بكفية ضمنية - على أنه (البحث) هو أيضا قيم خلقية عالية ، باطنها " الأمانة العلمية"، وظاهرها "تبجيل" خاصة الشيوخ والعلماء ذوي المعارف والفضل .

واقتداء بسنة السلف الصالح ، اغتنمت شعبة اللغة العربية، فرصة هذا الجو العلمي المتميز ، حول البحث الأدبي الحديث في المغرب، لتقوم بتكريم الأستاذ الدكتور محمد الكتاني ، العضو العامل والنشيط في اكاديمية المملكة ، وفي العديد من المجالس العلمية على امتداد الوطن العربي ، وأحد رجالات البحث المغاربة المخصوصين بالريادة ، "ممن أخذتهم الآداب وهذبتهم الدربة " ، وتلا حقت أعمالهم في الأدب والفكر والثقافة تأليفا وتحقيقا ، ما نيف عن ربع قرن ، بما يزيد عن الثلاثين

دراسة بين المطبوعة والمخطوطة ، فضلا عن مهمة الإشراف على الرسائل والأطروحات الجامعية ومناقشتها .(3)

وغير خاف أن مقاصد الندوة قد تقوت واكتمل غرضها ، بفضل الدعم المادي الذي حظيت به من لدن السيد رئيس المجلس البلدي لجماعة حمرية والسادة الأعضاء المحترمين إبلاغا منهم في " المكارمة " التي أسفرت عن قيام تعاون مثمر ومتميز بين الكلية والمجلس نراهن على استمراره ، لما فيه من تأتي المقاصد الاجتماعية والثقافية الشريفة لأهالي مكناسة المحروسة .

فإلى هؤلاء :
وإلى السيد قيدوم كليتنا الذي تعهد ندوتنا هاته بلطيف الرعاية مذ كانت فكرة إلى أن استوت واقعا .
وإلى السادة الأساتذة الباحثين الذين تطلبت منهم " أكرومتهم " تحمل وعثاء السفر والبحث لإقتضاء هذا الغرض العلمي النبيل .
وإلى كل من عمل على تيسير الصعاب ، التماسا لأسباب النجح والفلاح ...
وإلى الحضور الكريم الذي سينفق من الوقت والجهد ما سيضاعف بلوغ المأمول .
فإلى هؤلاء جميعا :
الله سبحانه نسأل أن يصل مبرتهم ويوالي تكرمتهم .
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

الهوامش :

1) للتوسع انظر : أسئلة النص وأسئلة المنهج ، نجيب العوفي ص 24 - 29 ، الدليل التربوي ج 2 / 1993 مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء المغرب .

2) تعددت أبحاث ونظريات التحديث ، فجعلت مفهومه ينتشر في العديد من العلوم ، فتغيرت دلالاته ، واختلطت بعدد آخر من المفاهيم مثل الحداثة ، المعاصرة ، التحضر وما يقابلها من مفاهيم مضادة مثل الأصالة ، التخلف ... الخ .

3) انظر كتاب - الأستاذ الدكتور محمد الكتاني : الإنسان والباحث، اعداد : ذ. عبد الله الهمس ، 1993 .

عزالدين البسلاوي

البحث الأدبي في المغرب

- قضاياه ومناهجه -

البحث الأدبي الحديث في المغرب
- المجال والمنجزات -

احمد اليبوري
كلية الآداب – الرباط

نطرح في مستهل هذه المداخلة ، اربع مسائل : تتعلق الاولى بالبحث الادبي ، والثانية بالمناهج الادبية ، والثالثة بالتحديث والرابعة بالتأصيل .

ففيما يتعلق بالمسألة الاولى نشير الي التمييز الذي وضعه كل من (روني ويليك) و(أوستين وارين) في كتابهما (النظرية الادبية) بين ثلاثة مفاهيم :
1) الادب الذي ينتمي الى الفعالية الابداعية .
2) الدراسات الادبية التي ترتبط بالمعرفة والعلم ، دون ان تكون علما بكل معنى الكلمة.
3) البحث الادبي الذي يتمثل ، في نظر الباحثين المذكورين في "بعض العمليات التمهيدية التي تختلف درجة امتدادها وطبيعتها باختلاف الموضوع ".

واستئناسا بهذه المفاهيم نقترح اطلاق البحث الادبي ، ليس على العمليات التمهيدية كما يؤكد كتاب (النظرية الادبية) ، ولكن ايضا على الدراسة والتحليل ، باعتبار كل هذه العناصر محطات داخل انجاز معرفي مركب ومتناسق . ومن هذا المنظور ، فانه لا تكتمل شروط البحث الادبي الا بالاعتماد ، في آن واحد ، علي تاريخ الادب ، ونظرية الادب ، والاجناس الادبية والظواهر الادبية ، والتفاعلات الادبية كالتناص والتلقي ، والتحليلات التي تتناول النصوص الادبية ، في محاولة للوصول الي القوانين الكامنة وراء التكون النصي والاشتغال

النصي، ممهدة بذلك للطروح النظرية ومساهمة في اغنائها .

وبخصوص المسألة الثانية تجدر الاشارة الي ان المنهج والمصطلح ينتميان، اصلا الى العلوم التجريبية والعلوم البحتة والمباحث الفلسفية، حيث يحتل التعريف والمعنى المجرد والترسيمة الذهنية والبديهيات والتصورات العقلية والقوانين .. مكانا بارزا .

وإذا كان ما يسمى قديما "بالانسانيات" أصبح يحمل اسم "العلوم الانسانية "، فان ذلك من باب التجاوز والمحاكاة ، وقد برزت هذه الرغبة في مجاراة المناهج العلمية ، خاصة ، في القرن الثاني عشر في اوربا، حيث كانت وراء كثير من النظريات الادبية في الغرب فنظرية (داروين) التي قدمها في كتابه (في اصل الانواع) 1859 ، كانت المهاد الاساسي لنظرية (برونتيير) حول تطور الاجناس الادبية في كتابه (تطور الاجناس في تاريخ الادب) 1863 ، كما ان مفهوم التجربة عند (كلودبرنار) في كتابه (مدخل الي دراسة الطب التجريبي) 1865، بالاضافة الى نظرية الدكتور (لوكا) في الوراثة ، وقبلهما عند (اوگست كونت) في كتابه (دروس في الفلسفة الوضعية) 1831 ، كان لها كلها تأثير واضح في المدرستين الواقعية والطبيعية في فرنسا ، على المستويين النظري والابداعي .

ولا يخفى على احد العلاقة الوثيقة بين البنيوية التكونية والنظرية الماركسية ، والآثار التي تركتها مدرسة التحليل النفسي لفرويد واتباعه في كثير من المدارس النقدية وخاصة تلك التي تهتم بلا شعور النص ، كما ان هناك عناصر كثيرة ساهمت في تشييد النظرية السيميائية لگريماص ، بعضها ينتمي للسانيات (سوسير)، وبعضها الآخر لتوليدية شومسكي ، كما ساهمت فيها مصطلحات مستعارة من العلوم الفيزيائية كمفهوم التشاكل ، ومن الرياضيات كمفهوم المجموعة .

ان هذه الامثلة تشير ، في آن واحد ، الي التداخل بين المناهج العلمية والفلسفية ، من جهة ، ومناهج البحث الادبي ، من جهة ثانية ، كما انها تبرز طموح هذه الاخيرة الي موضوعية وشمولية الاولى وقد لخص (بول بنيشو) في حوار مع (ت تودروف) وضعية المناهج في حقل العلوم الانسانية بقوله : "نعم اعتقد ان هناك مغالاة في استعمال كلمة منهج ، لانه يوحي بمشروع ثقافي ، والواقع انه يستعمل للاشارة الي

منظومات مسبقة للتأويل ، ومحاولات تعسفية تكون احيانا ، في نظري، مناقضة للروح العلمية ".(2)

وفي نفس الاطار اشار لوسيان گولدمان الي بعض مميزات مناهج العلوم الانسانية موضحا انها لاتهتم بدراسة الوقائع الخارجية شأن العلوم التجريبية ، بل بما هو من صنع الانسان ، ربما يمثل مطامحه وهمومه . وينتج عن ذلك تطابق بين الذات والموضوع : الذات التي تسعى الي المعرفة وموضوع تلك المعرفة ، وذلك ماتنبه اليه (ماكس فيبر) عند مالاحظ ان العلوم التجريبية تهدف الي استخلاص القوانين العامة بينما العلوم الانسانية ترمي الي دراسة احداث تاريخية او اجتماعية ، تتم صياغتها وتركيبها من المعطيات التي يقدمها الواقع، في تداخل مع عوامل ذاتية وايديولوجية . وهذه الوضعية الملتبسة للمناهج في العلوم الانسانية هي التي حدت حسب گولدمان ، بلوكاش في كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) الى التأكيد بان ليس هناك علم في المجال الاجتماعي عامة ، لان المعرفة التي يكونها الشخص عن نفسه ونشاطه ليست علما بل وعيا .

وفي نقطة ثالثة نود الاشارة الي مفهوم التحديث باعتباره انفتاحا علي المنجزات العلمية والفكرية والادبية والفنية وتشبعا بقيمها ، وعلى هذا الاساس فانه يعني اكثر من "التلاؤم مع الحاضر"، والاخذ بحداثة تفضي الى محاكاة وتبعية ثقافية وفكرية ، كما يشير الى ذلك احد الباحثين .

ان التحديث ينخرط في اطار المثاقفة الايجابية والحوار الفكري، ولا ينبغي التأشير على عملية (نقل المفاهيم) دائما بعلامة سلبية، ذلك "ان انتقال الكلمات من ثقافة لاخرى ، لا يفسر وحده التغيير العميق الحاصل في الثقافة المتلقية . فاذا حدث ان هذه الثقافة المتلقية قد عمدت الى اقتباس كلمات جديدة ، ففي داخل هذه الثقافة ينبغي البحث عن الاسباب العميقة التي ادت الي هذا الاقتباس "(5).

ان التحديث ليس مجرد انفعال بالعصر ، بل تفاعل معه ، وفعل فيه، مع الحفاظ علي خاصيتي الاختلاف والمغايرة .

من هنا تبرز في نقطة رابعة ، وظيفة التاصيل وتتحدد في القدرة علي استنبات المفاهيم والمناهج والنظريات وتكييفها مع خصوصية

الذات الثقافية والابداعية ، بمنأى عن الانغلاق المؤدي الى التخلف والاستلاب المفضي الى المحاكاة السلبية . اما الدعوة التي تعتبر ان "لا ابداع ذاتيا دون التحرر من هيمنة الاخر ، ولا ابداع اصيلا دون العودة الى الذات الخاصة بعد ان تقضي على اغترابها في الآخر" (6) فانها تنظر الي مفهومي التأثير والتأثر من زاوية ضيقة تضع العلاقات الادبية والفكرية في نفس مستوى العلاقات السياسة والاقتصادية ، كما تخضعها لنفس الاحكام ، دون ان تأخذ في الاعتبار ان الثقافة اذا كانت تتأثر احيانا في بعض توجهاتها بقانون التاريخ القصير السياسي فانها، في امتداداتها، وتطوراتها وتفاعلاتها ، اكثر تجاوبا مع منطق وقانون التاريخ الطويل (7).

في ضوء هذه المقدمات والتوضيحات سنتاول البحث في الادب العربي الحديث ، بشعبة اللغة العربية بكلية الاداب الرباط كعينة يمكن من خلالها تكوين فكرة عامة عن تطور الدراسات الادبية في مستويي الدكتوراة وديبلوم الدراسات العليا في المغرب .

وفي هذا الاطار تعتبر الستينيات مرحلة انطلاق تلك الدراسات اذ خلالها سجلت اول رسالة في الادب الحديث بجامعة محمد الخامس حول (تطور الفن القصصي في المغرب سنة 1967 ، الي جانب رسالتين في الادب القديم : الاولى حول (ابن عميرة : اثاره وحياته) سنة 1964 لمحمد بنشريفة و الثانية حول تحقيق (روضة التعريف بالحب الشريف) سنة 1969 لمحمد الكتاني .

واذا كان عدد الرسائل الجامعية لم يتجاوز ثلاثا في الستينيات، فانه حقق تقدما نسبيا في السبعينيات ، اذ بلغ عشر رسائل ، اربعا منها في الادب الحديث : **فن المقالة في الأدب المغربي (1912-1956)** - **أدب الجهاد في المغرب الاقصى قبل الحماية** - **ملامح الوجودية في الرواية العربية المعاصرة** - **الشعر الاجتماعي عند علال الفاسي** .

وتؤكد هذه النماذج ان الاهتمام بالاجناس الادبية ازداد اتساعا ، كما تم تدشين البحث في العلاقة بين الادب من جهة والتيارات الدينية والفلسفية من جهة اخرى .

وفي الثمانينيات عرف البحث الاكاديمي ، في نفس الكلية ، قفزة

كبيرة نجملها فيما يلي : في مستوى الدكتوراة . تم تسجيل سبع اطروحات في تخصص الرواية ، واربعا في النقد ، واربعا في الشعر واطروحتان في المسرح ، وفي مستوي ديبلوم الدراسات العليا سجلت ست وعشرون رسالة في مجال الرواية وعشرون في المناهج وتاريخ الادب ، ومثلها في الشعر ، وخمس في الترجمة وثلاث رسائل في الادب المقارن ومثلها في المسرح .

وفي المستوين معا (الدكتوراة وديبلوم د.ع) لوحظ اهتمام خاص بالمناهج تعكسه بعض العناوين : سيميولوجية الشخصية في الرواية العربية (د. دولة) ، القصص الشعبي ، دراسة مورفولوجية (د.دولة) السارد في الرواية العربية (د.د.ع) ، قضية المنهج في الدراسات الادبية المغربية (د.د.ع) التفكير السيميائي الغربي ضمن المباحث البلاغية(د.د.ع) الاتجاه السيميائي في النقد الادبي المعاصر بالمغرب(د.دع) الشعرية التوليدية، حدود النظرية وآفاق التوسيع(د.د.ع) البنيوية التكوينية في نقد الشعر المغربي (د.د.ع) .

ومما هو جدير بالتسجيل ايضا في الثمانينات اتجاه بعض الباحثين الى دراسة السرد التراثي ، وفي مقدمتهم ، خارج اطار الجامعة المغربية ، عبد الفتاح كليطو بانجازه المتميز حول (المقامات ، السرد والانساق الثقافية) ومن جملة هذه الابحاث : السرد التراثي ، كليلة ودمنة نموذجا ، الخبر في البخلاء للجاحظ ، التوابع والزوابع ... كما اتجهت ابحاث اخرى الى الترجمة او الى الكتابة في موضوع الترجمة ، وذلك ماتعكسه عناوين الرسائل الآتية : ترجمة وتقديم كتاب (مدخل الى السيمياء السردية والخطابية) لجوزيف كورتيس ، كتاب (نحو الديكاميرون) تودروف ، ترجمة ومقدمة ودراسة الترجمة الادبية، نظرياتها ، مناهجها ومشكلاتها .

وفي تطور نوعي برزت العناية بالادب المقارن ، في اطار الحوار بين الثقافات كما توضحه العناوين الآتية : صورة اوربا عند الرحالة المغاربة فى القرن التاسع عشر ، صورة الغرب في الرواية المكتوبة بالعربية ، طه حسين والتثاقف العربي الاروبي .

واهم ما يمكن استخلاصه من هذه العناوين والارقام هو توسع قاعدة البحث في الادب الحديث بحيث اصبح يمتد من دراسة التراث الشعري والسردي الى اختبار مناهج نقدية غربية من خلال تطبيقها

على نصوص عربية قديمة وحديثة ، كما تم السعي الى ضبط مفاهيم تتصل بالشعرية والبنيوية التكوينية والسرديات والسيموطيقا...

وقد لوحظ تزايد الاهتمام لدى الباحثين ، في مستوى الدكتوراة، بالرواية والشعر في السنوات الثلاث الاولى من التسعينيات، فسجلت سبع اطروحات في مجال السرديات وثمان في مجال الشعر .

وفي مستوى ديبلوم الدراسات العليا ، وفي نفس الحقبة المشار اليها ، احتلت الرسائل التي تتناول الادب الحديث الصدارة بنسب تتراوح بين 55 و 65 ٪ من مجموع البحوث المسجلة في جميع الاختصاصات الادبية واللغوية ، مع استمرار الاهتمام بالمناهج ومحاولة توظيفها لتحليل النصوص ولتفسير بعض الظواهر الادبية .

ومن المواضيع التي استمرت في الاستئثار باهتمام الباحثين مسألة مكونات السرد التراثي ، والعلاقات التي يمكن ان تقوم بين طرائقه والكتابة الروائية العربية.

ومن ابرز المناهج التي وظفها الباحثون البنيوية التكوينية مطعمة حينا بالتحليل النفسي وحينا آخر بالتحليل اللساني ، كما تمت الاستفادة من المناهج السيميائية والسردية والسوسيو نقدية والتلفظية ، وعنيت بعض الاطروحات بالجانب النظري والنقدي في افق تشييد مفاهيم جديدة وابراز المآزق التي تواجه النقد العربي ونظرية الرواية العربية بصفة خاصة.

وهكذا يتضح ان البحث في اطار الادب الحديث ، في شعبة اللغة العربية بكلية الادب بالرباط من نهاية الستينيات الى السنوات الثلاث الاولي من التسعينات ، تمكن من تحقيق انجازات ايجابية كان من الممكن ان تكون اكثر خصبا ودقة لو توفرت الشروط الموضوعية ضمن استراتيجية عامة للبحث الادبي على مستوى الجامعات المغربية...

الهوامش :

1) R Wellek, A Warrem, La critique littéraire P 55

2) T.Todoror , critique de la critique , P 160
3) L. Goldwam, sciences humaines et philosophie, cha II, PP 33-88
4) علال سيناصر ، حوار بمجلة آفاق المغربية 198 – عدد 5 .
5) علي اومليل ، الخطاب التاريخي ،1500
6) F. Brandel, Ecrits sur l'histoire, PP 47 - 50

حداثة البحث الأدبي في المغرب

حسن المنيعي
كلية الاداب - فـــاس

هناك حقيقة جوهرية وهي أن الحركة الثقافية بالمغرب تعرف اليوم ازدهارا كبيرا من حيث تراكم الإبداعات الأدبية والفنية ، وكذا من حيث تطور البحث الأكاديمي . ويرجع ذلك إلى تشبع المثقف المغربي بتراثه الحضاري وانفتاحه على مجالات الفكر الإنساني : الشيء الذي جعلنا نتوفر على ثقافات ومؤهلات يحرص أصحابها على الوصول إلى أقصى النتائج في مجال العطاء والإبداع.

وبالتالي ، فإذا كانت الحداثة في الغرب قد ارتبطت بالتطور التكنلوجي أو الثورة الصناعية التي عرفتها أوربا في منتصف القرن الماضي (1848) ، فإنها قد ارتكزت على مبدأ الديمقراطية . فهذا يعني « أن الحداثة هي وجه للنسق الجيلي الهائل الذي يؤدي إلى بروز المجتمعات الديمقراطية القائمة على سيادة الفرد والشعب ، أي المجتمعات المتحدة في سلطة الآلهة والتراتب الطبقي الموروث وهيمنة التقليد » (1) .

وبما أن المجتمع الأوربي قد حقق ثورته الديمقراطية ، فإن كل فعل حداثي بالنسبة إليه يعد تدميرا وإبداعا ، تدمير القديم وابتكار الجديد في ظل حرية فردية شاملة خولت للفنانين والأدباء تجاوز السلف وردم القواعد التي وضعوها في كل المجالات . من هنا يمكن القول بأن الحداثة أو الحداثات الأوربية هي موقف تاريخي وفكري . وقد تجلى هذا الموقف في صراع القديم مع الجديد وخصوصا في ميدان البحث الأدبي الذي أدرك قصور المناهج التقليدية ، وانغلاق الدرس الأدبي وتمفصل مادته حول تمجيد الأدب وإبراز فضائله بدل تفجيره وجعله موضع تساؤل .

إن هذه الوضعية التي عملت على تأطير البحث الأدبي في نطاق الشرح اللغوي والنبش في حياة المبدعين ، والبحث عن مرجعياتهم وتموضعاتهم في تاريخ الأدب - هي التي أدت ألى نشوب معركة علمية في فرنسا بين "ريمون بيكار" و "رولان بارت" : أي بين منهج جامعي صارم يهدف إلى تقديم تحليل دقيق للظروف الأدبية والوقوف على تفاصيل الإبداع الأدبي ، ومنهج يهتم بكينونته وبدلالاته ومعانيه وبنايته .

ومما لا شك فيه أن هذه المعركة تؤشر إلى حداثة التعامل مع الأدباء وإلى تطور الدراسة الأدبية واندراجها في أفق علمي لما كان من نتائجه المباشرة ظهور نظريات فاعلة تقترح طرقا إجرائية جديدة لقراءات الأدب وتحليل مكوناته واستراتيجية تشكل خطاباته .

وعليه ، فإذا كانت الحداثة تقوم على مبدإ الهدم البناء وتجانس المدارس الفنية والأوربية وتصارعها ، فإنها لم تهمل التراث الذي ظل بالنسبة إليها مرجعا ثقافيا تتموضع حدوده الزمنية ومخزوناته في الوعي الغربي الحضاري وفي تشعب آفاقه العلمية والفنية . لذلك ، عملت على دراسة هذا الثراث وإحيائه ، (إحياء الثقافة اليونانية) كما حرصت على نقده والإستفاذة منه في مجال الدراسة النقدية والبلاغية والفلسفية ، وكذا في مجال الإبداع الأدبي إلى حد أنه كان منتج ما بعد الحداثة .

أما في العالم العربي ، فإن التراث قد ظل كما يقول محمد عابد الجابري :

> مجموعة عقائد ومعارف وتشريعات ورؤى بالإضافة إلى اللغة التي تحملها وتؤطرها ، تجد إطارها المرجعي التاريخي والإبستملوجي في عصر التدوين (القرن الثاني والثالث للهجرة) وامتداداته التي توقفت آخر تموجاتها مع قيام الأمبراطورية العثمانية في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد) أي مع انطلاقة النهضة الأوروبية .(2)

بعبارة أخرى ، إن هذا التراث بمقدماته المعرفية والأدبية والدينية بقي مستمرا وحاضرا في حياتنا . ولهذا ألح عصر النهضة العربي منذ القرن التاسع عشر على أهمية وضرورة العودة إليه ، لكن هذه العودة عرفت توجهات متباينة تبلورت إما في تقديسه عبر شرحه وتفسير

مغالقه وإعادة إنتاجه ، أو في تفجيره من الداخل وقراءته حداثيا وبمفاهيم منفتحة على الحضارة الغربية الحديثة كان من نتائجها خلق حداثة عربية تابعة للغرب ، ومرتبطة به أشد الارتباط منذ أن كتب طه حسين مؤلفه الشهير ، في الشعر الجاهلي " وصو لا إلى ما جد من دراسات أدبية في المشرق والمغرب استمدت أطروحاتها العلمية من الثقافة الأوروبية باعتبارها ثقافة منتجة للمعارف والمناهج والنظريات . وحتى في مجال الإبداع الأدبي الفني ، كان الغرب يقدم لنا النموذج الأسمى للحداثة في كتابة الشعر والقصة والرواية والمسرح ، إلى درجة أن حداثة الكتابة العربية أمست مجرد نزعة للتجديد بدل أن تشكل تيارا فكريا أو أدبيا يقوم على قواعد فنية واختيارات سوسيو / ثقافية كما هو الشأن مثلا بالنسبة لطروحات الرواية الجديدة الفرنسية في علاقتها المتوترة مع الرواية التقليدية .

وبالتالي ، فإن هذا النزوع إلى التجديد لاتدعمه في الغالب سوى "مقدمات توضيحية" وحوارات عابرة في الصحافة أو بيانات للأدباء تؤشر إلى مواصفات الكتابة الجديدة كبيانات إدوار الخراط في دفاعه عن تيار "الحساسية الجديدة" ، حيث نجده يعرف حداثة الإبداع الروائي كما يلي :

> الحداثة عندي هي الكتابة الجديدة أو الحساسية الجديدة. إنها في حقيقة الأمر الأصالة ، لأنها فكرة لازمنية ولاتاريخية وإن كانت بطبيعة الحال لا يمكن فصلها أو فصمها عن الهموم الآنية وعن مشاكل المعاصرة ومجريات التاريخ المعاصر الخ ...(3) .

وهكذا ، فإذا كانت حداثة الكتابة العربية تشكل نزعة تجديدية، فإن حديثنا عن حداثة البحث الأدبي ببلادنا يفرض علينا أن نشير إلى العوامل الأساسية التي مهدت لهذه الحداثة وهي كالتالي :

* وضعية الثقافة الوطنية خلال السبعينات كوضعية متوثبة تواجه المؤسسة ، وتنادي بتطبيقه سياسة ديمقراطية في كل المجالات بما في ذلك مجال التعليم الجامعي الذي لعب دورا حاسما في تنمية الحركة الثقافية .
* تعايش الاتجاهات والمنابر الثقافية المحافظة منها والمجددة ، مما أدى إلى تنوع في الممارسة الفكرية وإلى بروز مناقشات وخصومات أدبية عبر الصحافة التي ساهمت في تصعيد الفعل الثقافي ، كما ساهمت في تطور الخطاب النقدي الذي خرج من دائرة الانطباعية

الذاتية ليندرج في مجال التحليل المعقلن الذي يعتمد منظورات فكرية وفلسفية ساعدته على تجاوز المنهج الوصفي والتفسيري وحتى العلمي (سانت بوف / طين) لاحتضانه مناهج أخرى كالبنيوية التكوينية والشكلانية ولو من خلال مقولاتها .

تحول الدرس الأدبي في الجامعة ، بحيث لم يعد قائما على تحصيل معلومات سيرذاتية تاريخية عن الأديب أو على دراسة مدى إغراق الشاعر في المحسنات البديعية ، وحرص الروائي على محاكاة الواقع وابتداع بطل مثالي / دونكشوطي أورمانسي حالم ؛ وإنما أصبح الدرس عبارة عن استيعاب لبعض مفاهيم وأدوات النظرية الغربية ، وتشريع منهجي لأشكال التعبير وأنساق الكتابة نابع عن وعي جديد لوظيفة الأدب وعن إدراك معرفي تبلورت أفاقه في بداية الثمانينات، ثم تنوعت فيما بعد بحكم تخصص الأساتذة الذين أدركوا عمق تحول الدراسة الأدبية في الغرب ، وبالتالي تحول النص الحديث الذي فرض عليهم درء كل خطاب يختزله إلى مجرد مضمون أو شكل ، نظرا لانفتاحه على أجناس تراثية أصيلة وعلى أساليب ولغات حداثية متحررة تولد الدلالات والاستعارات وتردم التعبير المباشر .

باختصار ، إن " مفاهيم الولادة والأصول الموروثة عن التاريخ والوضعية وكذا مفهوم الغائية الايديولوجية للكتابة [الالتزام] أصبحت مسوخات عسفية خارجة عن الموضوع الأدبي ، لذا وجب اعتبار مختلف نصوص كاتب ما أو كتاب تنويعات كل واحد بالنسبة للآخر ، لأن كل نص يقيم علاقات تناهية ومتداخلة . ومن ثم . فإن المجهود ينحصر في إيجاد تنظير للأدب ينحدر من الأدب ولموضعه مع ذلك في السياق الإنساني " (4) .

هذا مافعلته النظرية الغربية بطرق متعددة انطلاقا من حصيلة دراسات علمية أنجزت في مجال اللسانيات ، والبلاغة ، والفلسفة . وعلم الاجتماع الأدبي . وعلم النفس التحليلي ، والانتروبولوجيا البنيوية ، والتأويلية وعلم الدلالة والسرديات ونظرية التلقي وغيرها من النظريات التي " تخول للأدب الحديث التمسك بوظيفة نقدية إبداعا وقراءة ، وبعث نهضة الإنسان كاتبا كان أم قارئا " .(5)

وإذا كان لابد من الإقرار بأن الدرس الجامعي قد حرص على التعريف بهذه النظريات (ولو جزئيا على الأقل) فإن الترجمة قد ساهمت هي الأخرى في ترسيخ مفاهيمها الأساسية رغم تعثرها في

جوانب متعددة وعلى الخصوص في جانب المصطلح .

لكن جدية التأطير الجامعي واجتهاد الباحثين كانا من أهم العومل الموضوعية التي ساعدت البحث الأدبي قي المغرب على تدشين عصره الجديد وعلي خلق حداثته حسب قناعة كل باحث أودارس .وهذا لايعني أن الدراسة التقليدية الفاحصة والواصفة للادب والمتشبثة بأحكام القيمة لم يعد لها حضور على صعيد البحث ، بل ظلت قائمة في موازات التحديث تدافع عن أصالتها ومصداقيتها إلى درجة أن بعض الاساتذة المتحمسين لها اعتبروا البحث الأدبي الجديد مجرد " بدعة عابرة " وعملية تخريب لخصوصية الإبداع العربي نظرا لمساءلته ومقارنته بمناهج غريبة : الشيء الذي حمل بعض الباحثين على تحقيق معادلة أو ملائمة بين المناهج التراثيةالعربية والمناهج الغربية خصوصا في دراسة الشعر .

وإذا كانت المواقف (مع أو ضد النظرية الغربية) فإن تجربة الإشراف على الرسائل الجامعية ومناقشتها جعلتني أقتنع بأن نسبة كبيرة من الطلبة الباحثين يريد التعامل مع المناهج الغربية مهما كلفهم ذلك من متاعب ومخاطر ، إذ أن ما يلفت الإنتباه في هذا الصدد هو فعل تحقيق قطيعة مع المناهج التقليدية المتداولة من أجل الخوض في مشروع منهجي والاستئناس بأداواته الإجرائية . وبالتالي فبمجرد ما يتم التشاور مع الاستاذ المشرف يلجأ الباحث المتفرغ (لا الموظف) إلى جمع الوثائق والمستنذات وتحصيل مكونات النظرية وآ ليات المنهج المتفرغ عنها خلال سنة أو سنتين ، ثم يحرر تقريرا نظريا يؤشر فيه إلى النتائج التي توصل إليها كما يقترح من خلاله خطاطة أولية للموضوع الذي اختاره ، بعد ذلك ، يشرع في عملية الصياغة أو المعالجة العلمية التي يمكن تحديد محطاتها في التوزيع التالي :

- مقدمة عامة : يحدد فيها الباحث ذرائع اختيار الموضوع وأهميته بالنسبة للبحث الجامعي وعلاقته الفكرية و قطيعته مع الدراسات السابقة مع بعض وصف مركز لأبوابه وفصوله .
- مدخل نظري : يعرف فيه بالمنهج وبمكوناته الأساسية مع الوقوف على أهم أدواته التي سيعمل على الإستفادة منها .
- أبواب أو مباحث تطبيقية تؤسس خطابا أو خطابات تحليلية تروم إلى تطبيق المنهج الذي تم اختياره على النصوص المدروسة .
- استنتاجات عامة .
- معجم مصطلحي .

- فهرس أو لائحة للمصادر الأجنبية والعربية .

إن معظم الرسائل الجامعية التي أشرفت عليها أو ناقشتها تتوزع في الغالب على هذه الطريقة التي تخول للباحث المزاوجة بين النظرية والتطبيق ، مزاوجة كان من نتائجها الإيجابية التعريف ببعض المفاهيم النقدية الغربية ، وترويضها لتحديث الدراسة الأدبية . من هنا يمكن التأكيد على أن هذه الرسائل قد أضافت أشياء جديدة لم تكن معروفة على مستوى البحث الادبي . ذلك ، أنه بدل حصر المعالجة في وصف وتقييم الظواهر الأدبية ، صار الباحثون يهتمون بقضايا جوهرية ترتبط بمكونات الإبداع الأدبي وأجناسه وذلك من منطلقات علمية تبحث في " أدبيته " وفق قناعات ذاتيه تعكس انحياز كل باحث إلى شعرية محددة أو إلى منهج نقدي وظائفي .

وهكذا ، فإذا كانت الأبحاث الجامعية تختلف في النتائج التي وصلت إليها وفي تعاملها مع المنهج والمصطلح ، فإن ذلك يرجع في الأساس الى ثقافة الباحث ومؤهلاته العلمية لا إلى التأطير كما قد يتوهم البعض لأن الأستاذ المشرف يظل دوما مجرد مراقب لأطوار البحث وموجه لصاحبه ، لا يستطيع تقويم اعوجاجاته المنهجية أوالمعرفية نظرا لانشغاله بالتدريس والبحث . كل ما يمكن أن يفعله هو إبداء ملاحظات حول اللغة والمعلومات العلمية وطريقة تعامل الباحث مع المنهج انطلاقا من مبدأ الصرامة ، والتشدد في المواقف والكشف عن مدى إلمامه بالموضوع الذي يجب أن يعتبر شرطا أساسيا لعملية الاشراف خصوصا على مستوى دبلوم الدراسات العليا .

وبما أن أغلبية الرسائل الجامعية المنجزة في نطاق شعبة اللغة العربية تقوم على عطاء علمي كبير إما من حيث تطبيقه المنهج الواحد أوالتركيب فيما بينه وبين مناهج أخرى قريبة منه أو مكملة له ، فإن جل المشرفين يفضلون التعامل مع باحثين نجباء يستطيعون الولوج إلى عوالم الإبداع الأدبي لفك مغالقه الفكرية والأسلوبية .

في هذا الصدد ، استطاع بعض الباحثين الذين تعاملت معهم تقديم أبحاث جادة تتناول استراتيجية الإبداع الروائي من منظور السرد ، ولعبة الأزمنة ، واشتغال الفضاء والوصف والتبشير والنقلة البوليسية ، وشاعرية الخطاب ومسرحيته وأسطورة الواقع وتوظيف العجائبي والواقعية السحرية إلي غير ذلك من التفاعلات الأسلوبية

والنصية التي تعرفها الرؤية العربية .

وفي موازاة هذه الرسائل ، هناك أبحاث أخرى اهتمت بدراسة الفعل المسرحي من منظورسيميائي يعالج الشخصية التراثية أو منظور التمسرح Théaretité وتجلياته في الإبداع الدرامي المغربي المغربي ، إضافة إلى قضية التلقي في المسرح أو اعادة قراءة شعريات مسرحية كشعرية برتولدبرشت .

أما في باب النقد ، فقد انحصر البحث في دراسة أوضاع النقد العربي الحديث بمدارسه وروافده الغربية وطرق اشتغاله على الإبداع الروائي والمسرحي وبصفة عامة ، فإذا كانت هذه الأبحاث تنطوي في الغالب علي أسانيد علمية ومنطلقات فكرية هامة تعكس اجتهاذ الباحثين وافتتانهم بالموضوع المعالج ، فإن بعضها كان يتأرجح بين الإيجابي والسلبي :

*من إيجابياتها :
- التعريف بكتابات غربية جديدة بعضها لم يترجم بعد خصوصا في مجال المسرح .
- تقديم نظريات نقدية حديثة .
- التعامل مع الإنتاج الأدبي العربي دون التحيزلكاتب على كاتب آخر.
- إدراك الباحث لأصول المنهج الذي يسترشد به ، وتطعيمه بخطابات منهجية مساعدة نابعة من حقول معرفية كالتاريخ ، وعلم اجتماع الأدب وعلم النفس ونظرية الفن عموما.
- تأسيس خطاب تحليلي يراعي خصوصية الإبداع العربي كأداة قابلة للتطويع ، لا كقواعد معيارية ثابتة .

* أما السلبيات ، فإنها كثيرة نذكر بعضها مثل :
- تطبيق خطاب منهجي دوغماتي تتحكم فيه لغة تقنية دقيقة ناتجة عن التزام الباحث بالتطبيق الالي لمنهج من خلال تقطيع النص وإخضاعه إلى تشريع نظري ومصطلحي أو إلى وصف مقعر لا يستعين بحقول معرفية أخرى .
- تطبيق فرضيات المنهج باعتبارها حقائق نهائية تعزل عن سياقها الغربي ، وتطبق قسرا على الإبداع العربي .
- الخلط في المفاهيم والمقولات ، واجترار محددات نظرية مغلوطة ناتجة عن رداءة الترجمة .

- تشويه المصطلح .
-اختزال النظرية إلى مجرد " تعريفات " متناثرة ندعم التحليل .

خلاصة :

وأخيرا ، فإذا كانت حداثة البحث الأدبي تتجلى في تنوع مشاريعه وفي دراساته المتخصصة التي تعمل على الإستفادة من التطورات التي حصلت في مختلف العلوم والفنون الإنسانية فإن صيانة هذه الحداثة تفرض إيجاد سياسة تعليمية هادفة تحرص على تشجيع الباحثين والمؤطرين وتسعى إلى خلق تفاعل وتكامل بين التعليم الثانوي والجامعي ، بحيث يشكل الأول أرضية خصبة لترسيخ المفاهيم الأدبية القديمة والحديثة ، قبل أن يتحقق امتدادها وتعميقها في الجامعة عبر تكوين منهجي منظم ينفتح على آفاق بعيدة سواء على مستوى الدرس أو علي مستوى التمرس على مناهج التحليل والدراسة .

وبما أن الجامعة المغربية تعد بؤرة لخلق المهارات العلمية ، فإن من اللازم تزويد شعب كلياتها بالإمكانات المادية والمعنوية وبالآليات الحديثة لمساعدة الباحثين والمؤطرين على التشبع بروح البحث العلمي، وتوجيه اهتمامهم نحو الإنتاج المتميز بخصوصيته المغربية لأنه مهما كانت هنالك مؤشرات دالة على حداثة البحث الأدبي وعلى تمايزه بين الباحثين، فإن واقعنا التعليمي لم يتخلص بعد من كل ما يعاني منه واقعنا الإجتماعي والسياسي والثقافي من أزمات هيكلية تحتاج إلى حلول جذرية توازي التحولات التي يعرفها المجتمع المغربي في سلوكاته اليومية ، ونمط عيشه المادي وانفتاحه على مستجدات العصر الحديث .

الهوامش :

1) جيل لبوفتسكي : الفن الحديث والفردانية الديمقراطية - مجلة " مناقشة " عدد 21 شتنبر 82 ، ص 49 .
2) محمد عابد الجابزي : التراث ومشكل المنهج (المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية) ، دارتوبقال 1986 ، ص 83 .
3) حوارمع إدوار الخراط : " مجلة الشاهد " ع 73 - أيلول

.1991

4) جان بسيير : المشاكل الحديثة للأدب (الأدب والأجناس الأدبية) كتاب جماعي - منشورات لروس، ص 36 .

5) المرجع السابق .

« الصراع بين القديم والجديد » والمشروع النقدي في الأدب العربي

حميد لحمداني
كلية الآداب - فـــاس

لا يسعني في البداية إلا أن أقدم شكري لكل من سهر على تنظيم هذا اللقاء في هذه الكلية العامرة ، لأنهم أتاحوا لنا الفرصة للتعبير عن مشاعرنا الخاصة تجاه عالم وباحث عزيز علينا صاحبناه في مسيرتنا العلمية أكثر من عشرين سنة ولانزال نستفيذ من علمه إلى الآن ، وهو الدكتور محمد الكتاني .

وقد وجدنا أن أفضل وسيلة للتعبير عن هذه المشاعر هي أن نتناول أحد أعماله المهمة في الدراسات الأدبية بالتحليل ، ونقصد أطروحته المتميزة عن موضوع : الصراع بين القد يم والجديد في الأدب العربي الحديث * (دار الثقافة 1982) .

يعتبر هذا العمل النقدي الكبير انجازا علميا فريدا بين الدراسات المهتمة بالقضايا الأدبية ، وبتاريخ الأدب ، وتأتي أهميته الخاصة من كونه لم يتبع ذلك التقليد المعروف في الكتابة عن الظواهر الأدبية الذي يعتمد على مراكمة النصوص ، والوقائع التاريخية دون وضع خطة شاملة تنتظم مجموع العمل . فقد خضعت اطروحة الدكتور محمد الكتاني لمنهجية علمية صارمة في التأليف تبدأ من تحديد الأهداف ووضع الفرضية وحصر المنهج ، وتنتقل في النهاية إلى الاستنتاجات ،

---

*) نعتمد الطبعة الأولى ، دار الثقافة 1982.

وتقديم البدائل الممكنة في ضوء تصور عميق ومسند بالبناء الفلسفي الواضح . هكذا تأطر البحث في مدخله المنهجي بالتحديدات التالية :

1 - الأهداف : فهدف البحث كان هو :

- وضع الصراع بين القديم والجديد في إطاره الديني والقومي، والاجتماعي ، والحضاري منذ عهد الانبعاث إلى فترة التأليف .
- إظهار إسهام الأدب في تشخيص الواقع الفكري والاجتماعي العربي.
- ثم تحديد العوامل الفعالة (اجتماعية و حضارية) الكامنة وراء تطور الأدب العربي (ج 1 .ص : 6)

وبموازاة مع تحديد الأهداف هناك إلحاح على الاهتمام بالجانب الاديولوجي ودوره الأساسي في تفسير الظاهرة الأدبية بدل الاعتماد علي الأذواق والنزوات في هذا التفسير ، بمعنى أنه جعل الظاهرة الأدبية ظاهرة إنسانية تخضع للشروط الاجتماعية والحضارية التي وجدت فيها :

... الجديد الذي حاولنا إبرازه في عرض هذا البحث هو إعادة تركيب الواقع الأدبي من عناصره المبعثرة هنا وهناك بحيث تساق الظواهر الأدبية والتيارات الفكرية في ارتباط عضوي بعواملها الاجتماعية ومناخها الإديولوجي (...) لقد أبعدنا من تفكيرنا ، منذ البداية ، أن تكون ظاهرة الصراع الأدبي نزوة من نزوات الذوق والمزاج ... (ج : 1 ص 7-6) .

2 - المؤهلات :

بيَّن الباحث أن القيام بمهمة البحث في موضوع الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي يتطلب :

- الاحتياط في الحكم .
- سعة الاطلاع .
- عدم الانخداع بالآراء الشائعة .
- متابعة الدوريات والمجلات .
- تجنب الأحكام المطلقة .
- التواضع في البحث .

وكل هذه المؤهلات عرفناها في أستاذنا متجسدة في محاضراته وأعماله العلمية ، ولا ننسى في هذا الصدد أنه تلقى اخلاقيات البحث العلمي من أستاذنا جميعا الدكتور أمجد الطرابلسي الذي خرج على يده خيرة من الباحثين المغاربة .

3 - المنهـج :

ترتكز الحاجة إلي المنهج الفعال في دراسة الباحث على مسألة التمييز بين مفهومي الأثر الأدبي والحدث الأدبي . مع العلم أنه لاينبغي النظر إلى أنهما منفصلان في الظاهرة الأدبية بل هما وحدة لا تتجزأ، ومع ذلك يقتضي التمييز بينهما استخدام منهج مزدوج :

* فالأثر الأدبي عمل **فردي** وهو لذلك يفترض **تفاعلا** تجاوبيا أي **تذوقا** مما يستدعي استخدام **منهج فني** .
* أما الحدث الأدبي : فهو عمل **جماعي** يفترض **تحليلا** ، أي دراسة عقلانية مما يستدعي استخدام **المنهج التحليلي** (التاريخ - علم الإجتماع - الاثنوغرافيا) (ج 1 ص : 14 - 17) .

4 - فرضية البحث :

ويصوغها الباحث كالتالي :

الفرضية التي نوجه البحث في ضوئها هي أن الوعي الاديولوجي هو الذي وجه حياة الأدب العربي خلال المرحلة التي نبحثها كما وجه حياة السياسة والأخلاق والفكر عامة . وتعدد أنماط الوعي كان يعكس بذاته تعدد مستويات التفكير والتصور لما يجب أن تكون عليه الحياة الفكرية والفنية للمجتمع العربي وهو يبحث عن ذاته . (ج 1 . ص : 19) .

الأدب إذن في ضوء هذه الحقيقة ليس انعكاسا مباشرا للواقع الاجتماعي والسياسي ولكنه مندمج فيه . وعليه ففهمه لا يتم بالمقارنة الآلية بينه وبين الواقع ، ولكن بوضعه في سياق هذا الواقع بما يتأجج فيه من صراع ايديولوجي وفكري .

5 - مجال البحث :

تتجلي موسوعية الباحث في النهوض بعمل علمي يعالج قضية الصراع بين القديم والجديد في بيئة عربية واسعة الأطراف ، وهي بيئة الشام ومصر دون اغفال البيئات العربية الأخرى التي كانت تتجاوب مع القضايا المطروحة ، في مصر وسوريا ولبنان وخاصة بيئة العراق . وتأتي أولوية الشام و مصر لانهما أسبق البيئات العربية إلى معرفة الصراع بين القديم والجديد بسبب سبق اتصالهما بالغرب عن طريق الغزو السياسي والثقافي (ج 1 ص : 25 .) ولا يخفى أن اتساع مجال البحث بهذه الصورة يحتاج إلى جهد جبار لتقصي ظاهرة الصراع في

بيئات جغرافية شاسعة علما بأن العمل تتبع هذا الموضوع في تفاصيله المعقدة خلال أزيد من نصف قرن (منتصف القرن العشرين) وهي فترة من أخصب المراحل في التجربةالأدبية والنقدية العربية .

6 - تحديد مظاهر الصراع :

أشرنا إلى أن الباحث فرض على نفسه منهجا صارما يظهر إلى أي حد كان مخلصا للبحث العلمي بما يقتضيه من وضوح وتحديد للأهداف والمقاصد ، فضلا عن حصر الموضوع بأكبر قدر من الدقة . وهكذا نجده في المدخل يضعنا أمام جميع مظاهر الصراع بين القديم والجديد ، وخاصة ما يتعلق منها بوجوهه الفلسفية والاديولوجية التي تحكمت في سيرورة البحث الأدبي : (ج . 1 ص : 29) ، من هذه الوجوه :

- الصراع بين الدين والعقل (أي بين الوعي الإسلامي والنزعة الوضعية .)
- الصراع بين المثالية والواقعية .
- الصراع بين الليبرالية ، والاشتراكية .
- الصراع بين الأصالة والمعاصرة (المحافظة والتجديد) .

في هذا الإطار يرى الباحث بأن قضية معالجة الصراع بين القديم والجديد (بحكم خلفيتها الاديولوجية) لاينبغي أن تدفع المرء إلى الاعتقاد بأنه يمكن أن يصل إلى الحقيقة الكاملة أو أنه سيقول الكلمة الفصل في الموضوع ، لأن مجال الإديولوجيات ينأى بطبيعته عن ذلك ؛ أي عن الوصول إلى حقائق مطلقة . وقد سمح له هذا التصور بأن يتحرك بمرونة بين جميع الاتجاهات بعرضها في نزاهة وأمانة ، مقارنا بين المواقف والاتجاهات ، هاجسه الوصول إلى تحديد أكثر الرؤى صلاحية لتقديم معرفة أفضل بالظاهرة الأدبية في شتى تجلياتها .

تتميز هذه الدراسة أيضا بكثافة المعلومات التي تم الاطلاع عليها لمعرفة الصورة النسبية للصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي، ولذلك نستطيع وصف هذا العمل بأنه يتسم بالموسوعية مع الالتزام في نفس الوقت بالتركيز على قضايا الصراع الجوهرية .

هكذا تم التمهيد للبحث بفصل خاص عن الخلفية السياسية والاجتماعية التي ظهر في تضاعيفها هذا الصراع الأدبي . وقد عودتنا كثير من الكتب التي ألفت حول قضايا الأدب العربي الحديث أو القديم،

على وضع مداخل تعرض بعض مظاهر الحياة السياسية ، والتاريخية والثقافية بحيث تأتي الدراسة الأدبية فيما بعد و كأنها تامة الانفصال عن المعلومات المحشورة في تلك المداخل ، ومن الانصاف القول إن مجموع دراسة الدكتور محمد الكتاني جاءت كوحدة متلاحمة لاتنفصل، فهناك فرضية واحدة تمثل الناظم الأساسي لمجموع أقسام هذه الأطروحة. وعمل من هذا القبيل عز نظيره في النقد الأدبي العربي، فقليلا ما ينطلق النقاد في دراساتهم من رؤية شمولية واضحة للظاهرة التي تراد دراستها .

وهكذا جاء التمهيد (= الفصل الثاني في الدراسة) مرتبطا عضويا بباقي أبواب وفصول الدراسة ، لأنه قدم الأرضية الدينية والقومية والاديولوجية التي نشأ فيها ومن خلالها الصراع بين القديم والجديد .

نجد مصداقية ذلك في عقد الصلة بين كل مظهر من مظاهر الصراع وخلفيته الفلسفية والفكرية . هكذا كانت النزعة الدينية هي محرك بعض الشعراء الذين انتقدوا الدعوة الليبرالية التي نادت بحرية المرأة وخاصة دعوة قاسم أمين . فحين يقول أحمد محرم (ج:1. ص : 101) :

أقاسِمُ لاتَقذِفْ بجيْشِكَ تبتغي ... بِقومكَ والإسلامِ ما اللهُ عالمُ
لنا من بُناةِ الأوّلينَ بَقِيّةٌ ... تلوذُ بها أعراضُنا والمحارمُ
أُسائلُ نفسي : إذ دَلفْتَ تريدُها ... أ أنْتَ من البانين أم أنت هادِمُ؟!
ولولا اللواتي أنت تبْكي مُصابَها ... لما قام للأخلاق في مصر قائم

فهو يعبر بشكل مباشر عن صراع بين رؤية تضع نفسها في إطار المحافظة على القيم الأصيلة ، ورؤية تريد أن تكون في طليعة المنادين بالتحرر من قيود الماضي .

كما بين الباحث كيف تجسدت النزعة القومية في أشعار تنادي بالوحدة المرتكزة على العامل اللغوي والثقافي كما يقول الشاعر : (ج 1 ص 141) :

كلُّ الربوع ربوع العُرْبِ لي وطنٌ ... مابين مبتعِد منها ومقتربِ

إن لم تكن وحدةُ الأنساب جامعـــةً فإننـــا جمعتنـــا وحـــدة الأدبِ
للضّاد ترجع أنسابٌ مفرَّقَـــــــة فالضـــاد أفضـــلُ أم بـــرَّةٍ وأبِ
تفنى العصورُ وتبقى الضادُ خالدةً شجىً بحلقِ غريبِ الدار مُغْتصِبِ

كما كان لشيوع الوعي الاجتماعي والنزعات الاشتراكية بمختلف أشكالها مظهرهما على مستوى الابداع الأدبي ؛ تجسد الوعي الاجتماعي مثلا في أشعار الزهاوي والرصافي والنجفي ، والجواهري ، ومن ذلك قول الرصافي : (ج 1 ص 166) :

عندنا اليومَ ضفي الحياة نظامٌ قـد حوى كلَّ باطل ومحالِ
حيثُ يسعى الفقيرُ سعْيَ أجيرِ لغنـيٍّ مستأثـر بالغِـــلالِ
أكثرُ الناس يكدحون لقـــوم قعدوا في قصورهم والعلالي
واحد في النعيم يلهـو وألْـفٌ في شقاءٍ وأبؤسٍ واعتـــلالِ

هذا الاتجاه التحليلي يؤكد أن الباحث كانت له رؤية دينامية لعلاقة الواقع بالفكر ، فالأدب متأثر بالآراء والمواقف الفكرية الموجودة في الواقع ، وهو لايناقش الواقع إلا انطلاقا من هذه الآراء والمواقف . ولهذه الطريقة مردودية كبيرة على المستوى المعرفي والإقناعي خلاف طريقة من يقدم تصوره - من الدارسين - على أنه التصور الوحيد الممكن للظواهر الواقعية ، ويلزم تبعا لذلك قراءه بآرائه الشخصية .

إن تكييف حركات وأشكال الصراع الأدبي وفق منظور محدد سلفا يسيء إلى الحياد المبدئي الذي ينبغي أن يلتزم به الباحث على الأقل أثناء مرحلة العرض والتحليل .

وهذا الحياد المبدئي هو بالتحديد ما اكسب دراسة الباحث رؤية دينامية نستطيع تسميتها أيضا رؤية جدلية . فضمن هذه الرؤية لاينبغي عقد المقارنة بين الأدب والواقع مباشرة ولكن بين الأدب والتصورات الموجودة عن الواقع في الحقل الثقافي والاديولوجي ، وهذا أكده الباحث حين قال :

إن طبيعة الصراع الفكري العام ... تجعل الباحث مضطرا إلى

أن يتلمس نزعات الفكر المحركة لذلك الصراع الأدبي من خلال الاتجاهات والآراء التي عبرت عن نفسها بشكل من أشكال التعبير ، ومن هنا تتجلى أهمية الكلمة المكتوبة في تشخيص ذلك الصراع ...(ج1.ص220) .

هكذا ؛ فبدل تقديم ذلك التفسير الآلي لحركة الانبعاث بظهور المطبعة وانتقال الثقافة من الغرب إلى العالم العربي ، نجده ينظر إلى العوامل الخارجية كعنصر من عناصر التفاعل ؛ فالنفسية العربية ، وكذا الثقافة العربية كلها عناصر تفاعلت مع المعطيات الخارجية لتنهض بالأدب العربي والفكر عامة في هذه الفترة الأولى الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر إلى العشرينات من هذا القرن،ولهذا ، فالحياة الأدبية لايمكن أن تكون مجرد استجابة آلية لتلك العوامل والمؤسسات الجديدة ، وكأنها أسباب نهائية في خلق هذا الانبعاث الأدبي (...)

إننا نعتبر تلك العوامل والمؤسسات التي جاءت مع الحضارة الحديثه [يقول الباحث] مجرد وسائل تفعل فعلها تحت تأثير القوى الروحية التي توجهها والتي كانت تنبعث في حياة الشرق العربي فتدفع به دفعا - لا هوادة فيه - نحو التطلع والاقتباس والتأثر والانفتاح على كل تأثير ... (ج 1 ص 229).

تتميز دراسة الدكتور محمد الكتاني أيضا بتعدد الاهتمامات مما يؤكد الرغبة في تقديم اشمل صورة عن قضية الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي . في الشعر ، والنثر ، والممارسة النقدية ، والحق أن موضوع الصراع هذا لايمكن أن يدرس في أبعاده الأساسية إلا في ضوء العلاقة المتبادلة بين الابداع الأدبي والنقد .

يقدم الباحث على سبيل المثال في الباب الثاني صورة دقيقة عن واقع تأصيل القديم في إطاري المدرسة الكلاسية في الشعر والمدرسة البيانية في النثر . (ج 1ص 349) ، ثم ينتقل إلى قضية تأصيل الجديد فيتعرض لحركات التجديد في الشعر وفي أساليب وفنون النثر (ج 1 ص : 472) ، وأخيرا يعالج قضية القديم والجديد في مجال الدراسات والنقد ، كل هذا في إطار الحديث عن مظاهر التقاء وصراع القديم والجديد في الحياة الأدبية ، أما مظاهر الصراع نفسها فقد استغرق البحث فيها جل الجزء الثاني من الأطروحة أي حوالي 900 صفحة .

وتتجلى أهمية هذا الجزء في كونه ينطلق أولا وقبل كل شيء من

تحديد مفهوم القديم والجديد لدى مختلف انماط الوعى الموجودة في الواقع الفكري العربي : الوعي الديني -الوعي الأدبي الوعي القومي - الوعي الوضعي ثم الوعي الاجتماعي .

ويتكامل تحديد المفهوم مع حصر المحاور التي دار حولها الصراع بين القديم والجديد :

- مشكلة العامية والفصحى .
- قضية الأساليب الأدبية .
- المسألة البلاغية .
- قضايا الشعر .
- المناهج النقدية .
- إشكالية تقويم التراث .

ولايكتفي الباحث هنا بعرض مظاهر ومحاور الصراع ، ولكنه يتابع تفاصيله بروح الباحث المتأمل المدقق حتى يتسنى له الانتقال إلى مرحلة الاستنتاجات التي هي أهم مرحلة في كل بحث علمي . ومن الاستنتاجات التي ينبغي أن يراعيها كل مهتم بتطور الفنون الأدبية في الواقع العربي الحديث ، أن حظ الشعر من الصراع كان أكبر من حظ الفنون الأدبية الأخرى ، لأنه << كان واقعا بين جاذ بيتي تأثير التراث والمعاصرة >> (ج 2 . ص 1212) ، ومقابل ذلك كان تأثير الجديد أكبر من تأثير المحافظة في مجال الأنواع الأدبية الأخرى ، وخاصة الفنون القصصية . (ج : 2 ص 1213) .

يولى الباحث أيضا عناية بالغة للتأمل والتقويم ووضع الاقتراحات البناءة ، وهو مايؤكد اشارتنا السابقة إلى أن عمله هو مشروع علمي يرتكز على رؤية فلسفية تلائم البحث في مجال العلوم الإنسانية (ومنها مجال الأدب والنقد) . يستند مشروع الباحث إلى فكرة تدحض المثالية المطلقة والمادية المطلقة ، لأنهما معا ينفيان ثنائية المادة والفكر . وعلى هذا الأساس ، فالأدب باعتباره ظاهرة فكرية ينبغي أن يُدرَس من منظور أربع علاقات : (ج 2 ص 1172 - 1175) :

1 - علاقة الأدب بالذات (علاقة ذاتية) . فالتعبير الأدبي هو أولا تعبير عن تجربة فردية نفسية فكرية عاطفية وهذه العلاقة تشير إلى البعد النفسي للظاهرة الأدبية .
2 - علاقة الأدب بالمجتمع (وهي علاقة موضوعية) ، فالأديب وإن كان فردا فهو لايبدع خارج محيطه الاجتماعي كما أنه يأخذ من هذا

المحيط وسائل إبداعه : وهي اللغة والتقاليد الفنية وأنماط التعبير الفني .

3 - علاقة الأدب بالظاهرة الفنية (علاقة عضوية) « فما يميز الأدب ، عموما - مثلما يميز أي فن - هو أن يكون في صورته مايدل على أنه فن » . وهذه إشارة واضحة إلى مفهوم الأدبية ، أي النظر إلى الأدب باعتباره ظاهرة فنية في ذاته .

4 - علاقة الأدب بجدلية الواقع في كل مظاهره (العلاقة الجدلية) ، فالأدب كذلك مرتبط بكل انماط المنجزات والأحداث الإنسانية ارتباطا جدليا .

وإذا أمكننا أن نجمع العلاقة الجدلية بالعلاقة الاجتماعية في خانة واحدة ، فإننا في الواقع سنحصل على تلك العلاقة الثلاثية التي تقيمها السميائيات الحديثة بين وجوه الظاهرة الأدبية : الوجه المرجعي - والوجه النصي - والوجه الذاتي .

هذا هو التصور الذي كان يعوز النقد العربي لكي يقوم على أسس متينة ؛ ذلك أن هذه الحقيقة غابت عن أكثر منظري النقد الأدبي، ولذلك ظلت أعمالهم وتأملاتهم تدرس الظاهرة الأدبية والصراع الدائر حولها كوقائع يكفي سردها أوردها إلى أمزجة الأفراد أو إركامها بموازاة خلفية تاريخية مسهبة دون تقديم ذلك المخاض الكلي الذي لاتنبثق منه الأعمال الأدبية فحسب بل تشارك فيه وتجسده .

إن الناظر إلى الدراسات الأدبية الخاصة بالظواهر الكبرى في تاريخ الأدب العربي سيجد دون شك أن هذا العمل الموسوعي يمثل طفرة نوعية متميزة في الدراسات النقدية التأريخية ليس في المغرب فحسب وإنما على مستوى العالم العربي . وسيظل هذا العمل دائرة معارف القضايا الأدبية والنقدية للعصر الحديث وما واكبها من اتجاهات سياسية ودينية واجتماعية وفكرية ، لاغنى للباحث ولا للطالب المتخصص عنها إذا هو أراد أن يتمثل انشط حقبة من حقب التطور الأدبي والنقدي في الفكر العربي الحديث .

قضايا المنهج
في تحليل النص الأدبي القديم

عبد العزيز الحلوي
كلية الآداب - تطـــوان

تقديـــــم :

أود في البداية أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كافة أطر وأساتذة هذه الكلية البارة التي نظمت هذا العرس الثقافي الكبير ، وقرنته بتكريم أستاذنا الجليل الدكتور سيدي محمد الكتاني . فهي بهذا الإنجاز وغيره مما سبق ، جديرة بأن تعتبر كلية الإكرام والتكريم .

وإنها لمناسبة عظيمة ، قمينة بإن تشد إليها الرحال ، وتضرب نحوها أكباد الإبل ، وكيف لا ، ومعظم أساتذة الكليات الفتية في المغرب مدينون له بذلك أكثر من غيرنا ، لانه يغمرنا بغزير علمه وأدبه، وسداد رأيه وتوجيهه ، وحسن أخلاقه وسلوكه .

موضوع هذا العرض"قضايا المنهج في تحليل النص الأدبي القديم"، ولا تخفى أهمية هذا الموضوع في مجال البحث الأدبي عموما شرقية وغربية . وسأحاول من خلال هذه الكلمة الوجيزة - إعادة طرح بعض هذه القضايا لتكون أرضية للمناقشة الجادة المفيدة .

ليس غريبا في مجال صناعة الأدب أن يعتبر النص الإبداعي ضربا من النسيج ، تتشابك لحمته وسداه لتجعله خلقا فنيا سويا .

ولا شك أن العرب القدامى كانوا ينظرون إلى قصائدهم بهذا

المنظار حين « وصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العَصْب*، وكالحُلل والمعاطف ، والديباج والوشي ، وأشباه ذلك » (1) .وسايرهم في ذلك أشهر النقاد . فالجاحظ يرى أن « الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير » (2) . وابن طباطبا العلوي يعقد في كتابه (عيار الشعر) فصلا لما أسماه صناعة الشعر ، وفيه يشبه الشاعر ب « النساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويق ويسديه وينيره ولا يهلهل شيئا منه فيشينه » ويشبهه كذلك « بالنقاش الرفيق ... وبناظم الجوهر ... » (3)

ومن هؤلاء استوحى أبو تمام وصف قصيدة له حين قال عنها :

الجد والهزل في توشيع لحمتها
والنبل والسخف والأشجان والطرب(4)

ووصف قصيدة أخرى حين جعلها :

كشقيقة البُرد المنمنم وشيه في أرض مَهْرَة أو بلاد تَزيدِ (5)

ولم تكن هذة النظرة الى النص وقفا على النقاد والشعراء العرب بل شاركهم فيها الغربيون أنفسهم .فكلمة TEXTE مستمدة من الأصل اللاتيني TEXTUS الذي يعني فيما يعنيه الاندماج والاحتباك والنسيج والتشابك والتلاحم ، وهي مشتقة من فعل TEXERE ومعناه نسج . فالنص هو ما « نسجه » الكاتب (6) .

وإذا ثبت لدينا أن النص نسيج معنوي يضارع النسيج الحسي فما هي الخيوط التي تكون سداه ولحمته ؟

مما لا ريب فيه أن النصوص الأدبية التراثية متعددة متنوعة غير متجانسة . منها ماهو قصيدة شعرية ، ومنها ما هو خطبة أو مقامة أو كلام مأثور أو أحكام نقدية ، ولكن هذا التعدد والتنوع ، لا ينفي الوحدة في إطارها النظري الشامل . هذه الوحدة التي تكشف عنها نظرية الأدب الأدب من جهة والمنظومة التراثية الفكرية والثقافية من جهة ثانية . فمما هو واضح أن مجالات التراث تتفاعل واتجاهاته تتكامل، ويأخذ بعضها عن بعض .

ومن هنا يمكن الحديث عن تداخل النصوص وتفاعلها داخل النص الواحد . هذا التفاعل الذي يتم عبر البنية الإحالية للنص . ذلك أن "الكتابة لا تحدث بشكل معزول أو فردي ولكنها نتاج لتفاعل ممتد لعدد

لا يحصى من النصوص المخزونة في باطن المبدع" . (7)

وبهذا يكتسي النص أهمية بالغة في الحياة العقلية للمجتمع فهو وعاء العلم ومناط الاحتجاج . إنه كيان لغوي يقوم من خلفه كيان ثقافي وحضاري .ومما يضاعف قيمته الخطية الايقونية التي تتيح له أن يخترق العصور ، ليصبح وثيقة تنصب على دراستها علوم متعددة كالفيلولوجيا وعلم الآثار . ناهيك بخصوصية الموقع الذي تحتله النصوص الشعرية العربية لارتباطها بالهوية الثقافية للعرب، وتراثهم اللغوي والديني والحضاري . وكل من تمرس بهذه النصوص يدرك قيمتها العلمية والجمالية في آن .

ولا بأس - قبل أن نتصدى لأبرز الصعوبات المنهجية التي يطرحها التعامل مع النص الأدبي القديم - من التذكير بأهم مواصفات النص الأدبي عموما مايتحكم في بنيته من عناصر . وأولى هذه المواصفات أن النص الأدبي لغة قائمة على الخرق والإنزياح ، تتحقق أدبيته بخروج عباراته عن المألوف وتجرده عن النفعية التي هي سمة الخطاب العادي . إنه كما يقول جان كوهن -« انزياح محدود ومقصود في الوقت نفسه ، يجعل من الأسلوب لغة ثانية في داخل اللغة العامة» (8)

وثانية هذه المواصفات أن النص نظام . ولعل من أبرز خصائص كل نص توفره على نسق وهذا النسق لا يتجلى في اللغة وعلوم الآلة فحسب ، بل يتجاوز ذلك ليتغلغل في سائر مكونات الخطاب

وملابساته . إنه مجموع العلاقات التي تربط بين أجزاء النص وتنسج خيوطه . ويفترض أن يكون إدراكها قاسما مشتركا بين المبدع والمتلقي كي تتحقق عملية التواصل بكيفية مضبوطة وقد تنبه حازم القرطاجني إلى أثر هذا النظام في خلق اللذة المنبعثة من النص ، فقال عن العرب :

> لو أجروا أواخر الكلم كيف اتفق لم يكن ذلك ملذوذا لأن ذلك أمر لا يرجع إلى نظام . ولجري الامور على نظام منضبط محكم موقع عجيب من النفس بحفظ المتكلم لنظام كلامه ... ولو كان الأمر في ذلك على غير نظام لما كان للنفوس في ذلك تعجيب، ولكانت الفصاحة مرقاة غير معجزة أحدا (9).

وثالثة هذه المواصفات أن النص خطاب منغلق، غير أن انغلاقه إنما يتحق على مستوى الصور الكتابية الايقونية أما من الناحية المعنوية فهو: توالدي ... وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة به (10) .

ويمكننا أن نعتبر النص وحدة لغوية ذات وظيفة تواصلية واضحة تحكمها جملة من المبادئ ، منها : << الانسجام >> Coherence و<<التماسك >> Cohesion و << الإخبارية >> (توفر مضمون مفيد في النص) Informativeness (11) .

هذه المواصفات والمبادئ ذات صلة حميمية بعملية تحليل النص . فتحليل النص - على حد تعبير الدكتور سامي سويدان - << هو بلوغ جوهره ، أو عناصره الاولى المكونة لجماليته ، إنه عملية فك لرموزه ومصطلحاته المتعددة للوصول إلى هذه الغاية الاولى >> (12)

وبما أن النص الأدبي - قديمه وحديثه - "التباس إبداعي" ، فإنه يتأبى عن الاستسلام للكشف ، ويعرض الدارس / الباحث للوقوع في مغالطات شتى . إنه ظاهرة إبداعية تخيلية ، يتحكم فيها الانفعال والحدس ، ويقودها الخلق والابتكار إلى خرق الاعراف عن المألوف . إنه كيان زاخر ، غني بالدلالات والايحاءات ، يقول ما لم يفكر فيه المبدع، ويجعل المتلقي يفكر فيما لم يقله أحد ، ومن هنا تتعدد تصورات المتلقين ، وتتنوع إدراكاتهم بتعدد طاقاتهم الخيالية ، وتنوع مشارب ثقافتهم واختلاف عصورهم . وبهذا يصبح النص - كما عبر عن ذلك المتنبي - شاردة ينام عنها مبدعها ملء جفونه ، (ويسهر الخلق جراها ويختصم) . ولكن هذه الخصومة لا يصح أن تكون عشوائية ، بل لا بد أن تخضع لضوابط منهجية تقننها .

ونظرا لطبيعةالنص الحربائية هذه فإن تحليله ارتياد لمجهول ، إنه "غزو وفتح" . وما الناقد - في نظر الغذامي - إلا "قارئ متطور غزا النص وفتحه ، ثم أخذ يروي أحداث هذه المغامرة " (13).

ولكن عملية الغزو هذه ، تستلزم عدة وعتادا ، وصبرا على التأمل، ومواظبة على التدبر ، وقدرة على الملاحقة .

وأول عدة يتسلح بها الناقد لاقتحام أسوار النص ، وإضاءة مدلهماته ، والكشف عن دهاليزه وما تخفيه من أسرار وكنوز ، هي عدة

المنهاجية .

وقبل أن نخوض في الحديث عن أبرز قضايا المنهج في تحليل النص الادبي القديم لا بأس أن نكشف عن طبيعته التي تحددها أهم خصائصه ومميزاته ، وعن علاقته بدارسه .

وأولى هذه الخصائص أنه وثيقة يشترك في التعامل معها المؤرخ وعالم الآثار والأديب كل من زاويته . ولكن طبيعة التعامل تختلف . فالباحث الأدبي يتناول من ناحية فنية صرف ، ويدرس النص في ذاته ولذاته ، باعتباره عملا فنيا له خصائصه النوعية ومواصفاته.

وثانيتها، اختلاف زمن إبداعه عن زمن قراءته وتفسيره وتأويله .فالمؤلف والناقد ينتميان إلى عصرين مختلفين وواقعين متميزين ويترتب عن هذا صعوبتان تعترضان سبيل الدارس للنص القديم :
* الأولى : غرابة اللغة الناتجة عن تطورها المستمر ونموها المطرد واتساع الهوة بينها وبين أصولها القيمة . مما يحوج الباحث إلى المعاجم اللغوية والشروح . ومعلوم أن المعاجم - كيفما كان نوعها - لا توضح المعاني النصية ، بل تقف عند مجرد دلالة الألفاظ . أما المعاني السياقية ، فتتولد عن نظام الألفاظ وتناسقها وتداخلها وتفاعلها ، ولا يكشف عنها إلا الفهم الثاقب المتمعن وكثرة التمرس بالنصوص القديمة.
* أما الصعوبة الثانية فناتجة عن بعد العهد بملابسات الوقائع الأدبية وأجوائها وظروفها مما يفسح المجال واسعا - في كثرة من الأحيان - لإسقاط معطيات الحاضر على الماضي .

وثالثة هذه الخصائص أن النصوص السابقة لعصر التدوين يختلف فيها زمن الابداع عن زمن الكتابة اللذين لم يصبح التطابق بينهما أكيدا إلا منذ بداية فترة التدوين أما قبل ذلك ، فكانت الرواية الشفوية تقوم مقام الكتابة في نقل التراث وتداوله . ومعلوم أن الرواية الشفوية مظنة للتحريف أو الزيادة أو النقص . وهذا واضح في كثير من النصوص القديمة التي وصلت إلينا عن طريق الرواية .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن بعض النصوص الأدبية القديمة تتشوه ملامحها بسبب رداءة النسخ والطبع ، وانعدام التحقيق أو ضعفه .

هذا عن طبيعة النص القديم . أما عن علاقته بمحلله ، فإنها تندرج في نطاق العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر . إن التسليم بإمكانية الدراسة الموضوعية المطلقة للنص التراثي أمر ينطوي على كثير من المغالطة ، لأن الدارس ينظر إلى الماضي من خلال واقعه الراهن ، ولا يستطيع أن يفهم نصا ما مستقلا عن همومه وانشغالاته الذاتية . إنه لا ينطلق من فراغ ، بل يعتمد على نسق ثقافي وفكري يحكم نظرته للأشياء ، وينطلق من طرح أسئلة صريحة أو ضمنية يطمح للإجابة عنها .

إن أية مقاربة للنص تخضع بوعي أو بدونه - لوضع الباحث تجاه موضوعه ، أو علاقة الذات بموضوعها . لكن المقاربة المنهجية هي أدنى المقاربات للموضوعية .

وإذا كانت أول معضلة تواجه الدارس المحلل هي البحث عن منهج ملائم ، فماذا يمكننا أن نقول عن المنهج ، عندما يتعلق الأمر بتحليل نص أدبي قديم ؟ هل نكتفي بالقول : إن طبيعة النص هي التي تحدد منهجه ؟ وإذا سلمنا جدلا بصحة هذه المقولة ، ألا يؤدي بنا ذلك إلى نوع من التسيب المنهجي الناتج عن تعدد المناهج بسبب تعدد أنماط النص القديم ؟ وبالمقابل هل يجوز الادعاء بأن هناك منهجا صالحا لأي نص قديم شعرا كان أم نثرا ؟ إبداعا كان أم نقدا ؟ نستطيع بدءا أن نميز بين نوعين مختلفين من النصوص الأدبية التراثية : نصوص بحثية (دراسية) ونصوص إبداعية (فنية) . يتميز الصنف الأول بكونه لغة دارسة أو واصفة (métalangage) كلغة الخطاب النقدي وما شاكله. وهو خطاب غير منفعل أما الصنف الثاني فتشكله لغة الشعر والخطابة وما شابههما من الفنون الإبداعية ، وهو خطاب منفعل ، وهذا يقتضي من الدارس مراعاة التمايز بين هذين النوعين مع احتمال حصول التداخل بينهما ، كما هو الشأن بالنسبة << لرسالة الغفران>> للمعري ، و<< التوابع والزوابع>> لابن شهيد << والمقامة النقدية >> ضمن << مقامات السرقسطي >> .

انطلاقا من هذه المعطيات الأولية ، يحق لنا أن نتساءل : ما نوع المنهاج الذي نستطيع التعامل به مع النصوص الأدبية القديمة بفعالية أكثر من غيره ؟

لا شك أن النص التراثي في شكله الأول الخام - قبل أن تمتد إليه

يد الدارس - يحتاج إلى المنهج الفيلولوجي الذي يتوسل به المحققون والمورخون في تناولهم للوثيقة المكتوبة بصفة عامة . وهو منهج يقوم على القراءة الدقيقة للألفاظ والعبارات ، ومحاولة فهمها في سياقها التايخي والحضاري لتأويلها تأويلا منضبطا . والحقيقة أنه لا غنى عن هذا المنهج للقيام بعمليات الوصف والتفسير والتأويل ، وهي عمليات لا تستقيم بدونه ، لأن الإستغناء عن أوليات القراءة يفضي إلى التأويل القائم على الجهل وعدم الادراك ، أو التخمين والظن ، وهو ما يرفضه البحث العلمي إلا أن هذاالمنهج - على دقته ورصانته - لا يعنى بالكشف عن جماليات الأسلوب ، وخصائصه الفنية .

ولقد مر على دراسة النصوص ردح طويل من الزمن كان تناولها فيه يكاد ينحصر في إعادة صياغتها بأسلوب آخر هو أسلوب الدارس، فإن تجاوز الدرس الاجترار والشرح السطحي ، فإلى التعليق الملطخ بأوحال الذاتية الانطباعية ، التي تحيل الدراسة الأدبية إلى ما يشبه العلاقة الشخصية التي تصدر على النص وصاحبه قيمة متطرفة كالصدق والكذب ، والجودة والرداءة ... فيصيرالذوق طاغيا ، يقبل أو يرفض ، يبارك أو يعلن ، دون تبرير أو تعليل .

ثم انبثق عن ازدهارالعلوم الإنسانية وتطورها في العصر الحديث مناهج في التحليل الأدبي تناولت النص من زوايا مختلفة، انطلاقا من اهتمامها، وحاولت تفسيره في ضوء معطياتها النظرية . منها ما جعل النص سبيلا إلى معرفة نزوات الكاتب ومكبوتاته وعقده كالتحليل النفسي للأدب ، ومنها ما اعتبره مرآة لحياة المبدع تعكس متعة أو معاناته في ظرف معين ، كما هو الشأن في التحليل الواقعي أو الإجتماعي ، ومنها ما ربطه بانتمائه الطبقي كالتحليل الايديولوجي وكلها مناهج تحيل النص إلى غير ذاته ، وتعنى بالمبدع أكثر مما تعنى بابداعه ، مما يؤدي إلى تهميش النص وجعله وثيقة تدل على صاحبها باعتبارها أثرا من آثاره .

وتأتي مدرسة (النقد الحديث) لتكون بمثابة ردة فعل عنيفة ضد المناهج المذكورة ، ولتعيد الاعتبار إلى النص وقيمته الفنية عازلة إياه عن مؤلفه وعصره . فهو (عمل مغلق) أو وحدة فنية مستقلة ، تنفرد بخصائصها الذاتية التي لايشاركها فيها أي عمل آخر ، ولو صدر عن نفس المؤلف . وهذه المدرسة تصر على أن تسمى الإبداع الأدبي (عملا) لا (نصا) تأكيدا لاستقلاليته ووحدته .

ولقد كان من أبرز إيجابيات هذه المدرسة تركيزها على الأثر الأدبي ذاته ، وتغلغلها في أعماقه للكشف عن بنيته الفنية . غير أنها بالمقابل ، وقعت في خطإ منهجي فاحش بإغفالها للسياق والشفرة ونظرية الاجناس الأدبية .

ولما كان السياق هو الطاقة المرجعية للنص ، ورصيده الحضاري ، ومادة تغذيته بوقود حياته وبقائه سواء كان لفظيا أو قابلا للشرح اللفظي (14) ، فإن جهله أو تجاهله يعزل النص عن مقامه وملابساته، ويعرض المحل في الوهم الناتج عن سوء الفهم .

إن إجادة تفسير قصيدة جاهلية أ إسلامية أو عباسية مشروطة بمعرفة سياق الشعر الجاهلي أو الإسلامي أو العباسي .

فلو أخذنا قول لبيد بن ربيعة :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وعزلناه عن سياقه ، لفهمنا المصانع على أنها المؤسسات الصناعية ، في حين أن هذه الكلمة كانت تعني عند الجاهلين القرى والحضر (15) وهنا يكمن خطر تناول النص على أنه (عمل مغلق).

أما الشفرة فهي الخصوصية الأسلوبية للنص ، أي اللغة الخاصة بالسياق أو الأسلوب الخاص الأدبي الذي ينتمي إليه النص (16) ومن ثم كان إهمالها يسيء هو الآخر لفهم النص .

إن نقطة ضعف المناهج الداخلية الألسنية كالأسلوبية والبنيوية وما يتفرغ عنهما من اتجاهات في التحليل الأدبي ، تكمن في عزلة النص عن مناخه الثقافي والحضاري والعام ، وبذلك تصبح هي الأخرى قاصرة عن الإحاطة بكل زواياه ، ودراسة كل مستوياته التكوينية .

وقد لجأ بعض الدارسين المتأثرين بجاكسون وليفي شتراوس إلى القيام برصد إحصائي شامل لكل تراكيب النص اللغوية وأبنيته النحوية البلاغية ، فأحالوا الدراسة الأدبية إلى مجرد بيانات إحصائية لما يتضمنه النص من ظراهر صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية ، اعتقادا منهم بأن ذلك قمين بأن يكشف أسرار الابداع الفني من خلال الوصف الأسلوبي . فوقعوا في نوع من الميكانيكية العقيمة التي ليس وراءها كبير فائدة .

ومن هذا القبيل ما فعله توفيق بكار مع قصيدة لأبي نواس معروفة في الكتب الأدبية الحديثة بعنوان "المغتلسة (17) .

وإذا كان كل من هذه المناهج لا يلقي الضوء إلا على زاوية محددة ومحدودة من زوايا النص ، فما العمل ؟ كيف نستطيع أن نتخلص من الذاتية السائبة ونتحلى بحد أدنى من الموضوعية ؟ هل سنصل في يوم ما إلى بناء منهج ذي فعالية خارقة يكون مفتاحا عموميا لكل نص ؟

إن الناقد المحلل للنص الأدبي - قديمه وحديثه - كثيرا ما يقع في مأزق منهجي ، ويجد نفسه في وضع (متعدد الحرف) Bricoleur الذي تضطره وضعيته ومواقفه لاستعارة أدواته من أرباب حرف أخرى. والقيام بعملية "تلفيق" تخرجه من مأزقه ، ومع ذلك كثيرا ما يشعر بالاخفاق النسبي أو المطلق في أداء مهمته .إن تحقيق الأدب لعمليته، واستقلاله التام بمناهجه ، أمنية تراود كل من يقدس فن الكلام، ولكنها تظل مستعصية على التحقيق من جوانب عدة ترجع إلى طبيعة النص الأدبي نفسه بنسيجه المعقد ، وعدم تجانس أنماطه ، كما ترجع إلى علاقة الدارس بموضوعه ، وقابلية النص لقراءات متعددة تصطبغ بصبغة النهج المتبع ، وتحدد إحداها دون سواها ذاتية القارء واهتماماته .

وإجابة على التساؤل الذي طرحناه حول نوع المنهاج أو المناهج الأكثر فعالية مع النصوص القديمة يمكن القول : إن مناهج مقاربة النصوص في عصرنا الحاضر متعددة ، وتتفرع إلى مدارس واتجاهات مختلفة ، مما يربك الدارس أحيانا ويجعله مترددا بين هذا المنهج أو ذاك. والأنكى من هذا أن بعض الدارسين يتعصب لمنهج ما في حماس منقطع النظير . وتعدد المناهج لايعني حصول أي تنافر أو قطيعة بينهما ، بقدر ما يعني تميز بعضها عن بعض ، واختصاص كل منها بالاهتمام بوجه من أوجه الابداع المختلفة أو قدرته على الكشف عن مستوى معين من مستوياته التكوينية ، وتركيزه على زاوية من زواياه دون أخرى . ويمكن للمناهج الادبية أن تتضافر فيما بينها ويستعين الواحد منها بإنجازات الآخر . والمتمرس بالنصوص يدرك جليا أن بعضها يتجاوب مع منهج دون آخر ، أو يجند منهجا أكثر من سواه أو يستدعي أكثر من منهج . فضلا عن أن المنهج الواحد - مهما قويت فعاليته - يظل قاصرا عن الهيمنة على سائر جوانب النص واوجهه المختلفة .

ومن هنا يمكن القول بأن كل المناهج صالحة لمعالجة النص الأدبي القديم. ذلك لأن المناهج - كيفما كان نوعها - ليست سوي أدوات اَجرائية تتحدد فعاليتها ، وبالتالي نجاحها أو فشلها ، بحسب طبيعة النص الأدبي من جهة ، وبمستوى المهارة في تطبيقها من جهة ثانية، وبإمكانياتهافي سبر أغوار العمل الادبي والتغلغل في أعماقه من جهة ثالثة .

غير أن الاحتياط العلمي يقتضي منا أن نراعي خصوصيات النص القديم ، وأن نتقيد بجملة من الضوابط أثناء القراءة والوصف والتفسير والتأويل والتعليل والاستنتاج ، وأن نتسلح بوعي منهجي حتى لانسقط في مهاوى العشوائية وسوء الفهم والتأويل غير المنضبط المفضي إلى نتائج خاطئة .

الهوامش :

* العصب : ضرب من برود اليمن ؛ سمي عصبا لأن غزله يعصب ، أي يدرج ثم يصبغ ، ثم يحاك ، وليس من برود الرقم ...

1) البيان والتبيين للجاحظ 1 / 222

2) الحيوان للجاحظ 3 / 131 - 132 .

3) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ، ص : 11 - يفوف : يزين . يسديه : يمد ما بين خيوطه . ينيره : يقيده .

4) ديوان أبي تمام 1 / 258 .

5) نفسه 1 / 398 . - شقيقة البرد ما يشق ويفصل من الثياب ، والبرد :
الثوب ، والمنمنم : المنقوش ، وأرض مهرة في جنوبي جزيرة العرب يصنع بها العصب ، وبنو تزيد من قضاعة ، وإليهم تنسب البرود التزيدية .

6) - Dictionnaire étymologique marabout Jean Mathien Rosay P. 501

7) الخطيئة والتكفير للدكتور عبد الله محمد الغذامي ، ص : 13.

8) Structure du langage poétique . J- Cohen . P. 19

9) مناهج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ، ص : 124 .

10) تحليل الخطاب الشعري (استراجية التناص) . د. محمد مفتاح ، ص : 120 .

11) نسيج النص . الأزهر الزناد ، ص : 15 .

12) في النص الشعري العربي . مقارب أن منهجية . د. سامي سويدان ، ص : 16 .
13) الخطيئة والتكفير ، ص : 6 .
14) انظر : الخطيئة والتكفير ، ص : 7 ، 8 .
15) أساس البلاغة / صنع .
16) انظر : الخطيئة والتكفير ، ص : 7 ، 9 .
17) انظر تحليله لهذه القصيدة في مجلة << الحياة الثقافية >> (التونسية) ع. 18 ، س . 6 نوفمبر - ديسمبر 1981 . ص : 18 - 26 تحت عنوان : جدلية الانكشاف والاحتجاب .

المصادر والمراجع المعتمدة

أساس البلاغة للزمحشري .
البيان والتبيين للجاحظ .
تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) للدكتور محمد مفتاح .
الحيوان للجاحظ .
الخطيئة والتكفير للدكتور عبد الله محمد الغدامي .
ديوان أبي تمام .
عيار الشعر لابن طباطبا العلوي .
في النص الشعري العربي مقاربات منهجية . للدكتور سامي سويدان .
مجلة الحياة الثقافية التونسية .
منهاج البلغاء لحازم القرطاجني ،
نسيج النص . الأزهر الزياد .
Dictionnaaire étymlogimue marabout
Jean Mathieur- Rosay
Structur du langage poétique. Jean Cohen .

الجانب الأدبي
في أبحاث الراحل عبد الله گنون

محمد گنون الحسني
كلية الآداب - سايس/ فاس

ا - الإنتاجات الأدبية وأوليات البحث الأدبي بالمغرب .

إن الحديث في المغرب عن دراسات وأبحاث أدبية تستند إلى تصور منسجم أو حتى على إنتاج متكامل الإبداع في مرحلة ما قبل الثلاثينات تكتنفه عقبات وصعوبات كثيرة .

صعوبة الوصول إلى أصحاب هذا الإبداع أو تلك الدراسات التي ظلت موزعة بين مصادر عدة طوى أغلبها النسيان وبقي رهين محبسه في الجرائد والمجلات بإمضاءات مستعارة .

صعوبة الوصول إلى هذا الإنتاج نفسه أو تلك الأبحاث ذاتها التي بقيت مطوية بين كنانيش أصحابها مغيبة في مسودات مبدعيها لم يطلع عليها حتى أقرب المقربين فما بالك أحرى أن تجد طريقا إلى النشر والطباعة .

وأخيرا صعوبة الحديث عن أبحاث ودراسات أدبية واضحة المعالم تستند إلى تصور منسجم وبناء متكامل الإبداع لأن أغلب ما نصادفه في هذه المرحلة لا يعدو تقريضات وتحليات واشارات وآراء بسيطة لا تستند إلى منهج أو نظرية محددة . فقد بقي المغرب خلال النصف

الثاني من القرن الماضي وأوائل هذا القرن يمثل الثقافة العربية القديمة بعيدا عن كل تيار فكري جديد في الوقت الذي شهد المشرق حركة علمية أدبية نشيطة قدح زندها محمد علي في مصر والبعثات العلمية الأجنبية التي أمت تلك البلاد وأسست فيها مدارس عصريةمن مختلف المستويات ، مما جعل الأعمال الأدبية في المغرب في هذه الفترة تبقى (مقتفية اثار القدماء في الرسالة والمقامة والخطبة وفي موضوعات الشعر التقليدية وإن لم تغفل تسجيل الأحداث الكبرى في المغرب وخارج المغرب ، ويمكن إلحاقها عموما بفلول المدرسة الأندلسية بعباراتها الفقهية المبتذلة وأساليبها المتقلة بالمحسنات البديعية والمقاصد البلاغية المسيطرة) .(1)

ذلك أن المغرب كان في عزلة تامة في تلك الفترة عن الشرق والغرب ، أما الشرق فمعلوم أن تبعية للدولة العثمانية جعلت منه وحدة اقليمية تتلاقى فيها الحوادث وتتداخل الثقافات وتتأثر المذاهب والآراء بعضها ببعض ، وقد ظل المغرب خارجا بعيدا عن هذه الوحدة له كيانه الخاص ودولته المستقلة التي يحجبها حجاب كثيف عما يجري في الشرق ، وزاد هذا الحجاب كثافة بعد سقوط الجزائر في قبضة الإستعمار سنة 1830 ثم تونس 1881 إذ أضحى المغرب في غيبة تامة عما يجري من تطورات في الشرق برغم ما يربطه به من روابط متينة. أما الغرب فإن سياسة الاستعمارية جعلت المغاربة يأخذون الحذر منه ويبتعدون عن طريق اللقاء معه ما أمكن .

وليس معنى هذه العزلة أن المغرب لم يعرف أي نأمة دالة على البلاد تلتمس طريقها للنهوض ، وأن نخبة من الشباب المتحمس تستعد لانبعاث وتيقظ فكري ، فعلى الرغم من قلة إنتاج تلك الفترة وتشبع الإبداع (بروح القديم فهو لا يخلو من سمات التطلع إلى المستقبل الأفضل ، ولا أدل على ذلك من كتابات الفقيه كنون والطبيب العلمي والمؤرخ الناصري وغيرهم من الطامحين والمجددين الذين كانوا يشكلون طلائح الفجر الزاحف) (2) أو أولائك الذين نادوا بالنهوض ودعوا للإتحاد من أجل الإقلاع كالشاعر محمد غريط (3) الذي يقول بعد سقوط مدينة تلمسان في يد القوات الفرنسية :

مالي أرى جفن أهل المغرب وسنانا من بعد ما أخذ الرومي تلمسانا
كأنهم ما دروا ما ذا يريد بهم عدو دينهم لا نال إمكانا
ولا على فعلهم في دفتر وقفوا بأهل أندلس يابيس ماكانا

والشاعر محمد السليماني (4) الذي يصيح بأعلى صوته :

حماة الدين هبوا من سبات فمركزنا يؤول إلى الخراب
تركنا الدين خلفا لا نبالي ولم نترك لنا غير انتساب
يقول الشامتون هم اضاعوا كتابهم وياحسن الكتاب

وغيرهم من الشعراء المثقفين المتطلعين إلى النهضة الشاملة والمتسلحين بعقيدة الإيمان الراسخة والمتنورين بآداب ومحاسن الشريعة الإسلامية والمستأنسين بالعلوم الجديدة المدركة من مطالعة الجرائد والمجلات رالكتب العصرية .

وبحلول العقدالثالث من هذا القرن عرف المغرب أحداثا هامة كانت لها انعكاساتها في مجالات الثقافة والفكر ابتداء بالحرب الريفية الشهيرة ومرورا بحركة ماء العينين في الجنوب وحركة موحا وحمو في الأطلس المتوسط وانتهاء بصدور الظهير البربري وتكوين كتلة العمل الوطني مما أعطى للنهضة الحديثة (نفسا جديدا وساعد على توضيح الرؤيا وأكد ارتباط الأدب بالسياسة والسياسة بالأدب حتى اعتمد الوطنيون مجالات الأدب لبث أفكارهم رتقريبها من الناس واستفاد الأدب من هذا الإهتمام المتزايد فتحققت به تطورات هامة، وتوافرت ، فيه العناصر الأولية للأدب الحي وصار يشق طريقه للإلتحاق بقافلة البعث الأدبي في المشرق) (5) أما الأبحاث والدراسات التي تؤرخ للأدب أو تترصده لتبرز خصائصه ومقوماته ، أو تتعقب بالتعليق والحكم على أهميته فقد كانت نادرة ضئيلة لازالت تلتمس الطريق متعثرة متأرجحة تخطو في استحياء من غير منهج يرعاها ولا ثقافة أدبية متينة تشد خطاها ولاتجربة سابقة تنير سناها إذ لا تصادفنا في البدايات إلا شذرات يمكن أن نشم منها رائحة التقييم أو التقدير أوالنظر إلى الإنتاج الأدبي بنظرة خاصة أو الحديث عن مبدع بطريقة عابرة ، وإذا تتبعنا هذه الآراء وتلك الأوليات التي اهتمت بالأدب وتحدثت عن أهله وجدناها تنحصر في :

1 - آراء في الشعر والشعراء نستشفها من بعض التحليات والتقريظات أو نستقيه من تراجم بعض الأعلام أو نقرأها على صفحات السعادة التي أضحت منبرا لأهل العلم والأدب ، وهي آراء انطباعية أو أحكام شخصية تتسم بالعمومية والابتعاد عن التحليل والتعليل كقول محمد غريط في كتابه (فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان)

وهو يتحدث عن الشاعر عبد الله گسوس "شاعر رقيق النسج والطبع وله نظم تعشق دره العذارى ونثر يذر العقول حيارى إلا أنه ربما مال في بعضه إلى التقعر وسلك به مسلك التوعر فتكاد تستوحشه الأفهام وتحتاج فيه إلى الوحي والإلهام) " (6) وكقول محمد بن العباس القباج في محاضرة له ألقاها سنة 1923 وهو يتحدث عن الشعر والشعراء ، ("لازال - الشعر - وصلة بين الأدباء وديوانا يمتدح به الأمراء والكبراء يستعطف برقائقه ويستمنح بمقاطيع دقائقه فلا تعدم ولن تعدم الديار على الدوام أماجد عظماء ولا أغرار من الرجال كرماء ") (7) ثم يمضي في الحديث عن الشعر وأركانه معتمدا آراء القدماء مستعملا الأسلوب المنمق المختار المبتعد في أغلبه عن التدقيق والتحديد مما جعل آراءه تسير في نفس الخط الذي سار فيه معاصروه كمحمد بوجندار ومحمد غريط وأحمد البلغيتي وغيرهم .

2 - آراء في المسرح والتمثيل : لقد كان المسرح في المغرب إلى حدود العقد الثالث من هذا القرن مقتصرا على مساهمة البعثات الثقافية الفرنسية في الجنوب والإسبانية في الشمال إذ شهدت طنجة مثلا (تظاهرات في العروض الفنية والمسرحية بصفة خاصة ابتداء من سنة 1897 فقد شيد الاسبان أول مسرح بهذه المدينة كان يدعي معهد رفاييل كالفو ثم أطلق عليه فيما بعد اسم مسرح السارسويلا، ومنذ تشييده وهو يشهد عروضا مختلفة من جانب الفرق الإقليمية والزائرة إلى أن تم تشييد ثلاثة مسارح سنة 1913 الأمر الذي ساعد على خلق نشاط مسرحي عربي فيما بعد) (8) . وقد كان أول لقاء للمغاربة مع المسرح العربي سنة 1921 حين قامت فرقة جورج أبيض بجولة في شمال إفريقيا شملت المغرب عام 1921 ثم اعقبتها زيارة فرقة مسرحية تونسية برئاسة الفنان المصري محمد عزالدين سنة 1923 التي اكتست أهمية كبرى بالنسبة للحركة المسرحية في المغرب وفتحت المجال أمام الشباب والمهتمين للعمل على تنشيط هذا الفن بالمغرب ، وهكذا تشكلت أول مسرحية (في فاس على يد جماعة من طلبة المدارس الثانوية وذلك عام 1924) (9) ثم اعقبتها فرقة الهلال بطنجة سنة 1925 وتوالى تأسيس الفرق المسرحية التي لعبت أعمالها دورا اجتماعيا وسياسيا وثقافيا في تلك الفترة (10)

وببزوغ الحركة المسرحية في المغرب التي كانت تلتمس طريقها إذ ذاك ظهرت بعض الكتابات التي اهتمت بهذا الباب نذكر منها على سبيل المثال ما نشرته جريدة السعادة تحت عنوان " روايات التمثيل

عند العرب " (11) حيث تعرض كاتب المقال للتعريف بهذا الفن وتحديد أهدافه وآثاره . وما كتبه الأوراوي (12) وبناصر الرغاي (13) عن فواءد هذا الفن وآثاره على إنهاض الهمم وترقية النفوس ومساهمته في التعليم والتهذيب والملاحظ على هذه الكتابات أنها في مجملها دعوة إلى الإهتمام بهذا الفن وتوجيه الأنظار إليه إذ به " تتجسم الفضيلة والرذيلة وتتناظران ويشخص الوفاء والإخلاص والعفاف وكل سجايا الإنسان" (14) .

3 - آراء في النقد الأدبي : لقد سبقت الإشارة إلى أن الدراسات الأدبية في مطلع هذا القرن كانت ضئيلة لازالت تلتمس طريقها نحو النمو والإكتمال لاتستند إلى نظرية محددة أو منهج معين . فنحن إذن لانطمع في إنتاج نقدي متكامل ولا آراء ذات سند منهجي . بل كل ما نبحث عنه هو إرهاصات أولية وشذرات أدبية ستتبلور مع بداية العقد الرابع في هذا القرن ، وسنكتفي بالإشارة إلى محاضرة بناصر الرباطي رئيس جمعية قدماء تلاميد مولاي الحسن والتي نشرتها جريدة السعادة في بداية التلاثينات (15) على أننا سنعرض لبعض هذه الآراء أثناء حديثنا عن المسامرات الأدبية . إن محاضرة بناصر الرباطي في مجملها تعريف بالنقد وقواعده وكأن المحاضر يعلم هذا الفن لمعاصريه أو يشرح لهم أبوابه وفصوله ، فلقد عمد في بداية عرضه إلى حصر قواعد هذا الفن في معرفة الكاتب ومصنفاته فلابد لكل ناقد هم بتحليل ونقد أي إنتاج أدبي أن يتعرف على صاحبه وأن يطلع على مصنفاته في هذا الباب ليقف على تطور فكره وإبداعه والمؤثرات البيئية والمحيطية التي لها تأثير على عمله ، تم ينتقل المحاضر إلى الحديث عن مجالات التعامل مع النص ويحصرها في الإنشاء والموضوع والتاريخ إذ يجب على الناقد أن يعرض أولا أفكار المبدع تم يتحدث عن أسلوبه وطريقة كتابته ليخلص أخيرا إلى ربط هذا العمل بمحيطه التاريخي ، وفي الأخير يتحدث بناصر الرباطي عن ثقافة الناقد التي يجب أن تتسم بالموسوعية والتضلع في سائر العلوم .

4 - المسامرات الأدبية : رغبة في ملئ الفراغ الثقافي وخلق نوع من التواصل بين رجال العلم والأدب أقام ثلة من المثقفين تظاهرات ثقافية في منازل بعض الخواص تلقى فيها الخطب وتتبادل الآراء حول الأدب والتاريخ كما أسست أندية أدبية كنادي الجندري نسبة إلى محمد بوجندار (16) ونادي المسامرات الذي كان ملتقى لرجال الفكر والعلم يتبادلون فيه الرأي بمناظراتهم ومساجلاتهم وخطبهم (التي يحوم

فيها قائلوها حول مواضيع تكون لها علاقة بالمغرب وأهله ، ولذلك فإنه لايمر أسبوع إلا ويتصدى على منصة الخطابة فيه واحد أو أكثر من كبار العلماء وفطاحلة الكتاب والأدباء من الفرنسيين والوطنيين لالقاء ما يعن لهم من المسامرات أو شرح ما يعرض لهم من المسائل التي يعتقدون أن إلقاءها وشرحها يعود بفائدة ما) (17) .

ومن أشهر المسامرات الأدبية التي تمخضت عن هذه التقاليد الثقافية :

أ - مسامرة الشعر والشعراء لعبد الله القباج (18) التي نشرت بجريدة السعادة (19) ثم جمعت بعد ذلك في كتيب تحت عنوان (مسامرات أدبية) وقد تناول القباج في هذه المسامرة جانبين : بسط الحديث في الاول منه عن الشعر ومزاياه ، فبواعثه وحوافزه، فأسسه وشروط صناعته ليخلص في الأخير إلى قضية الموازنة بين الشعراء . أما الجانب الثاني فقد عرض فيه منتخبات لشعراء من المغرب والمشرق مذيلا ذلك بتعليقات قصيرة أقرب إلى التقريظ والتحلية منها إلى النقد والتحيل .

ب - مسامرة أحمد النميشي (20) التي طبعت بفاس بمطبعة أندري تحت عنوان " تاريخ الشعر والشعراء بفاس " وقد عمد في جزء من هذه المسامرة إلى الحديث عن اللغة العربية وتاريخها ثم انتقل إلى الإبداع ورجاله موردا نماذج من عهد كل دولة ومكتفيا في ذلك بذكر اسم الشاعر وشيء من أخباره فمختارات من أشعاره ، كما يوضح ذلك بنفسه في قوله : (وقد آن لي بعد هذا أن أرجع القهقرى وأشرع في تراجم الشعراء الذين نبغوا بهذه العاصمة الفاسية منذ تأسيسها إلى الآن . ولكن مع الإقتصار في هذه العجالة على اسم الشاعر وتاريخ وفاته ونتفة يسيرة من شعره لأن الوقت لا يتسع لبسط تراجمهم) (21).

ج - مسامرة " الكتابة والكتاب " لعبد الحميد الرندي التي طبعت بفاس عام 1924 وهي في مجملها حديث عن النثر العربي وتاريخه .

د - مسامرة "تطور أسلوب الإنشاء في المغرب الأقصى" لمحمد الحجوي(22) وقد بسط الحديث في جزء منها عن تطور الإنشاء العربي في المشرق ، وفي الجزء الثاني تناول تاريخ النثر العربي بالمغرب منذ الفتح الإسلامي إلى عصره .

5 - المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية لمحمد السايح : وهو كتاب ألف لغاية تربوية تعليمية ، جمع فيه صاحبه منتخبات

نثرية وشعرية لمبدعين مغاربة وأندلسيين مع إلمام بسيط بحياتهم وإنتاجاتهم ، فهو بذلك يميل إلى البساطة وعرض الأخبار والآثار مبتعدا في أغلبه عن كل تحليل أو نقد أو تقويم .

6 - الأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن العباس القباج وفيه يتحدث عن الأدب العربي من خلال آثار نخبة من الشعراء المعاصرين له الذين عرف بهم أولا ثم أعطى نماذج من إنتاجهم ليجعل القارئ أمام صورة واضحة للوسط الأدبي في المغرب على عهده . وقد قسم أدباء هذا العصر إلى طبقات ثلاث :

أ - طبقة الأدباء الكبار وهم من جاروا القدماء في مواضيعهم وأساليبهم وساروا على نهجهم .

ب - طبقة المخضرمين وهم من أخذوا من أدب الماضي طلاوته ومتانته ومن الحديث معانيه ومقاصده .

ج - طبقة ثالثة : وهم شعراء تأثروا بمحيطهم وتثقفوا بثقافة عصرهم فعبروا عن أفكار جيلهم وتطلعات أمتهم . هكذا يبدو بعد هذا العرض التمهيدي أن الدراسة الأدبية في المغرب على هذه الفترة اتسمت بالكثير من التعثر وافتقرت إلى منهج يوحدها وثقافة أدبية متينة تنظمها ، وارتبطت بنظم تسيرها وتبعثها فإذا كانت الكتابات والآراء المختلفة ارتبطت بالنظام التعليمي فإن المسامرات قد ارتبطت بنظام الحماية . إلا أن الهدف الذي جمع هؤلاء الرواد وعمل من أجله الأدباء والباحثون هو "السعي إلى تأصيل قاعدة لانطلاق الأمة المغربية ثقافيا وأدبيا وذلك بنقد القوالب الجامدة وامداد الثقافة بحركية جديدة في كل المجالات ، وإعادة دماء التواصل بين المثقف والحياة ، بين المغربي وماضيه الخاص ثم ماضيه العام ، ومهما تنوعت الأفكار وتضاربت فإنها تصب في مجرى واحد وهو البحث عن أول الطريق " (23) .

II - الأبحاث والدراسات الأدبية التي خاض فيها الأستاذ كنون .

إن الحديث عن التوجهات الأدبية التي خاض فيها المرحوم عبد الله كنون يبدو أمرا عسيرا لما امتاز به رحمه الله من غزارة في الإنتاج وتنوع في المجالات التي كتب فيها والمناحي التي اهتم بها فمن دراساته

الأدبية إلى مقالاته اللغوية والنقدية والسجالية ، إلى محاولاته القصصية التي خلف منها بعض القصص التاريخية مثل حارس الكنيسة (24) والسلم المحروس والديك الأحمر (25) .

هذا بالإضافة إلى سيرته الذاتية التي سماها "مذكرات غير شخصية" لم يسعفه القدر على إتمامها فغاب عنا وترك أو راقا منها مع ما خلف مخطوطا لم ير النور بعد ، يقول رحمه الله عن هذه المذكرات :

وهذه مذكرات لاتزال تحت القلم عنوانها "مذكرات غير شخصية" أسجل فيها بعض الأشياء التي يغفلها الناس أو ربما يحرفونها ، وفيها ما يتعلق بالطفولة ولا أذكر أنها تتعلق بي ، بل أذكرها لأنها تصور كيف كان المجتمع المغربي . وفيما يتعلق بالدراسة والمقصود هوكيف كانت الدراسة . أتحدث فيها أيضا عن الحياة والمسؤولية والعمل والعقبات التي يلاقيها الإنسان وصدامه مع محيطه . هناك النشاط الثقافي والسياسي والإجتماعي ، وعمل بعض الأفراد والإتصالات التي كانت لي بهم . هي مذكرات قريبة جدا مني ، ولكنها أيضا مرتبطة بما عاشه المغرب الحديث من خلال عاداته وطموحاته وصراعاته ولذلك فهي غير شخصية إنها تذكر لزمن وأهله(26) .

وأخيرا إبداعاته الشعرية التي خلف منها دواوين ثلاث طبع منها : **لوحات شعرية** و **إيقاعات الهموم** ، وبقي مخطوطا ديوانه الثالث **صنوان وغير صنوان** بالإضافة إلى ديوان رابع كان لايزال يجمع شتاته حين وافته المنية وهو عبارة عن قصائد ومقطعات تتناول واقع العالم العربي والإسلامي وتفصح عن مواقف الرجل ومبادئه . (27) أمام هذا التنوع في الإنتاج وكثرة الإهتمامات وغزارة العطاء سأكتفي بالإشارة إلى كتاباته التي اهتمت بالأدب المغربي تعريفا وتحقيقا للوقوف على مفهومه للأدب وعلى منهجه في الدراسة والتاريخ والتحقيق لأعرج بعد ذلك على أبحاثه اللغوية ومقالاته النقدية لنستخلص منها أهداف البحث اللغوي عنده والظواهر والقضايا الأدبية في مقالاته .

وبرجوعنا إلى كتابات المرحوم سيدي عبد الله گنون عن الأدب المغربي من أجل رصد منهجه فيها ومفهومه للأدب من خلالها يجدر بنا تقديم هذه الكتابات التي يكمل بعضها البعض الآخر والتي تمثل بالنسبة لنا منطلقا لاستنكاه مفهوم المؤلف للأدب ومنهجه في التاريخ

له وهي :

1 - في مجال التأريخ للأدب المغربي :

أ - النبوغ المغربي في الأدب العربي : وقد صدر في ثلاث طبعات الأولى سنة 1938 والثانية سنة 1961 والثالثة سنة 1975 وفيه تفتقت عبقرية الأستاذ كنون فجاء ، نتيجة تحصيل واسع وبحث عميق، وحافز وطني وقومي دفعه إلى التعريف بأدب وطنه ونبوغ أبناء أمته في الإبداع العربي ، فهذا المؤلف كما يقول عنه صاحبه (هذا الكتاب جمعنا فيه بين العلم والأدب والسياسة ورمينا بذلك إلى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب ، وتطورها في العصور المختلفة من لدن الفاتح الأول إلى قريب من وقتنا هذا) (28)

ب - سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب : وهي سلسلة تكميلية لتاريخ الأدب الذي بدأه الأستاذ كنون في كتاب النبوغ صدرت في خمسين جزءا على شكل حلقات تهتم كل حلقة بشخصية علمية أو أدبية أو سياسية وتحيط بجوانب من شخصيتها مع إثبات نماذج من إبداعها التي توحي بنبوغها وتقوم شاهدة على ما ذكره في التعريف بها .

ج - شخصيات مغربية : وهي تراجم لبعض رجال العلم والأدب تقع دون ذكريات رجال المغرب نقف عليها في بعض المجلات الوطنية كمجلة السلام (29) ومجلة دعوة الحق بالإضافة إلى جريدة الميثاق لسان رابطة علماء المغرب التي أسسها وأدارها الأستاذ كنون والتي نشر فيها تراجم كثيرة لعلماء وأدباء وشخصيات مغربية معروفة، يقول رحمه الله موضحا الفرق بين هذه التراجم وسلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب (أما باقي الأشخاص المهمين فقد خصصنا لهم كتاب الشخصيات الذي نشترط فيه ما اشترطنا في هذا من التوسع في الترجمة واستيفاء المعلومات التي عندنا عن الشخص وجمع الآثار كلها ، إلا ما كان معروفا جدا فإنا نترك منه . وأقصر ترجمة فيه لا تقل عن بضع صفحات ، بينما الشخصيات لا نأخذ أنفسنا بشيء من ذلك) (30) وقد قضى الرجل نحبه وترك هذا الكتاب مخطوطا وهو يحتوي على أكثر من مائة شخصية في ميدان الأدب والتاريخ والفقه وسائر العلوم وجلهم من معاصريه .

د - أحاديث عن الأدب المغربي الحديث : وهي في الأصل محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية بسط فيها الحديث عن المناحي الإبداعية والشخصيات الأدبية التي حفل بها المغرب في مطلع هذا القرن .

هـ - أدب الفقهاء : وهو بحث طريف في مجال أدبي شائق هو إبداع الفقهاء الذي يتهم ببعده عن الأدب وروحه حتى تصدى له الأستاذ گنون فأبان عن جماليته وذخائره وقسمه يقول المؤلف (... قسمين قسما تناولت فيه مادته وعناصره الأولى بحسب الزمن والأشخاص وقسما تعرضت فيه لموضوعاته وأغراضه على سبيل البسط والتعريف) (31) .

د - أمراؤنا الشعراء وهو كما يقول عنه مؤلفه (يجمع شعراء أمراء الدول المتعاقبة على المغرب كلها بدون تخصيص) (32) .

2 - في مجال التعريف بالتراث ونشره :

أ - تحقيق ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث صدر عن معهد مولاي الحسن بتطوان سنة 1958.

ب - شرح الشمقمقية : للشاعر المغربي المشهور ابن الونات طبعت عدة طبعات الأولى بمصر سنة 1356 والخامسة بدار الكتاب اللبناني سنة 1979.

ج - المنتخب من شعر بن زاكور : وهو مجموعة مختارة من قصائده نشرها لتكون شاهدة على نبوغ هذا الشاعر وليضيف إلى الأدب العربي الخالد صفحة مجيدة من أدب الغرب الإسلامي .

د - أنجم السياسة وقصائد أخرى صدر عن دار الثقافة بالبيضاء سنة 1989 ويضم نماذج من الشعر المغربي النادر موثقة ومحققة مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها ، ويعرض هذا الكتاب :

* قصيدة أنجم السياسة لأبي عبد الله المالقي ،
* قصيدة الواعظ الأندلسي موسى بن محمد بن عبد الله ،
* القصيدة الشقراطسية في مدح المصطفى لأبي محمد عبد الله بن يحيى ابن علي التوزري ،
* تائية أبي إسحاق الإلبيري ،
* نونية أبي الحسن المسفر .

هـ - أربع خزائن لأربع علماء من القرن الثالث عشر : وهو كتاب يقع في 105 صفحة وهو اهتمام من الرجل بالعمل البيبليوغرافي وشعوره بمكانته في البحث في تاريخ الأدب والإهتمام بدرسه .

و - المخطوطات العربية في تطوان وهو منشور لكتاب " خل وبقل" .

وبرجوعنا إلى هذه الأبحاث الأدبية وغيرها من الدراسات التي نشرت بمجلات أو ألقيت بمجامع عربية والتي آثرنا عدم إدماجها هنا

مراعاة للإختصار، نجد أن اهتمام الأستاذ گنون كان منصبا على أمرين إثنين :

أ - إثبات الهوية الوطنية للمغرب وتقديم الثقافة الوطنية والفكر المغربي وذلك بالوقوف في وجه الغزو الفكري الأجنبي والدفاع عن الإسلام واللغة وإبراز نبوغ المغاربة في الفكر والأدب لتأكيد ارتباطهم بالمشرق العربي وبالأمة العربية باعتبار هذه الأمة وحدة يجمعها الدين واللغة .

من أجل هذا شمر علامتنا المرحوم عن ساعد الجد وجند نفسه لاستخراج تراث المغاربة العلمي والأدبي وإظهاره للبرهنة على عروبة المغاربة وارتباطهم بالأمة العربية من ناحية الفكر واللغة والدين يقول :

كان المغرب في الوقت الذي صدر فيه كتاب "النبوغ" يعاني من تسلط سياسة الإستعمار ، وكان دور هذه السياسة أن تطمس جميع جهود التقدم والتفتح والتطور الأدبي خصوصا لما ترتبط هذه الجهود بخدمة اللغة العربية التي سعى الاستعمار ، إلى محاربتها فقد كان الإستعمار ينظر إلى المغرب على أنه بلاد بربرية من القمة إلى القدم ... وبالإضافة إلى الدفاع عن العربية ... هناك محاربة الفرنسية والفكر الالحادي أو العلمانية كما يسمونها (33) .

وهو إلى جانب هذا يواجه كثيرا من دارسي التاريخ العربي الذين كانوا يتجاهلون هذا القطر ويهمشون إنتاجه وإبداع ابنائه .

ب - إثبات موقفه السلفي ويتجلى ذلك في دفاعه عن اللغة العربية باعتبارها لغة الدين ولغة القرآن ، ودعوته إلى الأخوة في الدين ونبذ كل أسباب الفرقة والتجزئة . يقول رحمه الله :

... ففي الطبعة الأولى للنبوغ كنت أقاوم النزعة البربرية ، وفي الطبعة الثانية كنت أقاوم مسألة تجزئة المغرب فقد كانت قضية موريطانيا مطروحة ، وأنا كنت أحضر للفكرة بطريقة غير مباشرة، فأرخت لشعراء موريطانيا ، أنا لاأسميهم موريطانيين وإنما أسميهم شنقيطيين (34) .

فإيمانا بهذا وردا للاعتبار المجهود الضخم الذي قدمه المغاربة في مجال التأليف والإبداع قام علامتنا المرحوم بجمع تلك المادة وتحقيقها ونشرها من أجل التعريف بالفكر والإبداع المغربي وتطوراته في مختلف عصوره وذلك وفق منهج عربي أصيل ضارب في جدور الأصالة العربية ومتفتح في نفس الوقت على بعض المناهج الحديثة التي كانت خطوطها بدأت تلوح في أفق الدراسات

الأدبيـة آن ذاك .

وبتسليط الضوء على المباحث الرئيسية التي تقاسمت الدراسة الأدبية عند علامتنا المرحوم يمكننا أن نسجل الملاحظات الآتية :

أ - ركز في دراساته الأدبية على العناصر الثلاث : الزمن - البيئة - الجنس ، وتركيزه على العنصرين الأولين جعله يخصص جزءا كبيرا من كتبه للحديث عن التاريخ السياسي والتاريخ الثقافي إضافة التاريخ البيبليوغرافي ففي " النبوغ المغربي " يقسم تاريخ الأدب المغربي إلى :

- عصر الفتـــوح ،
- عصر الموحديـن ،
- عصر المرينيـين ،
- عصرالسعديـين ،
- عصر العلويـين .

وفي كل عصر يقف أولا على الأحداث السياسية التي أثرت في الإبداع تم ينتقل إلى الحديث عن الوسط الفكري ليخلص أخيرا إلى الإبداع ورجاله .

وفي "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث " مهد بفرش مركز لأهم الأحداث التي أثرت في النهضة الأدبية بالمغرب .

وفي "أمـرائنا الشـعـراء" وقف بالتـرتيب على أمـراء الدول: الإدريسة، الزناتية ، الموحدية ، المرينية ، السعدية ، العلوية .

وفي كتاب " أدب الفقهاء " يشير إلى أن هذا الأدب مقرون ميلاده بميلاد الإسلام وفي تحقيقاته يبسط دائما الحديث عن المحيط التاريخي والثقافي الذي صاحب ميلاد العمل الذي هو موضوع التحقيق أو الدراسة .

وفي حديثه عن الجانب التاريخي في مؤلفاته كان يركز على إعطاء صورة عن التاريخ السياسي للعصر المدروس ولأهم الأحداث التي عـرفـهـا ، والحكام الذين كـان لهم تأثيـر في صنع هذه الأحـداث بالإضافة إلى الحديث عن الحركة العلمية التي نشأت في خضم تلك الأحداث وترجمة لأبرز علماء كل حقبة مع جرد للكتب المؤلفة في كل عصر . ولم يركز على هذا الجانب في كتب تاريخ الأدب فحسب بل أفرد له كتابا خاصا سماه "أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر" إضافة إلى بعض المقالات مثل " المخطوطات العربية في تطوان " والإهتمام بالتاريخ البيبليوغرافي شيء مهم جدا لأننا

نعلم أن الدراسات الغربية الحديثة تتحدث في كثير من أبحاثها عن أهمية المصادر البيبلوغرافية التي تسهل طريق البحث بالنسبة للباحثين "وأعتقد أن الغرب لم ينتبه إلى أن العرب أسهموا بباع طويل في هذا الميدان ، فهناك كتب في البيبليوغرافية عديدة أشهرها كشاف اصطلاحات الفنون وغير ذلك كثير، لكن المهم، أن هذا التقليد الذي أتى به علامتنا هو أنه تقليد عربي أصيل وهو أنه ذيل فصوله بفذ لكة يتحدث فيها عن أشهر المؤلفات التي ظهرت في المغرب عبر العصور السابقة ، أيضا ما أسميه أنا بالتاريخ البيوغرافي إنه تقليد من التقاليد المعروفة في أدبنا العربي " (35) .

أما العنصر الثالث الذي ركز عليه المرحوم في دراسته للأدب فهو الجنس والمقصود بالجنس هنا الفن أي فنون القول بصفة عامة، لذا نجده يقسم الإبداع إلى شعر ونثر أولا تم يتحدث في قسم النثر من كتاب "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث" عن الخطب والقصص والمسرحيات كما يتحدث عن الشعر القصصي في باب الشعر فضلا عن أغراض الشعر وأبوابه الأخرى . وقد قسم النثر في كتاب النبوغ ورتبه على الشكل التالي :

- التحميد والصلاة ،
- الخطب ،
- المناظرات ،
- الرسائل .

أما النظم فقد قسمه علامتنا ورتبه حسب الأغراض التي اعتاد أصحاب الإختيارات الشعرية والحماسات ترتيب القصائد عليه وهو : الحماسة والفخر "وهذا تقليد عربي أصيل ، وهو يذكر بالحماسات القديمة التي عرفها تاريخ الأدب العربي كما يذكر بكتب المختارات في الآداب الغربية في الشعر وغيرها أو ما هو معروف في الأدب الإنجليزي بالكنز الذهبي ، الذي يجمع فيه خلاصة عيون القصائد الشعرية من مبدأ الشعر الإنجليزي إلى عصرنا هذا ، ثم الغزل والشوق والنسيب ، وهذه التراتبية أيضا أصيلة ، ثم الآداب والحكم والوصايا والملح والحكم والطرائف ثم الرثاء ثم الموشحات .

هذا يدل - بخصوص الموشحات - دلالة قاطعة على أن نظرة علامتنا المرحوم متفتحة ومتسعة الأفق يتسع صدرها لإدراج الموشحات " (36) .

ب - أنه نبه إلى شيء مهم تلح عليه المناهج المعاصرة وهو أن الحقيقة الأدبية لايمكن أن تنتزع إلا من النص ولا شيء ، غير النص ، لذا خصص جزءا كبيرا من أبحاثه لاستخراج نصوص إبداعية يثبتها بجانب ما يقوله عن نبوغ المغاربة . ويقول في هذا الباب " إنه لن يخدم الأدب المغربي إلا بوضع مجموعات منتخبة من آثار أعلامه بين أيدي الباحثين والشباب فيجد أولئك مادة كاملة تعينهم على مواصلة أبحاثهم ويجد هؤلاء وسيلة جديدة للمتاع والمباهات " (37) ويقول أيضا في حديث أجراه معه الأستاذ الشايب وأثبته في دراسته " من غايات الكتابة في تاريخ الأدب المغربي بيان نبوغ المغاربة وعلو كعبهم في الأدب عبر العصور المختلفة ، ولن تتحقق هذه الغاية دون أن تخضع نصوص الأدب لعملية الإختيار والإنتقاء " (38) .

ج - إنه اهتم بتراجم الأعلام وما تركوه من مصنفات وآثار تدل على نبوغهم ونباهتهم، وتعكس ذواتهم ، وهذا أيضا أمر الحت عليه المناهج المعاصرة يقول الدكتور سعيد علوش " كانت الصورة الأولى من التاريخ الأدبي في رأي " فان تيكم " هي الترجمة وإحصاء المؤلفات " (39) .

ومن خلال هذه الملاحظات الثلاث نستنتج :

أ - أن علامتنا المرحوم كان في منهجه الذي اعتمده في دراساته الأدبية مرتبطا بالمناهج العربية القديمة وذلك في ترتيب النصوص واختيار النمادج والترجمة للأعلام ووضع البيبليوغرافيات .

ب - أنه كان متفتحا في نفس الوقت على المناهج الغربية التي بدأت تلوح في الأفق آنذاك ويتجلى ذلك في اهتمامه بالبيئة والجنس وتركيزه على النصوص من أجل استنباط خصائص ومميزات كل جنس .

ج - أن مفهومه للأدب يتمثل في كونه أولا جهد لغوي وثانيا : مأثور الكلم الذي سما لفظا ومعنى عن الكلام العادي بمعنى أن الأدب لا تكتمل عناصره إلا بتوفر الجمالية التي تقوم أساسا على حسن السبك وبلاغة المعنى يقول علامتنا "يشمل إصطلاح الأدب كل معنى جميل في عبارة جميلة يؤثر في القارئ أو السامع ويهز مشاعره" (40) .

وهنا لا أتفق بتاتا مع الأستاذ الشايب الذي ذهب في

كتابه "الدراسات الأدبية في المغرب" إلى أن مفهوم الأدب عند المرحوم يشمل "كل أنماط الإبداع الثقافي من أدب وفقه وحديث وعلوم لغوية وعلوم كونية" (41) فالأستاذ گنون حين تحدث عن هذه الأنماط وأرخ لها كان يتحدث عن المحيط العام الذي ظهر فيه الأدب المغربي ، وعن الجو الثقافي والعلمي الذي ساد كل مرحلة من مراحل تاريخ الأدب المغربي بدليل أنه فصل في كتابه النبوغ بين الجانب العلمي والأدبي حين بدأ يذكر الحركة العلمية التي سادت كل عصر وترجمت لبعض أعلامها ليتحدث بعد ذلك عن الحياة الأدبية ، وكأنه يمهد لحديثه عن الأدب والأدباء بذكر الجو العلمي العام الذي ساد كل مرحلة ، ثم انه لم يتحدث عن العلوم الفقهية واللغوية والكونية حين أرخ للأدب المغربي الحديث في كتابه " أحاديث عن الأدب المغربي الحديث " لهذا فمن الخطإ اعتبار ما ذكره الأستاذ گنون من علوم اللغة والفقه والفلسفة والكلام داخل في مجال الأدب واعتبار مفهوم الأدب عنده يشمل كل هذه العلوم . لأنه كان يعرف بالجو الثقافي العام قبل أن يبسط الحديث عن الحياة الأدبية، يقول رحمه الله في مقدمة الطبعة الأولى للنبوغ : (هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة ورمينا بذلك إلى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من لدن قدوم الفاتح الأول إلى قريب من وقتنا هذا ... والأدب لانقول إلا أنه الروح المتغلغلة فيه والحلة التي يبدو فيها للناس بل نقول اننا ما تعرضنا لغيره من الأبحاث الأخرى إلا لنربط حلقات البحث الموصل لاكتناه حقيقة ماضينا الأدبي وتجليته على منصة العروس ليشاهده من كان يجادل فيه)

ولم يكن عمل الأستاذ عبد الله گنون ينحصر في مجال التأريخ والنشر والتحقيق بل امتد أيضا إلى حقلي اللغة و النقد : فبحكم عضوية الرجل في مجموعة من المجاميع اللغوية العربية (42) ، وبحكم ثقافته الأدبية الواسعة التي تسمح له بوصف الإبداع والحكم عليه ، أنتج رحمه الله كتبا ومقالات تحدث فيها عن مسائل لغوية أو نقد فيها إبداعات أدبية ، نذكر من هذه الكتب والمقالات :

أ - نظرة في منجد الآداب والعلوم : تعرض فيه إلى الجوانب التي أغفلها مؤلف المنجد اللغوي . وكذا إلى الأخطاء التي طالت التراجم والوفيات .
ب - شرح مقصورة المكودي : وهو شرح مدرسي الهدف منه تقريب النص إلى الأفهام .
ج - تحقيق الشيخ مبارة على لامية الجمل .

د - منظومة في الإختصاص بالإضافة إلى مقالات كثيرة نشرتها مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة أو جمعها رحمه الله في بعض كتبه سنقف عندها في الملحق الخاص بمقالاته . وسنتكفي الآن بإبداء بعض الملاحظات على أبحاثه اللغوية أولا ثم كتاباته النقدية .

1 - **الأبحاث اللغوية** : إن اهتمام الأستاذ عبد الله كنون بالجانب اللغوي في أبحاثه شيء طبيعي باعتبار أمور ثلاثة :

أ - ثقافته الموسوعية التي أخذت من اللغة القسط الوافر حتى تمكنت من دقائقها وأضحت قادرة لا على وصفها فحسب ، بل على تقويمها وتقديم جزلها ومستحسنها على غريبها ووحشيها

ب - انتماؤه إلى مجامع لغوية عربية غايتها إحياء اللغة العربية وتقويم ما اعوج منها واختيار الألفاظ المناسبة لكل مستحدث أو مستجد

ج - موقفه السلفي الذي يعني غيرته على لغة القرآن والتراث العربي الأصيل .

وتتفرع أبحاث الأستاذ كنون اللغوية إلى قضايا ثلاث منها ما يهم إنعاش اللغة وبعث المصطلحات والكلمات العربية الأصيلة أو تصحيح الأخطاء اللغوية الشائعة وقد كان استمامه بهذه القضية رد فعل ضد السياسة الإستعمارية التي هدفت أولا إلى طمس المعالم العربية للأمة العربية وتجريدها من هويتها العربية الإسلامية وثانيا إلى تعميق الهوة بين اللهجات الدارجة واللغة العربية الفصحى في سائر بلدان الوطن العربي ، ويؤكد هذا رحمه الله بقوله (إن الشعب المغربي جد متشبث بعروبته ويقدمها في الطلب على كل لغة أخرى يساعده على ذلك أساتذة المعاهد الدينية) (43)

أما القضية الثانية التي اهتم بها الأستاذ كنون في أبحاثه اللغوية فهي ذات ارتباط بالقضية السابقة وتتعلق بجانب الفصيح في عاميتنا ، أو بالبحث عن الجدور العربية للهجة العامية المغربية التي هي (من أقرب اللهجات إلى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من التراكيب الصحيحة والكلمات الفصيحة فهي لاتزال محتفظة بتصاريف الفعل على اختلافها ، ومراعية الفرق بين المذكر والمؤنث في غالب الإستعمالات ...) (44)

أما القضية الثالثة فهي المتعلقة بشرح مسائل لغوية وتوضيح مشاكل وأمورا قد تستعصي على الخاصة فضلا عن العامة وتدخل في

هذا الإطار جل أبحاثه التي ألقاها في المجامع العربية .

وإذا عدنا إلى الجانب النقدي في أبحاثه فإن هذا العنصر سيظل حاضرا أيضا تشهد به مقالاته النقدية التي ركز فيها على الجانب اللغوي للإبداع ، مستخرجا الألفاظ والتراكيب التي صح ورودها عن العرب ، والجمل والكلمات التي ابتعد عنها في التراث، أو التي استحدثت وكثر استعمالها ولم يؤثر ورودها عن القدماء، ولا وافق مبناها ما نص عليه العلماء . وإلى جانب اللغة نجد علامتنا المرحوم قد بنى نقده على عناصر أخرى أهمها .

أ - الجانب البلاغي الذي اكتفى فيه بالاشارة إلى حسن استعمال الصور والتراكيب البلاغية عند الشاعر ، وإبداء إعجابه بها على نحو ما نجده في حديثه عن أبيات الحافظ بن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني إذ يقول : "ولا يخفى ما في قولهما معا من جمال التورية وحسن التعريض مع أن غرض الشعر في الظاهر هو وصف المنارة ومدح بانيها" (45) .

وعلى العكس من هذا فقد عاب على بعضهم استعمالهم لبعض الأساليب البلاغية التي لاترقى إلى مستوى الجمال الأدبي .

ب - المقارنة أو المفاضلة بين الشعراء التي نلمسها في بعض كتبه أو نقف عليها في كثير من مقالاته (46) وهي تهدف في الغالب إلى بيان منزلة الشاعر ومكانته بين شعراء عصره أو التماس الأعذار له وتبرير صياغته الشعرية ، وقد أفرد صفحات في كثير من كتبه لهذا الغرض كما كتب أبحاثا نذكر منها أدبيات : محمد بودقة ورشيد موصبع (47) ، بين الرافعي والقشاستي (48) .

ج - آراء نقدية خاضعة للتأثر والذوق والانطباع الآني : فكثيرا ما يقف الأستاذ گنون عند بعض الأبيات الشعرية ويعلق عليها بطريقة القدماء ، "فما أحسن هذه الأبيات" ، و "وما ابدعه حين يقول" وقد " أجاد في قوله " : هي عبارات كثيرة الورود في كتابات عبد الله گنون نابعة من رأيه القائل : "الذوق معيار النقدات فصاحبه يعرف وجوه الحسن والقبح في الكلام ".(49)

وبما أن النقد في كتب تاريخ الأدب لا يتجلى إلا بطريقة ضمنية تفصح عن نفسها في الاختيارات والمنتخبات ، فإن كتابات المرحوم عبد الله گنون في مجال التأريخ للأدب المغربي تحتاج إلى دراسة خاصة للوقوف على الملامح النقدية عنده ، كما تحتاج أبحاثه ودراساته الأخرى إلى مجهود أكبر لتتبع ملامح الدراسة الأدبية عنده باعتباره من أبرز القمم الشامخة في دنيا الثقافة المغربية وباعتباره أيضا من أوائل الذين

وضعوا اللبنات الأولى للدراسات الأدبية العربية في المغرب .

الهوامش :

1) محمد خرماش : النقد الأدبي الحديث في المغرب 1900 - 1956 ص : 9 / دار إفريقيا والشرق 1988 .
2) السابق : ص 5 .
3) محمد غريط : ازداد بمدينة مكناس وأتم دراسته بجامعة القرويين نبغ في الشعر وترك منه ديوانا بالإضافة إلى رسائل أدبية متميزة توفي بفاس عام 1863 .
4) محمد السليماني : ازداد بمدينة فاس 1858 ودرس بجامعة القرويين اهتم بالتاريخ ونبغ في الشعر ، توفي سنة 1924 .
5) محمد خرماش : النقد الأدبي الحديث بالمغرب ص 47 .
6) محمد غريط : فواصل الجمان ص : 172 طبعة فاس 1925 .
7) جريدة السعادة : عدد 2473 بتاريخ 29 / 1 / 1923 .
8) عبد القادر السميحي : نشأة المسرح والرياضة في المغرب ص : 19 مكتبة المعارف 1986 .
9) حسن المنيعي : العلم الثقافي عدد 11 / 6 / 1977 ويذكر محمد أديب السلاوي أنه في سنة 1920 ألف المرحوم محمد بن زاكور فرقة مسرحية بمدينة طنجة وعرض بواسطتها مسرحية وحيدة هي (أهل الكهف) إلا أن المستعمر لم يطمئن لهذا الحدث واعتبره إيقاظا للهمم وحثا على الوعي ، فألقى القبض على مؤلف المسرحية وأمر بحل الفرقة › انظر العلم الثقافي 13 - 8 - 1983 وانظر بحثا للأستاذة الزهرة جبارة ‹ الحركة المسرحية في تطوان من البداية إلى الإمتداد › كلية الآداب فاس 1978 .
10) من رواد هذا الفن في هذه المرحلة نذكر : محمد القري، المهدي المنيعي، عبد الواحد الشاوي، محمد بن الشيخ ، محمد بوعياد ، أحمد الحريشي ، محمد الحداد وغيرهم .
11) عدد 2187 بتاريخ 28 أبريل 1921 .
12) السعادة عدد 3211 بتاريخ 24 - فبراير 1928 .
13) السعادة عدد 3211 بتاريخ 11 أبريل 1928 .
14) بناصر الرغاي عدد 3253 بتاريخ 14 يونيو 1928 .
15) عدد 3807 بتاريخ 17 مارس 1932 .

16) ازداد بمدينة الرباط سنة 1886 وبها تعلم تم اشتغل بالتدريس ، له ديوان شعر ، والإعتباط بتراجيم أعلام الرباط ، وشالة وآثارها ، ومقدمة في تاريخ رباط الفتح . توفي بالرباط عام 1926.

17) عبد الله القباج مسامرة الشعر والشعراء ص : 1 طبعة 1341 - 1928.

18) من مواليد مكة المكرمة أواسط السبعينات من القرن الماضي، عاد إلى المغرب ونزل بسلا ونبغ في الشعر توفي عام 1945.

19) عدد 2468 بتاريخ 22 فبراير 1923.

20) من مواليد فاس 1867ومن فقهاء القرويين وعلمائها ، ومن الشعراء المطبوعين وممن قضوا نحبهم سنة 1967.

21) أحمد النميشي : تاريخ الشعر والشعراء بفاس ص : 40 .

22) من مواليد فاس 1902 ومن الراحلين لطلب العلم بأروبا، ومن النابغين في مجالي النثر والشعر توفي سنة 1969 .

23) عبد الجليل ناظم : نقد الشعر في المغرب الحديث ص : 24 - 25 دار تبقال الطبعة الأولى 1992 .

24) مجلة المناهل : العدد العاشر السنة الرابعة 1977 / ص : 7

25) عبد الله كنون : أزهار برية ص : 52 - 106 طبعة تطوان 1976 .

26) مجلة الكرمل : العدد 11 لسنة 1984 ص : 151 .

27) لقد أثبت الباحث أحمد الشايب في كتابه " الدراسة الأدبية في المغرب الأستاذ عبد الله كنون نموذجا " لائحة مؤلفات المرحوم عبد الله كنون وأقحم كتاب " اشذاء وأنذاء ، ضمن الدواوين الشعرية مع العلم أن هذا الكتاب جمع فيه المرحوم مجموعة من مقالاته المختلفة المواضيع وقد جاء في مقدمته " وعلى هذا المنوال أصدرت مما تجمع لدي من الشعر ديوانين ... ومن النثر خمس مجموعات الأولى باسم التعاشيب والثانية باسم واحة الفكر والثالثة بعنوان خل وبقل والرابعة بعنوان العصف والريحان والخامسة بعلم أزهار برية وهذه السادسة التي أطلق عليها إسم أسذاء وأنداء > ص 9 وعليه فإن هذا الكتاب لاعلاقة له بالشعر ولا أدري ما مصدر هذا الخطأ الذي وقع فيه الأستاذ الشايب .

28) مقدمة النبوغ المغربي / 29 أعداد 1933 - 1934 .

30) ذكريات مشاهير رجال المغرب ، حلقة عبد العزيز الفشتالي ص : 6 - 7 .

31) أدب الفقهاء ص : 3 .

32) أمراؤنا الشعراء ص : 5 .

33) حديث أجراه معه الأستاذ أحمد الشايب بمنزله . انظر الدراسات الأدبية بالمغرب ص : 338 .
34) السابق ص : 539 .
35) منهجية الأستاذ عبد الله گنون في تأريخه للأدب المغربي عرض ألقاه الدكتور محمد السرغيني بمناسبة تكريم المرحوم بطنجة سنة 1986 أنظر نصه الكامل بكتاب : عبد الله گنون بين التكريم والتأبين المطابع المغربية طنجة 1991 ص : 49 .
36) السابق ص : 53 .
37) المنتخب من شعر بن زاكور ص : 5
38) الدراسات الأدبية بالمغرب ص : 342 .
39) إشكالية التيارات والتأثيرات في الوطن العربي ص : 58
40) الدراسات الأدبية بالمغرب ص : 341 .
41) السابق ص : 140 .
42) نذكر منها : مجمع اللغة العربية بمصر ، مجمع اللغة العربية بالأردن .
43) العامية المغربية : التعاشيب ص : 126 .
44) العامية المغربية : التعاشيب ص : 127 .
45) أدب الفقهاء ص : 172 .
46) هي مقالات كثيرة آثرنا عدم ذكرها هنا مراعاة للإختصار وقد جمعها الأستاذ عبد الصمد العشاب قيم مكتبة عبد الله گنون بطنجة في كتاب جمع فيه كل أبحاث ومقالات المرحوم سماه < بيليوغرافية إنتاج عبد الله گنون > وهو لازال مخطوطا بخزانه المرحوم .
47) كتاب التعاشيب ص : 148 .
48) السابق ص : 79 .
49) أدب الفقهاء ص : 8 .

ملحق : I

المسيرة العلمية للمرحوم العلامة عبد الله كنون

1 - في ميدان التأليف ، (كتب مطبوعة) :

انصبت مرحلة الخصب في ميدان التأليف عند العلامة عبد الله كنون في ثلاثة محاور أساسية :

أ) الأدب المغربي وتاريخه وارتباطه بالتاريخ العربي في الأندلس ودراسات أخرى .

ب) الدراسات الأدبية والنقد والإبداع في الشعر وفن المقالة الأدبية والتحقيقات اللغوية .

ج) الدراسات الاسلامية والدفاع عن العقيدة والدعوة إلى فهم الاسلام فهما سليما .

د) التحققات .

كتب المحور الأول : الأدب المغربي وتاريخه ورجاله :

- النبوغ المغربي في الأدب العربي - ثلاثة أجزاء - ترجم الى الاسبانية .
- ذكريات مشاهير رجال المغرب - 50 حلقة .
- أمراؤنا الشعراء
- أدب الفقهاء
- أحاديث عن الأدب المغربي الحديث
- لقمان الحكيم
- القاضي عياض بين العلم والأدب
- أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر .
- الشيخ أحمد زروق دفين مصراتة
- مدخل إلى تاريخ المغرب

كتب المحور الثاني : دراسات أدبية وشروح وتعليقات لغوية

- واحة الفكر
- التعاشيب
- خل وبقل
- العصف والريحان
- أزهار برية
- أشداء وأنداء
- لوحات شعرية - ديوان

- إيقاعات الهموم - ديوان
- شرح قصيدة الشمقمقية
- شرح مقصورةالمكودي
- نظرة في منجد الآداب والعلوم
- أنجم السياسة وقصائد أخرى - دراسة وتحقيق

كتب المحور الثالث : دراسات إسلامية ومعارك من أجل العقيدة

- مفاهيم إسلامية
- إسلام رائد
- تحركات إسلامية
- على درب الإسلام
-شؤون إسلامية
- جولات في الفكر الإسلامي
- منطلقات إسلامية
- الاسلام أهدى - ترجم إلى الاسبانية -
- معارك
- معسكر الايمان يتحدى
- فضيحة المبشرين في احتجاجهم بالقرآن المبين
- الرد القرآني على كثيب هل يجوز الاعتقاد بالقرآن ؟
- نفي تقول سخيف على الجناب المحمدي الشريف
- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم
- تفسير سورة يـــس
- أربعون حديثا في فضل القرآن وتعلمه وتعليمه وتلاوته
- القدوة السامية للناشئة الاسلامية
- محادي الزقاقية - ترجم إلى الفرنسية
- حب الرسول للنساء
- الجيش المجلب على المدهش والمطرب

كتب المحور الرابع :تحقيق التراث ونشره

- رسائل سعدية
- قواعد الاسلام للقاضي عياض
- تلقين الوليد الصغير للشيخ أبي محمد عبد الحق الاشبيلي
- شرح الأربعين الطبية المستخرجة من سنن ابن ماجة للعلامة عبد اللطيف البغدادي
- شرح الشيخ ميارة على لامية الجمل للامام ابن المجراد
- الانوار السنية في الالفاظ السنية لابي القاسم محمد ابن جزي
- ترتيب أحاديث الشباب لابي الحسن الخزرجي القلعي

- كشف الشبهات للعلامة محمد بن سليمان الدرعي
- مناهل الصفا في أخبار السلوك الشرفا للشاعر عبد العزيز الفشتالي .
- المنتخب من شعر ابن زاكور
- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث
- عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي في النسب لابن بكر الحازمي
- رسالة نصرة القبض في الصلاة للعلامة محمد المسناوي
- التيسير في صناعة التفسير لابي بكر الاشبيلي
- أخبار المنار للحافظ ابن مخلف الدوري العراقي

2 - الإنتاج المخطوط :

1) ديوان صنوان وغير صنوان
2) قصائد ومقطعات لم تنشر في ديوانيه المطبوعين
3) الخطب الجمعية والعيدية
4) مراجعات وردود
5) مقدمات كتب في الادب والعلم والدين والاخلاق
6) الفتاوي
7) حوارات واستجوابات صحفية
8) تأبينات في مناسبات وفيات العلماء والشخصيات الاخرى
9) خطب في مؤتمرات ولقاءات في المغرب وخارجه
10) شخصيات مغربية - تراجم -
11) ألفاظ من النوادر
12) تحقيق قصيدة منهاج المناقب لابن أبي الخصال
13) الصادح والباغم - مقالات -
14) تفسير قوله تعالى " ووصينا الانسان بوالديه حسنا "
15) ضالة المتأدب من محاسن شعراء المغرب
16) تهذيب مقامة الافتخار للحضرمي
17) على هامش الحياة - مقالات -
18) المجموعة الادبية اللغوية - مقالات ودراسات -
19) المجموعة الوطنية - مقالات في مناسبات وطنية
20) المجموعة الأدبية والتاريخية - مقالات ودراسات
21) المجموعة الاسلامية - مقالات ودراسات -
22) مذكرات غير شخصية - في دفترين - (سيرة ذاتية)
23) تهرات المطابع - تعليقات خفية على الكتب الصادرة

24) المنتخبات من ديوان اليوسي
25) حواش على شعر أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي
26) منتقيات من أشعار الغزل والتفجع على فراق الاحبة
27) موشحات وأزجال مغربية
28) مجموعة مقالات بعنوان قضايا ومواقف
29) مجموعة بحوث ودراسات مختلفة
30) نشاط

ملحـــق : II

بحـوث فـي اللغـة

1 - الالفاظ والأساليب المستحدثة .
كتاب أشداء وأنداء . صفحة 134 مطبعة البوغاز بطنجة . 1986.
ومجلة مجمع اللغة العربية بمصر الجزء 54 شهر ماي 1984 - صفحة 107 .

2 - بحث في علم الجنس .
كتاب العصف والريحان صفحة 101 . مطبعة كريماديس بتطوان سنة 1969 .
فصلة لمجمع اللغة العربية بمصر سنة : 1963 .
مجلة دعوة الحق عدد 5 السنة 6 .

3 - البنيس وألفاظ أخرى .
كتاب العصف والريحان صفحة : 209 . مطبعة كريما ديس بتطوان 1969 .
مجلة دعوة الحق العدد 7 السنة 3 ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد 35 .

4 - الترجمة أم التعريب .
كتاب أزهار برية صفحة 71 مطبعة ديسبريس بتطوان 1976 .

5 - رسالة في أحكام الاختصاص . (بحث ألقي في الجلسة الخامسة لمؤتمر مجمع اللغة العربية بمصر سنة : 1972 .
فصلة من منشورات المجمع سنة : 1972 .

6 - منظومة في أحكام الإختصاص - مجلة لسان الدين عدد 8 ص 2 ومنظومة في أحكام الإختصاص وشرحها لم ينشر ثم تكملة لباب الإختصاص و شرحها .

7 - الكاف التمثيلية (بحث ألقي في مؤتمر الدورة 37 لمجمع اللغة العربية سنة : 1970 .
فصلة من منشورات مجمع اللغة العربية بمصر سنة : 1971 .
مجلة البحث العلمي عدد 18 السنة 8 - 1971 .
مجلة اللسان العربي عدد 9 الجزء الأول عام 1972 .
8 - لما به وألفاظ أخرى . (بحث ألقي في الجلسة الثانية لمؤتمر مجمع اللغة العربية بمصر سنة1961 . ونشر بمجلة تطوان عدد 7 سنة 1962 ومجلة مجمع اللغة العربية بمصر سنة 1964.
9 - لغة العلوم في التدريس الجامعي . وهل تصلح العربية أم لا في غنى عن التدريس باللغات الأجنبية .
كتاب أزهار برية ص 9.
10 - نعي وفاة . (بحث لغوي)
كتاب خل وبقل صفحة 218 المطبعة المهدية بتطوان .
11 - نظم مثلث قطرب وشرحه .
بحث ألقاه في الجلسة الثانية لمؤتمر مجمع اللغة العربية فبراير 1975 .
فصلة لمجمع اللغة العربية لمصر سنة 1975 . مجلة المناهل عدد 3 سنة 1975 .
تعليق ، قدم الأستاذ گنون بين يدي هذا البحث الإشارة إلى أن هناك ألفاظ تتشابه حروفها ويختلف شكل أولها باختلاف المعنى وهي المعروفة بالمثلثات . وكان أول من تنبه لها اللغوي محمد بن المستنير المعروف بقطرب تلميذ سيبويه .
12 - صراع اللهجات .
كتاب أشداء وأنداء صفحة 184. مطبعة البوغاز بطنجة. 1986.
جريدة الميثاق عدد 369 السنة 18 .
13 - العربية أمس واليوم . (بحث القي في الدورة 44 لمجمع اللغة العربية بمصر سنة 1978) .
كتاب أشداء وأنداء صفحة 9 مطبعة البوغاز بطنجة 1986 .
فصلة مستخرجة من الجزء 41 مجلة مجمع اللغة العربية .
مجلة مجمع اللغة العربية بمصر الجزء 41 سنة 1978 .
14 - عاميتنا والمعجمية .
كتاب خل وبقل صفحة 59 . المطبعة المهدية بتطوان .
مجلة تمودة السنة 2 العدد 1 شتنبر 1954 .
15 - القنداق وألفاظ أخرى (بحث ألقي في الجلسة 6 للمؤتمر المجمعي سنة 1966.

كتاب أزهار برية صفحة 37 مطبعة ديسبريس بتطوان 1976
منشورات مجمع اللغة العربية بمصر سنة 1966 .
16 - السليقة عند العرب المحدثين .
كتاب العصف والريحان صفحة 163 مطبعة كريما ديس بتطوان 1969 .
مجلة اللسان العربى عدد 2 سنة 1964 .
17 - سيداتي سادتي .
كتاب أشداء وأنداء صفحة 30 مطبعة البوغاز بطنجة 1986
الميثاق عدد : 282 السنة : 15 - 1978 .
18 - هل لفظ سوقة استعمال عفى عليه الزمن ؟
كتاب العصف والريحان صفحة : 143 مطبعة كريما ديس بتطوان 1969 .
19 - هل اسم خلدون ونحوه مكبر على الطريقة الاسبانية ؟
كتاب العصف والريحان صفحة : 245 مطبعة كريما ديس بتطوان 1969 .
مجلة البحث العلمي عدد 3 ، السنة 1964
20 - السامية المغربية - كتاب التعاشيب ، ص 96 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية 1975 .
21 - كيف نحل مشكلة اللهجات العربية الدارجة - جريدة الميثاق عدد 29 السنة 2 - 1963.
22 - المغزى بفتح الميم - مجلة لسان الدين عدد 5 سنة 1951
كتاب خل وبقل صفحة 115 المطبعة المهدية بتطوان
23 - مصطلح مرفوض - الميثاق عدد 472 السنة 21
24 - أسئلة من الدلالة التاريخية للفظ العربي ، مجلة اللسان العربي، عدد 5 سنة 1967
25 - الصحافة وتجديد اللغة بحث نشر في مجلة اللغة العربية بمصر الجزء 51 شهر مايو 1983 ص 125
26 الجناس وأنواعه في منظومة ابن طاهر الهواري قاضي فاس مجلة المناهل عدد 7 سنة 1976
27 - نظرة في المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب للمستشرق : رينهارت دوزي كتاب أشداء وانداء ص 37 .
28 - مراجعة في شأن تعريف " غير "
مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 39 العدد 1 ص 168
29 - مراجعة لغوية : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 39 ع 1 ص 167

30 - ملاحظات لغوية : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 27 ع 1 ص 580
31 - تأصيل وتصحيح : " رد لغوي " مجلة اللسان العربي عدد 4 سنة 1966.

الإنفتاح على الشرق والغرب

- تأكيد الهوية وتحقيق التواصل -

غربة التأصيل والحداثة في مسرح الطيب الصديقي

مصطفى رمضاني
كلية الآداب - وجـدة

مما لا شك فيه أن مصطلحي الأصالة والحداثة من أهم المصطلحات رواجا في النقد العربي الحديث . وغالبا ما توضع الحداثة ضمن الغايات الأساسية التي يسعى المبدعون إلى تحقيقها ؛ وهم في ذلك يعتقدون أنها مرحلة أعمق من الأصالة أو أرقى . وفي هذا الصدد يحق لنا أن نتساءل ، هل هناك تقاطع في الجوهربين الأصالة والحداثة ؟ الايكون المبدع الأصيل حداثيا فعلا ؟ وبمعنى آخر نتساءل كذلك : أليس المبدع الحداثي مبدعا أصيلا بالضرورة ؟ .

إن الكشف عن التعريفات والمعاني التي أعطيت للمصطلحين يؤكد أن هناك تلازما بينهما في الغايات . فإذا كانت الحداثة تعني بصفة إجمالية فذوذية التجربة وتميزها من خلال اختراق الكائن والجاهز في الإبداع ، وخلخلة الثوابت فيه لتحقيق الممكن منه ، فإن الأصالة لاتختلف في معناها عن كل هذا ، ذلك بأن الأصيل هو الذي يملك صفة التمييز والاختراق الزماني مع نبذ الجاهز والنمطية والاحتذاء . أي أنه كل إبداع يملك مناعة التميز والمغايرة بحثا عن الممكن والمختلف .

ومما يقرب بين المصطلحين في النقد العربي الحديث أنهما معا يرتكزان على دعامتين أساسيتين هما التراث والتجريب وقد بدا هذا واضحا بشكل جلي في حركة الشعر الحر على الخصوص ، وبعده في المسرح العربي المعاصر .

فالمحدث يركز على صفة المغايرة ، وهذا يعني أنه مرهون بإبداع

قبله تجاوزه ليؤسس على أنقاضه إبداعا جديدا دون أن يخلق معه قطيعة نهائية ، وإلا لما تحققت سيرورة التاريخ في شكلها الجدلي ، لأن كل فعل هو فعل داخل الزمن وليس خارجه ، بخلاف ما يعتقده بعض المغالين في طروحاتهم الحداثية ، كما هو شأن مطاع صفدي حيث يقول :

> لا يشبه الحداثي في قطيعته الوليد المكون من جسد أمه والمنفصل عنه ، إذ يجب أن يؤكد الحداثي انفصاليته المطلقة كما لو كان منذ الأصل يتيما - كما أنه مولود بلا أم - كالمسيح مزروع في رحم العذراء من لا أب ، فرادته أو يتمه كونه بلا تكوين مسبق ، لا يعرف أما ولا أبا ، حتى إنه يرضى بالهامشية ولا يقبل بالسلالة . إنه المنزاح بفعل قوته ذاتها . لذلك يصح عليه اتهام المنشق الذي لم يشقه أحد عن أصل ما ، ولكنه هو سبب انشقاقه ... (1)

ومثل هذا الموقف ما يجعل الحداثة فعلا عبثيا ، ما دام يلغي صفة السلالية التي هي عربون ونفي النفي وهكذا . فالحداثة لا ترمي إلى الهدم المطلق ، كما أنها ليست فعلا خارج التاريخ أو الزمان ، بل إنها تصر على ارتباطها بالتاريخ لأنها جزء منه ، ومن خلاله يحقق المبدع فرادة إبداعه وداخليته المتميزة ، وعبره يتحقق التواصل التفاعل مع المتلقي الذي هو جزء من ذلك التاريخ وصنع من ذلك الزمن ، إذن فليس هناك انشقاق مطلق ، ولا رحم مجرد يخرج من صلبه هذا الذي يسمى حداثيا .

إن الحداثة تلتقي مع الأصالة في كونهما معا ينطلقان من الأسئلة التأسيسية قصد تفجير بؤر الحساسيات المتحركة ، وتسعيان إلى البحث عن أدوات بكر تفضح السائد والجاهر للإبانة عن المقصى والمحرم. أي أنهما بحث مستمر هادف عن كل ما يجيب عن الأسئلة المقلقة الخاصة بالانسان والابداع والفكر والجمال ، كل ذلك في علاقته بواقع معين ، دون أن يعني ذلك إقصاء السمة الانسانية لهذا الفعل ، لاسيما إذا اعتبرنا أن الابداع المحلي الأصيل هو كذلك إبداع إنساني أصيل، لأنه، يملك صفة الاختراق والامتداد .

إن الصدق مع النفس في التعبير عن الواقع وابتكار أدوات مغايرة ، ومواقف متميزة هو ما يجعل الابداع أصيلا وحداثيا . وكما يقول الدكتور نذير العظمة :

أن نعيش في الحاضر وتوقعات المستقبل، أن نلبي حاجاتهما ، أن ننطلق من نبضهما في تعاملنا مع الواقع والتراث ، أن نرفض النماذج المسبقة واللغة المسبقة ، والشروط المسبقة لعملية الإبداع ، هذه بعض أبعاد الحداثة (2).
وهذه هي أبعاد الأصالة أيضا .

لذلك فكثيرا ما نتحدث عن إشكالية تأصيل المسرح العربي، ونحن في الحقيقة نتحدث ضمنيا عن إشكالية الحداثة . فالتنظيرات المسرحية التي ابتدأت مع ثلة من المبدعين المسرحيين العرب منذ بداية الستين ، ومحاولة التجريب الدرامية التي استلهمت أشكالا تعبيرية شعبية أو غربية كلها كانت تسعى إلى خلق خطاب درامي حداثي يعكس الهوية الخاصة للذوق الجمالي العام الذي يميز الانسان العربي عن غيره.

وفي هذا الصدد قدم المبدع المغربي الطيب الصديقي مجموعة من الأعمال المسرحية التي تستلهم الأشكال التراثية الشعبية في نوع من المصالحة الفنية مع بعض الاتجاهات المسرحية الغربية ذات التوجه الشعبي .

فمن المعروف أن الطيب الصديقي تتلمذ على يد مدير المسرح الشعبي بفرنسا " جان ڤيلار " وكان من مؤسسي جماعة المسرح الاحتفالي ذات التوجه التأصيلي الحداثي ، وقدم كثيرا من مسرحياته التراثية في الساحات العامة والملاعب والأسواق ، مخترقا بذلك الذوق المألوف فيما يخص الفضاء المسرحي عند عامة الناس ، ومتجاوزا الحدود الصارمة للقوانين الأرسطية فيما يخص بناء الشخصية والحدث وتقسيم الركح وغيره ، وكأنه بهذا الفعل "يعلن عن ميلاد مسرح شعبي حقيقي" (3) في الوطن العربي ، ويؤسس خطابا جماليا مغايرا سيكون له الأثر المباشر على تطور عملية التنظير المسرحي العربي من جهة ، وعلى التجربة الحداثية في الكتابة السينوغرافية من جهة أخرى .

لقد برهن الصديقي من خلال أعماله التأصيلية ذات التوجه الحداثي هذه على أنه فنان موهوب قادر على تطويع الأشكال الشعبية المعروفة في تراثنا العربي الاسلامي لخدمة العرض المسرحي المفتوح، على نحو ما فعل في مسرحياته " سلطان الطلبة " و " مولاي إدريس"

و"معركة الملوك الثلاثة " و " المغرب واحد " و " مولاي إسماعيل "... .

ففي أغلب هذه الاعمال تخلى الصديقي عن الصيغة الأرسطية للمسرح واستعان بفضاء الحلقة الدائرية ، ودفع الجمهور إلى المشاركة التلقائية حتى تحولت العروض المسرحية إلى حلقات أو تظاهرات شعبية عامة .

إلا أن البداية الحقيقية للتجربة التأصيلية عنده تبدأ بمسرحية "ديوان سيدي عبد الرحمان المجدوب" مرورا "بالحراز" ثم "مقامات بديع الزمان الهمداني" لأن الصديقي استطاع أن يستغل الصيغ الشعبية ويطوعها لتكون أكثر عصرية وملاءمة لطبيعة المجتمع العربي الحديث . ونظرا إلى ارتباطه بالمسرح العمالي ، وجد الصديقي نفسه مضطرا إلى معالجة بعض القضايا الاجتماعية التي تهم عامة الناس . وقد بدا هذا واضحا في مسرحيتي "المجدوب والمقامات" ، رغم أن تلك المعالجة لم ترق إلى مستوى التحليل النقدي الجاد بسبب انشغاله الكبيربالعناصر الجمالية للعرض المسرحي . وهذا ما دفع ببعض النقاد إلى وصف مسرحه بأنه "مسرح اعتدال يستجيب لرغائب دفينة عند مفكري الإيديولوجية السائدة " (4) .

إن هذا الإهتمام المفرط بالشكل المسرحي جعل عملية التأصيل عند الصديقي تنحرف عن معناها الحقيقي ، لاسيما وأن العروض التي تلت "مقامات بديع الزمان الهمداني" لم تفلت من تلك البهرجة الفانتازية ، فإذا كان قد وفق إلى حد كبير في استغلال عناصر التراث وجماليته «فإنه لم يوفق توفيقا كاملا في الاستفادة من المحاولة والوصول بها إلى حد تفجير قضايانا الملحة وتحريك أزمتنا المصيرية»(5) بمعنى آخر أن الصديقي لم يوفق في خلق انسجام بين الشكل والمضمون . فهو يقدم شكلا تجريبيا ثوريا ، وفي المقابل يقدم مضمونا يفتقر إلى النسق الفكري والرؤية الواضحة . لذلك تبدو أعماله فقيرة في مضامينها غنية في أشكالها ، لأنها تبهر العين وتثير الفضول .

فإذا كانت ثورية العمل المسرحي كما يقول رياض عصمت لاتتحقق إلا بتقدمية المضمون وحداثة الشكل وجدته وشعبية العرض(6)، فإن هذه الصفة لا تنطبق إلا جزئيا على الصديقي، لأن مضامينه في الأصل عبارة عن ترقيعات حكائية فوق جغرافية الخشبة لا يوحدها نسق فكري متين . ولا موقف ثوري واضح ، أو على الأقل موقف يمس تناقضات

الواقع مسا نقديا أو عقلانيا . وقد صرح نفسه بذلك وهو يتحدث عن مسرحه فقال : « ليس هناك علاج لأي موضوع . إني أحاول في مسرحي إظهار حقيقة الأشياء » .(7)

فبعد مسرحية "كتاب الإمتناع والمؤانسة" التي حاول فيها الصديقي التطرق إلى بعض المحن التي يتعرض لها المثقف في الوطن العربي من خلال شخصية أبي حيان التوحيدي ، قدم مسرحية "ألف حكاية وحكاية في سوق عكاظ"، وهي من سيناريو نضال الأشقر وإخراجه، وشارك في التمثيل نخبة من ممثلي الوطن العربي. والمسرحية عبارة عن كولاج مسرحي لمجموعة من المشاهد التراثية ذات الطابع الاحتفالي ابتداء من سوق عكاظ ، مرورا برحلة ابن بطوطة ومشاهداته وصعلكة الشنفرى، ومأساة تماضر الخنساء ، وعشق ابن زيدون لولادة ، وأخبار هند بنت عتبة ، وصولا إلى الحكايات العجيبة لشهرزاد ...

وما تجدر الإشارة إليه أن الطيب الصديقي حشد في عمله هذا مجموعة هائلة من نخبة الممثلين العرب ليعطيه صفة التمثيلية العربية الشاملة من جهة ، وليحقق له أقصى درجات النجاح من جهة أخرى .

ولكن مع ذلك بدا العرض متفككا ، لا يربطه رابط فني غير القفز على المشاهد واللوحات ، وغير التعبير الجسدي الجيد الذي بدا مع ذلك نشازا في بنية العرض المسرحي بسبب انعدام رابط موضوعي يربط عناصره المتعددة .

لقد أراد الصديقي أن يجمع مجموعة من المظاهر التراثية المتمثلة في بعض الأسواق والحالات الاجتماعية أو الجمالية في عرض واحد. وكأنه أراد أن يختصر كل هذه المظاهر كما اختصر المبدعين العرب في عرض واحد ، ليكون بذلك عرضا جامعا مانعا من حيث الموضوع والفنانون، وكذا التقنيات المبهرة والمستوى السينوغرافي المثير . إلا أنه سقط في البهرجة والقفز على اللوحات في نوع من التشتت الجمالي والفكري.

فالمعروف عن الصديقي أنه من أكثر المسرحيين العرب شغفا بالتراث وتعلقا به حتى إنه ظل حاضرا في أغلب أعماله . منه يأخذ

قضاياه وموضوعاته ، ومنه يستلهم هندسة العرض المسرحي كذلك إلى درجة أنه كلما ذكر الطيب الصديقي إلا وذكر معه المسرح التراثي . فهو يجسد الطابع الاحتفالي بشكل مذهل ، غير أن الاحتفالية عنده تظل مرهونة بطابعها الشكلي وبجانبها التقني خاصة وحين نبحث عن الفكر أو القضية التي تهم الإنسان والمجتمع ، لانعثر إلا على إشارات غير واضحة وسطحية، حتى لكأن الصديقي يقدم مسرحا بلا قضية لأن همه هو الإمتاع والبهرجة والإدهاش . وقد أكد ذلك صراحة حين قال إنه ليس مناضلا سياسيا لأن المسرح هو نضاله الوحيد (8) .

وحين يحاول الصديقي إسقاط التراث على الواقع يقع في تناقضات وقراءات ساذجة ، مما يسمح بالقول بأنه لايملك وعيا نقديا بالتراث ، لأن همه يظل منصبا على جوانبه الشكلية ولا يتعداها إلى البحث في ما يمكن ان يوفره هذا التراث من مواقف فكرية أو سياسية كفيلة بتقديم حلول المشكلات المعاصرة .

ولما كانت مسرحية ألف حكاية وحكاية في سوق عكاظ تعتمد على شتات تراثي دون رابط موضوعي أو منطقي فقد بدا العرض لايحمل قضية معينة ولايملك رؤية نقدية من التراث مما جعله يسقط فى كثير من التناقضات والمفارقات . فهي مشاهد فولكلورية ذات طابع مسرحي متقن في جانبه الشكلي ، مع غياب الطرح الفكري الواضح . "ومن هنا يمكن القول إن هذه الفرجة قد حفلت بالتناقضات الشديدة . فهناك فرق شاسع بين التقنية الفنية المذهلة لمخرج مثل الطيب الصديقي ، وبين هذه اللوحات المنفصلة التي يمكن حذف نصفها أو تقديم لوحة على أخرى دون أن تحدث أي خلخلة في الفكرة المطروحة ولا أقول البناء الدرامي . لأن ألف حكاية وحكاية لا يمكن أن تطبق عليها النقد التقليدي . ثم إن هذه اللوحات لا تحمل في طياتها قيمة واحدة أو فكرة تتأكد من خلال الفرجة لتؤدي في النهاية إلى تفجير الواقع في ذهن المشاهد ، ولكنها تتناقض فيما بينها ولاتؤدي إلى شيء ، وتنتهي تماما بمجرد خروجك من المسرح ولاتبقى من هذه الفرجة غيرإبهارالشكل المسرحي" (9) .

ونحن أيضا لا يسعنا إلا أن نتساءل : ما جدوى فرجة مسرحية لا تثير فيك رغبة المتابعة والتساؤل وقلق الفضول ؟ هل تبدأ وظيفة المسرح وتنتهي عند العرض ؟ وما حظ المجتمع والإنسان من المسرح ؟ أو لنقل من مسرحية ألف حكاية وحكاية في سوق عكاظ ؟ لاشك في أن المتفرج سيخرج منبهرا بالمشاهد الحركية المتنوعة ومن الملابس

التاريخية ، والرقصات الشعبية والأغاني والتراتيل والشطحات الصوفية ، وما إلى ذلك مما يجعل عناصر الإدهاش حاضرة بكثافة ، مع غياب شبه تام للقراءة النقدية للتراث والموقف التاريخي الواعي من الواقع .

صحيح أن الطيب الصديقي حاول أن يعالج موضوع الصراع بين القول والفعل خاصة في لوحة سوق عكاظ . ولكن تناوله جاء باهتا متعسفا لا يستند إلى تحليل مبرر بشكل مقنع . وربما مرجع ذلك إلى أنه - كما هو حاله في أغلب مسرحياته التراثية - ظل مشدودا إلى عناصر الفرجة داخل الفضاء السينوغرافي باعتباره صاحب عرض ومخرجا قبل أن يكون مؤلفا وكاتبا . لذا انصب اهتمامه على جغرافية الفضاء وما يقترن به من تقنيات ومفردات سينوغرافية وكوريغرافية حتى يحقق فعل الإبهار. وقد أكد هو نفسه صراحة الرأي حين قال:

> أعمالي جميعا لا تعتبر جزر - (كذا) * - منفصلة عن بعضها، ولكن كل عمل من هذه الأعمال يعتبر في حد ذاته مجرد حلقة في سلسلة متصلة هدفها النهائي تأكيد المسرح العربي ، فنحن نمتلك هذه الأشكال ولا يجب ان نكون مستهلكين للثقافات الاخرى ، بل يجب أن نصدر نحن أيضا أشكالنا المسرحية التي يعرفونها في الغرب وينبهرون بها عند مشاهدتها (10) .

فالطيب الصديقي كما هو واضح من قوله هذا يؤكد أن أعماله المسرحية تصب في اتجاه البحث عن أشكال مسرحية قمينة بتحقيق صيغة المسرح العربي بعيدا عن التبعية للشكل المسرحي الغربي . وهذا يعني أن أعماله تدخل في إطار الخطابات التأصيلية .

ولكن كيف يفهم الصديقي عملية التأصيل ؟ أهي مجرد بحث عن أشكال شعبية وظواهر تراثية واستبدال الشكل الأرسطي بها ؟ أم أنها تتجاوزه إلى القضايا التي لها علاقة وطيدة بالإنسان داخل المجتمع من أجل تحقيق هويته الإنسانية الكاملة ، وهذا يجرنا إلى التساؤل عن غاية التأصيل ، هل هي غاية جمالية محضة أو أنها غاية جمالية وإنسانية شاملة ؟ .

الحق أن مسألة التأصيل قضية شاملة تمس كل الجوانب المتعلقة بالعرض المسرحي بما فيها الجمهور . فليس هناك شكل نهائي يمكن أن

يستلهمه المبدع المسرحي حتى يحقق لمسرحه صفة الأصالة لأن التأصيل لا يتوقف على الشكل المسرحي كما رأينا بقدر ما يتوقف على كيفية اشتغال المبدع على نصوصه ليكون أكثر التصاقا بواقعه ، وأكثر صدقا في تعبيره وفي تواصله مع جمهوره ، وإلا تحول عمله إلى مجرد ترف فني كما نلاحظ عند بعض المسرحيين العرب وعند الصديقي في أعماله الأخيرة خاصة ، لأنه لم يطور شكله المسرحي ولم ينتقل به إلى مواقع حيوية حتى تحول إلى قالب جامد مع مرور الزمن (11) .

فلما كانت الثقافة الغربية لاتخلو من نزعة استعمارية تفرض على المتلقي التبعية والاستهلاك ، فقد وجدنا الصديقي يدعو إلى التخلص من هذه التبعية بقتل الأب - المركز المنتج - ، ولن يتأتى ذلك إلا بإنتاج ثقافة بديلة وشكل بديل ، أي أن يصبح الإنسان العربي منتجا، بل ويفرض على الغرب ذلك الانتاج . ولكن كيف يرى الصديقي هذا التصدير الثقافي نحو الغرب ؟ هل هو تصدير يتم بنفس الطريقة التي يصدر بها الغرب ثقافته وأشكاله الفنية نحو الشرق أو أنه تصدير له خصوصيته وحدوده ؟ يؤكد الصديقي بكل وضوح أن عملية التصدير لها غاية محددة هي إبهار الغرب الذي لايعرف ما يملكه العرب من أشكال مثيرة ، وهذا يعني أن رؤيته هي التي يترجمها في أعماله حيث يركز على ما يبهر في العرض المسرحي ، لأن الغرب لا يهتم بقضايا الإنسان العربي بقدر ما يهتم بالجوانب التي تحقق له متعة الإبهار ، وهو الأمر الذي يجعل هذه الدعوة لاتختلف عما نجده في كثير من الكتابات ذات الطابع الفولكلوري السياحي ، لأنها تريد أن تبهر الغرب بما يملكه الشرق من مظاهرات ذات الطابع الغرائبي كالشعودة والدجل والظواهر الشعبية التي يرى فيها الغرب مظاهرات بدائية فقط .

إن هذا الفنان حين يرى عملية التأصيل عملية شكلية إنما يعبر عن رأي التلميذ النجيب الذي تعلم فن الدراما من الغرب ورأى كيف ينظر الغربيون إلى أشكالنا الشعبية لذلك فهو حين يبدع عروضه المسرحية، لاينسى هذا الجمهور الغائب فعليا والحاضر في ذاكرته ألا وهو الجمهور الغربي، ولا أدل على ذلك من أن كثيرا من أعماله المسرحية قدمها في أوربا قبل أن يقدمها في المغرب أو في الوطن العربي . وكأنه يبحث عن رد فعل جمهور هذا الغرب قبل رد فعل الجمهورالعربي ، فإذا انبهر الجمهورالغربي ، فلا يهمه بعد ذلك الجمهور العربي ، لأن غايته هي إرضاء وإبهار الغرب . وفي إبهاره تحقيق

الأصالة المسرحية ، وإن ادعى قتل أبوة الغرب والتحرر من التبعية له، ذلك بأن مفهوم التأصيل عنده لايتجاوز الإطار الجمالي ، وبذلك يحطم وحدة العمل المسرحي ، وهي وحدة بنائية لا ينفصل فيها الجمالي عن المعرفي وعن الفكري . فإذا لم تكن عملية الانتاج والتصدير تشمل هذه الجوانب ، فلن يتحقق أي تحرر ، لأن التبعية ليست مشروطة بالموقف الجمالي فقط ، ولكنها مشروطة بهذا الثالوث في كليته . ولن يتحقق التحرر الكلي إلا حين يؤثر المسرح العربي معرفيا وجماليا وفكريا في الآخر كيفما كان هذا الآخر ، أي حين يصبح منتجا قادرا على التأثير وجعل هذا الآخر مستهلكا لما ينتجه .

فهل استطاع الصديقي أن يجعل الغرب مستهلكا لأعماله وفاعلا في التاريخ ؟ وهل تجاوز حدود الإبهار إلى التأثير الفكري أو المعرفي؟ هذه أسئلة تجعلنا نقر أنه ينظر إلى التراث نظرة قاصرة و أحادية ، لأنه يبحث فيه عن مظاهر الغرابة من أجل تحقيق الفنتازيا دون استنطاق الحمولات الفكرية للتراث حتى يحمله بحمولات فكرية لها مساس بالواقع وتناقضاته من هنا يظل التراث في مسرحه واجهة مغرية خالية من الموقف النقدي أو الرؤية الفكرية الواضحة ، وهو الأمر الذي يفسر إكثاره من العناصر الثراثية الفنتازية كالتركيز على الملابس التقليدية الفضفاضة مثل العباءات والجلاليب والقلنسوات ذات الشكل الهرمي ، والأناشيد الصوفية والملحون والموشحات والرقص الشعبي والشطحات الصوفية والموسيقى التي تنبعث من داخل الحدث بدل الموسيقى التعبيرية أو التصويرية ، وتحريك الفضاء باستغلال قطع الديكور المتحركة ذات الطابع التقليدي كالأبراج والحلقات والجوامع والحوانيت والأسوار وما إلى ذلك مما يذكرنا بالفضاء الشرقي وملامحه الخاصة ، هذا إلى جانب التعبير الجسدي الذي يستفيد من الرقصات الشعبية والغناء الشرقي الذي يستفيد من التراتيل والتسبيحات والذكر . وهذه الهندسة الصوتية والحركية والسمعية تعطي للعرض طابعا روحانيا قريبا من الاحتفالات الشعبية العامة. ولاشك أن هذه العملية مقصودة عند الصديقي ما دامت غاية ترتبط أساسا بإدهاش الغرب وإمتاعه وليس إقناعه بأصالة وتميز المسرح العربي ، وإن كان مفهوم التميز الذي نقصده لايعني إطلاقا التقوقع على الذات والتمركز في الخصوصية أو المحلية الضيقة ، لأن الإبداع الأصيل يحافظ على تميزه وطابعه المحلي دون أن يتعارض مع طابعه الإنساني الشامل ، باعتبار أن الأصيل أصيل في كل مكان وفي كل زمان .

ويبدو أن الصديقي يظل مصرا على موقفه الفني هذا لأنه لم يتخلص من أسلوبه الفنتازي ، رغم ما وجه له من نقد يتفق في أغلبه على غياب الخلفية الفكرية الواضحة في مسرحه ، ولم يتخلص من تكرار نفس الأسلوب الاحتفالي المعتمد على البهرجة والإدهاش الذي لجأ إليه في كل مسرحياته التراثية " كالمجدوب " و " الحراز " و " المقامات " و " الإمتناع والمؤانسة " و " وألف حكاية وحكاية في سوق عكاظ " يقول جواد الأسدي :« إن مسرح الصديقي مسرح التذوق النخبوي الصرف والصديقي الذي تجلى في " المقامات " أكثر من أي عمل آخر، شارك في صعود المسرح العربي في ستيناته ثم جنح بعد ذلك إلى التكرار ملبسا " المقامات " لبوسا متنوعا» (12)

... كولاج مسرحي عبر تعدد المشاهد التي قد لا يربط بينها رابط غير المتعة الفنية والفرجة الحيوية . فعبر اللوحات المسرحية ينتقل الصديقي الذي يقوم بدور الراوي يونس من مدينة إلى أخرى ، ومن فضاء إلى آخر ابتداء من الصويرة أو موكادور كما تسمى في المسرحية، مرورا بالحلقات في ساحة جامع الفنا إلى اسطمبول إلى فاس ، إلى الجزائر ، وتونس ، والقاهرة ، والكعبة ، ودمشق ، وبغداد ، ليعود مرة اخرى إلى موكادور ... وهكذا دواليك حتى إن كل مشهد مسرحي يمكن أن يكون مسرحية مستقلة بذاتها .

وفي هذه المسرحية أيضا يبهرنا بالكتابة السينوغرافية وبالفضاءات ذات الطابع الشرقي والأجواء الصوفية ، مما يؤكد الطابع السياحي في أعماله . وكأنه يتجول بالسياح ويبهرهم بما يملكه هذا الشرق السحري العجيب من مظاهر خارقة تعود به إلى روحانيته الأولى ، لهذا جاءت مسرحية الشامات السبع جولة فنية عبرالمساجد والجوامع والكتاتيب القرآنية حيث يوجد المرتلون ليختلط يونس الراوي بالعميان ثم ينتقل إلى الأضرحة ليقحمنا في عالم الأموات الرهيب ، وبعدها يرحل إلى الساحات والآثار التاريخية والعمرانية ولاسيما تلك التي لها حضور ديني كالكعبة ، فيختلط التمثيل بالحكي والرواية عبر تنقلات الممثلين وروايات يونس وما يرافقها من رقص وشطحات صوفية ورقص روحي وشعبي وتخيل تسنده الومضات التراجعية .

وهذه الفضاءات كلها تذكرنا بعالم ألف ليلة وليلة وأجوائه السحرية ، وما يرافقها من عجائبية وغرائبية الشيء الذي يساهم في

تحقيق فنتازية هذا العمل المسرحي .

إن هذا الطابع الفنتازي سمة بارزة في أغلب أعماله ولكنه في "الشامات السبع " يبدو وكأنه مقصود لذاته لأنه ليست هناك قضية خاصة يعالجها النص ، وإن كان هذا العمل قريبا من السيرة الذاتية ، باعتبار أن المؤلف ابن موكادور : الصويرة ذات الطابع السحري بتضاريسها وبحرها وجغرافية عمرانها وتأثيثها الداخلي وهذا كله يجعلها مدينة الأحلام التي تختزن شخصية الصديقي الفنية كما يختزنها هو في ذاكرته لأنه منها أخذ ثقافته الأولى وفيها يقدم أعماله المسرحية باستمرار ويشرف على مهرجانات فنية ، لذلك يتكرر فضاء الصويرة كثيرا في مسرحياته ولوحاته التشكيلية ، وقد انتبه أحد الدارسين إلى حضور الصويرة في " الشامات السبع " فقال :

إن المكان في أي عمل إبداعي إنما هو رمزيحيلنا على رموز أخرى قد تكون ممتدة في الزمن وقد تكون محدودة ، إن موكادور هنا بكل فسيفسائها الظاهر والخفي عبر المنطوق المسرحي ، موكادور إذن ممتدة في الزمن وحاضرة في ذاكرة الكاتب / الراوي حتى وإن كان لا يريد أن يكشف عن ذلك بقصدية (13) .

ومع ذلك ، فإن هذا العمل لم يقف عند طابع السيرة الذاتية إنما توغل في التراث يستمد منه مشاهده التي ظهرت كشتات مبهر في جانبه الشكلي . وهذه الصفة لا تخص هذا العمل وحده ، بل إن أغلب أعمال الصديقي المسرحية المستلهمة من التراث تنسج على هذا المنوال، لتصبح فرجات ممتعة خالية من الفكر الواضح ومن الوعي النقدي الذي يحمل موقفا من الإنسان والمجتمع . ومرد هذا كما ذكرنا سابقا إلى أن الصديقي يعتبر عملية تأصيل الخطاب المسرحي مجرد تجربة شكلية هدفها إبهار الغرب ومنازلته فنيا ، وكأن الصديقي في صراع فني مع الفنان الغربي الذي ظل لقرون طويلة سيد الميدان ينتج ويؤثر ويفرض علينا التبعية . ورأى الصديقي أنه آن الأوان لإبراز ما لدينا من صيغ وأشكال قمينة بإبهار ذلك الفنان وإرغامه على الاندهاش .

ولكن هل يكفي أن ندهش الغرب ونبهره ؟ فهو دائما ينبهر بما عند الشرق من مظاهر فولكلورية وشعبية تراثية . فكيف يتعامل معها؟ هل يعتبرها إنتاجا إنسانيا وحضاريا كفيلا باستلهامه واعتباره نموذجا ؟ وهل اعترف هذا الغرب يوما بذلك التراث أو أكد تميزه أو

تأثيره في الحضارة الإنسانية ؟.

إن الغرب الاستعماري لاينظر إلى تراثنا في عمومه إلا من منطلق السائح الذي يأتي ليتمتع ببدائية تلك المظاهر التي تعيد له روحانيته الضائعة . لهذا فحتى وإن أدرك في قرارة نفسه - أهميته ونجاعته، تأبى عليه مركزيته أن يقر ذلك . لذا يظل تراث الشرق عنده مجرد أداة للمتعة والتسلية ، شأنه شأن أي أثر سياحي . والطيب الصديقي لا يختلف في موقفه الفني عن موقف الإنسان الغربي من تراثنا ، لذلك يحضر الغرب باستمرار في أعماله المسرحية ، يحضر كنص غائب ظاهريا ، ولكنه يحضر كنص حاضر على مستويات عدة : منها التركيز على الجوانب الشكلية قصد إمتاعه وإثارتك مادام الإنسان العربي يعرفها ويمارسها لأنها حاضرة في ذاكرته الشعبية وفي سلوكاته اليومية . ومنها كذلك التركيز على عامل الفنتازيا لتحقيق العجائبية والغرائبية عبر مشاهد الحلقة والرقص والرواة والمظاهر الشعبية الأخرى المألوفة في أعماله .

ولكن أهم عنصر يجعل الغرب طرفا أساسيا في مسرحيته "الشامات السبع " على الخصوص ، هو عنصر اللغة . صحيح أن المسرح خطاب إنساني يهدف إلى تحقيق التواصل مع كل الفئات الاجتماعية مهما كانت لغاتها ومستوياتها الإدراكية ، فيستعين بلغات متعددة سمعية وبصرية وحركية ، كالرقص والموسيقى والديكور والإنارة والملابس والإيحاء والحوار والتشكيل وما إلى ذلك . ولكن مع ذلك فللنص دور أساسي وخطير في العملية المسرحية ، وإن كانت هناك تجارب واتجاهات تدعو إلى تجاوزه كما هو حال " أنتونان أرتو" الذي قال صراحة "بأنه يجب التخلص من خرافة النصوص والشعر المكتوب". (14)

إلا أنه مازالت للنص أهمية قصوى في المجتمع العربي الذي يتعامل مع المنطوق . وهذه الخاصية ترتبط بلاشك بالتقليد المعروف في ممارسة الشعر والخطابة في الأسواق وغيرها ، إلى جانب ما تمارسه بعض المظاهر الشعبية من سلطة المنطوق كالحلقات والرواة وغيرها ...

ولما كانت اللغة المنطوقة بهذه الخطورة ، فإنها بلاشك غير بريئة لأنها تحمل فكرا أو موقفا معينا ، كما أن الأسلوب الذي نعبر به يعكس شخصية الفنان وموقفه . وقد قال الناقد الفرنسي "بوفون" في ذلك

قولته المشهورة " الأسلوب هو الرجل نفسه" . ولاشك أن للصديقي أسلوبه الخاص الذي يميزه عن باقي المبدعين الآخرين ؛ وهو معروف في الساحة المسرحية العربية بحرصه الشديد على التأصيل وبارتباطه بالتراث وصيغه الجمالية ، لذا فأسلوبه يعكس شخصيته .

واستنادا إلى كل هذا ، فهل كانت استعانة الصديقي باللغة الفرنسية في مسرحيته " الشامات السبع " وفي غيرها استعانة جمالية محضة ؟ وهل يعود ذلك إلى نقص في امتلاك المعجم وآليات اللغة العربية ؟ ولو كان الأمر كذلك فلماذا قدم عروضا كثيرة بالعربية الفصحى والعامية وحقق نجاحا كبيرا ؟ فهو من المسرحيين العرب القلائل الذين تضلعوا في الثقافة العربية التقليدية ويتقنون تركيب الحوار بها . ثم لماذا هذا الإلحاح على إقحام الفرنسية في أعماله ؟ بل إن بعض الأعمال تطغى عليها الفرنسية ! ألا يمكن اعتبار هذا اللجوء إلى اللغة الأجنبية الغربية امتدادا لموقفه من الغرب وتقربا إليه لتحقيق عملية الإبهار ؟ ونحن نعلم أن اللغة كما رأينا تحمل فكرا لأنها ليست بريئة ، لاسيما حين توظف في إطار أدبي أو فني .

وعليه ، هل يحق لنا أن نؤكد أن " الشامات السبع " هي تكرار آخر لأعمال الصديقي السابقة ذات الطابع التراثي ، والأعمال التي تنعدم فيها وحدة الرؤية وتعتمد على الكولاج المسرحي والمشاهد غير المركبة تركيبا بنيويا كمسرحية " ألف حكاية وحكاية في سوق عكاظ"، رغم أنه وفر هذه الوحدة في مسرحية "أبي حيان التوحيدي" واستطاع أن يعالج قضية موقف السلطة من المثقف ؟ وهل يمكن اعتبار مسرحية "الشامات السبع" مجرد كتابة فولكلورية ذات طابع سياحي لاتختلف عن بعض الكتابات المكتوبة باللغة الفرنسية لكتاب مغاربة في عهد الحماية ؟ فهي كانت عبارة عن سياحة اجتماعية في جغرافية الوطن، تبهر الأجانب وتدهشهم بغرائبية الشرق وبدائيته أحيانا. وما الفرق بين " ألف حكاية وحكاية في سوق عكاظ" وبين "الشامات السبع" ؟ أوليست الثانية تكرارا للأولى وإن اختلفت المشاهد ؟ وإلا فما هو الجديد الذي تقدمه هذه المسرحية الأخيرة ؟ بل وما الفرق بين هاتين المسرحيتين وبين "مقامات بديع الزمان الهمداني" وبين " ديوان سيدي عبد الرحمن المجدوب" ، رغم أن الصديقي في هذين العملين الأخيرين ارتكز أساسا على نصين ثابتين في التراث العربي هما مقامات بديع الزمان الهمذاني وديوان عبد الرحمن المجدوب؟ ولكن مع ذلك يظهر أن هذه الأعمال تلتقي جماليا في تكرار الشكل والحرص على عامل الإبهار

مع غياب الخلفية الفكرية الواضحة .

ومما لاشك فيه أن تركيز الصديقي على عملية الإبهار تساهم في تكريس الوهم عند المتلقي ، لأن عمله قد يوحي ظاهريا بأنه عمل تأصيلي خالص ، إلا أنه مع ذلك يخفي الوجه الحقيقي الذي يعتبر التأصيل مجرد عملية شكلية باعتبار أن الخلفية الفكرية لأعمال الصديقي تبدو مبهمة وبدون قاعدة واقعية . وهذا ماجعل أعماله تخدع العين والإحساس دون الذهن . وتسرب الوهم إلى النقاد المختصين أنفسهم ، مما جعل بعضهم يعتقد أن أعمال الصديقي قطعت أشواطا مهمة في مسلسل التأصيل ، ورأى البعض الآخر أن تجربة الصديقي حققت هدف التأصيل بنجاح ، "واستطاعت أن تحل معضلتين أساسيتين واجهتهما مشكلة الخلق المسرحي في الوطن العربي ، وهما - بتحديد الدكتور محمد عزيزة - :

- البحث عن تعبير شخصي مع الرجوع إلى التراث الذاتي والتحرر من الأفكار الجاهزة المفروضة من الخارج .
- مواكبة العصر في تغيره المتواصل السريع والتفتح إلى كل جديد".(15)

بل ويعتبر بدر الدين عرودكي هذه التجربة "حصيلة أنضج وأعمق تجربة شهدتها محاولات تأصيل المسرح في الوطن العربي منذ مائة وخمس وعشرين سنة هي عمر التجربة المسرحية العربية إلى الآن".(16)

غير أن المتتبع الذكي لأعمال الصديقي سرعان ما يكتشف أن عملية التأصيل عنده تغيب طرح الإشكاليات والمشاكل الحقيقية في المجتمع ، ولا تقدم موقفا فكريا واضحا ، ولا رؤية نقدية تجاه القضايا الحساسة التي يعانيها المواطن العربي ، وهذه العملية شكلية جدا . وقد تكررت في كثير من الأعمال المسرحية العربية ، وهو ما يطلق عليه سعد الله ونوس صفة وهم الأصالة . يقول سعد الله ونوس معلقا على هذا الوهم الذي استحوذ على النقاد بعد مشاهدة مقامات الصديقي :

ما الجديد في تقديم المقامات ؟ هناك مخرج مبدع متمكن أخذ نصا قديما وطوعه عبر وسائل التقنية المسرحية ، من ديكوروموسيقى وإضاءة وتمثيل وإخراج وغيرها ، وجعل من هذا النص عرضا مسرحيا جميلا . ويمكن للمتفرج أن يتفاعل معه . هذا عظيم ، عرض أضيف إلى تراثنا المسرحي لكنه لا

> يمكن ان يكون تعريفا للمسرح ، فالنصوص ذاتها ليست مسرحية، والتقنيات المستخدمة لإيصال هذه النصوص إلى المتفرج هي تقنيات غربية بحتة بكل شيئ ، وإذن لقد جاءت دهشتنا من عملية وهم ، من دغدغة شوق داخلي للأصالة وللاكتفاء الذاتي . (16)

إن هذا الرأي لايخلو من صواب رغم ما فيه من تحامل على الصديقي، لأنه يجرده من أصالته وينسب جهوده التأصيلية إلى الغرب ، في حين أنه ظل مشدودا إلى التراث بكيفية مطلقة . فلا أحد يجادل في أن الطيب الصديقي من أكبر المسرحيين العرب استغلالا لعناصر التراث الجمالية وأحرصهم على المغامرة والابتكار في الجانب السينوغرافي، ذلك بأن مجهوداته في هذا الجانب مهمة وفريدة . بيد أنها مجهودات لاتؤهله لتحقيق الحداثة الحق مادام يغيب، الجانب الفكري ويلح على اعتبار العملية المسرحية مجرد إنجاز جمالي ، في حين أن أي إبداع هو بنية متلاحمة العناصر ، بحيث لا يمكن الحديث عن رؤية جمالية واضحة إلا من خلال ذلك التلاحم ، ويصعب الفصل بين تلك العناصر بحثا عن الأصالة أو الحداثة . وبما أن الطيب الصديقي قد غيب الجانب الفكري على حساب الجانب الجمالي ، فيحق لنا أن نتحدث عن غربة التأصيل والحداثة في مسرحه نتيجة لذلك .

الهوامش :

1) مطاع صفدي - مغامرة الاختلاف والحداثة - الفكر العربي المعاصر (البيروتية) ع 44 - 45 ربيع 1987 - ص 6 .
2) آراء في الحداثة - المعرفة (السورية) ع 249 - س 21 - 1982 - ص 222 .
3) الدكتور حسن المنيعي - أبحاث في المسرح المغربي - ط - صوت مكناس - ط 1 - 1974 ، ص 125 .
4) محمد برادة - عندما يضاعف المسرح الأقنعة . المحرر الثقافي - ع 24 نونبر 1974 - ص 3 .
5) فتحي العشري - دقات المسرح - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973 - ص 156 .
6) الثورة في المسرح العربي - دراسات عربية - ع 3 - سنة 19- يناير 1983 ص 136 .
7) في حوار مع رياض عصمت . الآداب ع 7 - س 20 - 1972 - ص 69 .

8) في حوار أجراه معه مراسل الوطن العربي (الباريسية) ع 365 - س 8 - ص 57 .
9) محمد الرفاعي - الحقيقة والقناع - منشورات وزارة الثقافة ، مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي - مطابع هيئة الآثار المصرية 1991 - ص 37 .
*) الصحيح أن يقول جزرا بدل جزر .
10) عن محمد الرفاعي - الحقيقة والقناع - ص 39 .
11) انظر نديم معلا محمد = إنها إشكالية وجود وليست إشكالية طليعية - الطريق ع 2 س 45 1986 - ص 131 .
12) حوار أجراه معه د. نديم معلا محمد - الطريق ع 2 س 45 ، 1986 ، ص
13) محمد خير الدين - الشامات السبع للطيب الصديقي الغائبون دائما مخطئون الاتحاد الاشتراكي ع 8 دجنبر 1991 - ص 8 .
14) ANTONIN ARTAUD . le théâtre et son double : éd : idées / gollimard - 1981 P 121 .
15) بدر الدين عرودكي - الطيب الصديقي وتأصيل المسرح العربي - المعرفة (السورية) ع 124 - 125 حزيران تموز 1972 - ص 18 .
16) نفسه - ص 26 .
17) حوار أجراه معه نبيل حفار - الطريق ع 2 س 45 1986 - ص 121 .

المسرح المغربي والإنفتاح على الغرب

مسرحية " فاوست والأميرة الصلعاء "

لعبد الكريم برشيد نموذجا

يونس لوليدي
كلية الآداب - مكناس

لابد من الإشارة في الأول إلى أن " فاوست " ليست أسطورة " Un Mythe " كما يعتقد بعض الدارسين العرب ، وإنما هي " Une légende ". وأفضل أن أترجم مصطلح " Légende " بالحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة . فكما يقول E.O James " la légende " " هي تاريخ محرف أو ناقص " (1) . لذلك ينبغي أن لا نخلط بين المصطلحات ، وأن نكون حذرين في استعمالها . فكما أن هناك نظرية للأجناس الأدبية، فإن هناك أيضا نظرية للأنواع الحكائية = " La théorie des genres narratifs " .

وإذا عقدنا مقارنة بين الأسطورة و " الحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة " ، نجد الملاحظات التالية :

1 - أن كلا منهما يقوم على الحقيقة ويعتقد في صدقه .
2 - تتشكل شخصيات الأسطورة من الآلهة ، والأبطال المدنين (Héros civilisateurs) ، في حين تتشكل شخصيات " الحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة " من الآلهة ، والشخصيات الخارقة، والقديسين، والبشر .
3 - الوظيفة الإجتماعية للأسطورة هي وظيفة شعائرية (fonction rituelle) في حين أن الوظيفة الإجتماعية "للحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة " هي إعطاء درس روحي أو أخلاقي .
4 - إن مجال صلاحية الأسطورة هو العقل ، في حين أن مجال صلاحية

"الحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة" ، هو التاريخ .

5 - إن وسيلة الفعل في الأسطورة هي القانون ، في حين أن وسيلة الفعل في " الحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة " هي المعجزة أو الجريمة .(2)

وكل خصائص " الحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة " تنطبق على حكاية فاوست . ففاوست هو شخصية تاريخية ، ولد في أواخر القرن الخامس عشر في المانيا ، وبالضبط في مقاطعة " فور تمبرج " . ومات حوالي سنة 1543 بعد حياة حافلة بالمغامرات العلمية والإجرامية والعاطفية . فقد كان منجما حينا ، وطالب علم حينا آخر . لكن السمة الغالبة على حياته كانت هي الشعوذة والتحايل من أجل الكسب غير المشروع . (3) وقد أورد E. Faligan في كتابه " Histoire de la légende de Faust " رسالة تثبت الوجود التاريخي لهذه الشخصية ، كتبها Jahan Trithein بتاريخ 20 غشت 1507 يصف فيها فاوست قائلا :

إن هذا الرجل (...) المدعو جورج سابليكوس Sabellicus الذي تجاسرفادعى أنه أول العرافين هو متشرد (...) وكاتب جوال يستحق أن يجلد من أجل أن يشفي من ولعه بالإعلان من أمور رهيبة مخالفة للكتاب المقدس . إن الألقاب التي ينتحلها هي الدليل على عقل أبله مختل ومدع وليس فيلسوفا(4)

وكما توجد آثار دالة على وجود فاوست التاريخي في عدة مدن ألمانية مثل (جلنهوزن) ومدينة (Erfurt) ، ومدينة (Ingolstadt)، فإنه توجد أيضا أدلة على وجوده في كل من مدينة (براج) بتشيكوسلوفاكيا ، ومدينة (ڤينيا) بالنامسا ، كما أن أرشيف جامعة (هيدلبرج) يثبث أن فارست قد حصل على الباكلوريوس في 15 يناير 1509 كما أنه حصل من نفس الجامعة على شهادة الدكتوراه (5) ودخل هذا الشخص الحقيقي عالم المتخيل في مجموعة من القصص الشعبية ظهرت مطبوعة في مدينة (فرنكفورت) سنة 1587 تحت عنوان " كتاب الشعب " ويقدم لنا هذا الكتاب فاوست على أنه ابن أسرة تقية من الفلاحين الفقراء ، ضحوا بما لديهم لكي يتعلم في المدارس ثم الجامعة وفي الجامعة درس الدين والفلسفة لكنه سرعان ما هجرهما ليتغمس في حياة المجون ودراسة العلوم الممنوعة من سحر وتنجيم ، وهذا ما جعله يستحضر إحدى الأرواح التابعة للشيطان وكانت هذه الروح تدعي Méphistophélés وقرر فاوست أن يوقع مع هذه الروح عقدا بدمه واهبا روحه إلى سلطان ، ابليس في مقابل القدرات السحرية والخارقة التي يمكن أن يهبها إياه الشيطان .

ثم يمضي فاوست أربعة وعشرين عاما من المتعة والثروة والمغامرات والقدرات الخارقة ، ثم يأتي بعد ذلك الروح ليأخذ معه فاوست إلى الجحيم حسب الإتفاق . وفي اليوم الأخير يدعو فاوست أصدقاءه ومريديه ويقص عليهم قصة الإتفاق ، ويفسر لهم السر وراء نجاحه ، ويعبر عن ثوبته وندمه (6) .

أما عندما بدأ الكتاب والمفكرون الأوربيون يهتمون بهذه الحكاية ، فقد رأوا فيها عدة قضايا وتساؤلات جوهرية : هل هي قصة ثورية ضد النظام العام والشرعية القدسية التي تتطلب طاعة الإنسان طاعة مطلقة ؟ أم هل هي دراسة متأملة في العلاقة بين المعرفة وحدودها حيث يأتي الالتجاء إلى السحر أو إلى التعاقد مع الشياطين رمزا لطموح الإنسان الجازف وتوقه إلى السلطان ؟ هل هي قصة تمزق النفس بين قبول نظام الكون وبين المغامرة الكبرى في عالم المجهول ؟ وقد تعامل المسرح مع هذه الحكاية ابتداء من القرن 17 ، حيث قدمها مجموعة من الممثلين بعد أن أدخلوا عليها بعض العناصر والأحداث الكوميدية ثم استلهمها بعد ذلك مسرح العرائس خاصة في مدينة (Salazbourg) .

وعندما ترجم « كتاب الشعب » إلى الانجليزية ، استلهم الشاعر المسرحي الإنجليزي كريستوفر مارلو (1563-1593) الذي كان معاصرا لشكسبير - حكاية فاوست وكتب مسرحية « التاريخ المأساوي للدكتور فاوستوس » (The Tragical History of Dr . Faustus) وعلى الرغم من أن مسرحية مارلو لم تكن هي أول مسرحية يلعب فيها الشيطان دورا - إذ كان الشيطان شخصية أساسية في المسرحيات الدينية في العصور الوسطى - إلا أن هذه هي المرة الأولى التي تحضى فيها شخصية الشيطان بعناية فنية تجعل منه شخصية واضحة السمات لافتة للأنظار ، بل أحيانا سارقة للأضواء (8) وقد قدم "مارلو" فاوست إنسانا متعجرفا ثائرا كافرا بالسماء وبكل القوانين الإلاهية والانسانية وهذا ما سيؤدي به إلى اللعنة الابدية والماساة عند مارلو هي ماساة فشل الانسان في تطلعاته نحو المعرفة ونحو ادراك الحقيقة وراء غموض الحياة . إن البعد الإنساني للبطل المهزوم هو البعد الذي أحب مارلوا أن يبرزه في مسرحيته (9) ومن بين الكتاب المسرحيين الذي استلهوا أيضا حكاية فاوست ، المسرحي الألماني Ephrain lessing (1729-1781) الذي اشتهر بمعارضته لتقليد الكلاسيكية الفرنسية حيث اقترح جمالية درامية جديدة حاول تجسيدها في تراجيدياته

البورجوازية والفلسفية ، وقد كتب مسرحيته عن فاوست سنة 1759 حيث صوره عقلانيا متطلعا إلى المعرفة ورغم محاولات القوى الشيطانية لكي تحتويه وتنتصر عليه ، إلا أن ملكا يحميه فينتصر على هذه القوى الشيطانية فقد كان Lessing يؤمن بأن الله لم يهب البشر هذه الميول والرغبات لكي يشقى بها دائما وبذلك يكون Lessing أول من خالف التقاليد وكتب لفاوست السلامة والنجاة (10).

ولعل أبدع نموذج للشيطان هو نموذج ميفيستوفيليس عند الشاعر الألماني جوتة (1749-1832) في مسرحيته « فاوست » بجزأيها فقد ظهرالجزء الأول سنة 1808 أما الجزء الثاني فقد ظهر على مراحل بين سنتي 1827-1832 .

وقد رسم جوته صورة للشيطان مستفيدا من كل ما كان تحت يده من تراث ديني - مسيحي ويهودي - وكذا تراث شعبي وميفستوفيليس عند جوته هو : «نقيض الإيمان والتفاؤل وتجسيد لروح السخرية فقليلون هم الذين أمكنهم أن يهربوا من نظرته التهكمية المريرة » (11)

أما الجزء الثاني من المسرحية فقد جاء عبارة عن أجزاء مفككة صب فيها جوته خلاصة معرفته من أدب وفلسفة ورموز وأساطير على نحو جعل دور المسرح تكتفي بعرضه الجزء الأول في كثير من الأحيان. ولعل الجديد في مسرحية جوته هو الرؤية البطولية إلى شخصية فاوست أي اعتباره ، رمزا للإنسان في صراعه نحو المعرفة ، ونحو الرقي . والجديد هنا أيضا هو ظهور شخصية (Marguerite) التي يحبها فاوست حبا عميقا ولا سلطان للشيطان عليها . إن Marguerite هاته هي بمثابة شعاع الأمل والطهر في حياة فاوست . وجوته هوثان مبدع - بعد Lessing - يكتب لفاوست الغفران الإلهي في آخر المطاف . حيث يدخل الجنة بعد أن شفع له روح Marguerite .(12)

وسرت حمى فاوست إلى معظم معاصري جوته من الأدباء والفنانين والمفكرين . فقد وضع الكاتب الرومانسي الألماني Ludwig Tieck (1773 - 1853) قصة بعنوان « فاوست المضاد » سنة 1801 ، دعا من خلالها إلى توجيه الرومانسية الألمانية نحو الفانتاستيك . وقدم الكاتب الألماني Thomas Maun (1875 - 1955) معالجة قصصية لفاوست تحت عنوان (Docteur Faustus) . كما قدم

الكاتب الروسي AleKsandr PouchKine (1799 - 1837) سنة 1836 فاوست دون تعطش إلى العلم أو ولع بالمغامرة . مشيرا إلى الملل الذي وصل به إلى حد احتقار الدنيا والزهد في ملذاتها . ولعل أشهر المعالجات الفرنسية لأسطورة فاوست هي عمل Paul Valery (1871 - 1945) الذي قدمه تحت عنوان (فاوست كما أراه) .

ومن الموسيقيين الذين استلهموا فاوست هناك كل من الفرنسي Hector Berlioz (1803 - 1869) . والنمساوي Franz schubert (1797 - 1828) ، والألماني Robert Schumann (1810 - 1856) ، أما بالنسبة للرسامين ، فأجمل وأشهر لوحة استلهمت فاوست هي لوحة La chevanchée Fantastique de Faust للفرنسي Delacroix Eugène (1798 - 1863) .

أما في السينما فقد تناول هذه الحكاية المخرج الفرنسي René Clair (1898- 1981) في فيلم بعنوان La beauté du diable . و René clair هو ثالث مبدع - بعد Lessing و Goethe - يكتب لفاوست نهاية متفائلة .(13)

وقد أثرت شخصية فاوست في حركتين أدبتين وفنيتين هما :

أ - الرومانسية في ألمانيا بصفة خاصة . فكانت التطلعات الفاوستية ذات صدى واضح في نفوس الشعراء والمفكرين الرومانسيين.

ب - حركة « العاطفة والإندفاع » التي جاءت ضد نزعة التنوير في ألمانيا وضد تمجيد العقل لتدعوإلى تمجيد الغريزة والعاطفة على حساب العقل .

كماأن فاوست تحول أيام توحيد ألمانيا و تأسيس الرايخ (1871 - 1918) إلى أسطورة قومية أو إلى نوع من الإنجيل للأمة الألمانية حيث أصبح يجسد الفكر الألماني وجبروته والبحث الألماني وتطلعاته (14) .

وكما يقول طه حسين : « ليس هناك أديب من أدباء القرن الماضي، ولاهذا العصر إلا تأثر بفاوست وليس هناك فيلسوف إلا تأثر بفاوست قليلا أو كثيرا في فلسفته . » (15)

وقد أثر فاوست أيضا في الأدب والمسرح العربيين إما بطريقة غير مباشرة كما في مسرحية "أشطر من إبليس" لمحمود تيمور،

و"هاروت وماروت " لعلي أحمد باكثير ، ومسرحية « دموع ابليس » لفتحي وضوان و « نحو حياة أفضل » لتوفيق بالحكيم. أو بطريقة مباشرة كما في قصة « عهد الشيطان » لتوفيق الحكيم ، ومسرحية «عبد الشيطان» لمحمد فريد أبو حديد ، ومسرحية « فاوست الجديد » لعلي أحمد باكثير وقد وضعت أغلب هذه الأعمال في إطار اسلامي حيث تعامل هؤلاء المبدعون مع الشيطان انطلاقا من الصورة التي رسمها له القرآن الكريم : « قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين » (الحجر، الآية 39) .

ولابد التأكيد أن هؤلاء المبدعين العرب الذين استلهموافاوست لم يكونوا متأثرين بفاوست جوته وحده بل متأثرين أيضا بفاوست مارلو بالدرجة نفسها . فمحمد فريد أبو حديد وعلي أحمد باكثير مثلا كانا مثقفين ثقافة إنجليزية متخصصة ، وكلاهما ترجم عن الانجليزية مسرحيات لشكسبير وفي المغرب استلهم عبد الكريم برشيد حكاية فاوست وكتب مسرحية «فاوست والاميرةالصلعاء » في خمسة أنفاس - النفس الاول تحت عنوان «أيا زمن قل لي بالله » والنفس الثاني بعنوان « مات فاوست ... عاش فاوست » والنفس الثالث بعنوان «عبد الموجود أنت موجود ؟ » والنفس الرابع تحت عنوان « أين الشهادة في موت بلا قضية ؟ » والنفس الخامس تحت عنوان «كما تمزج الخمرة بالماء الزلال » والدارس للمسرحية يخرج بالملاحظات الآتية :

1 - إن عبد الكريم برشيد باستلهامه لحكاية فاوست قد انفتح على تراث استلهمته أوربا برمتها انطلاقا من ألمانيا ومرورا بإنجلترا وايطاليا وفرنسا ووصولا إلى النمسا وعالجته بمختلف وسائل تعبيرها من مسرح وشعر وموسيقى ورسم وسينما . ولا شك أنه ليس من السهل معارضة هذا التراكم الهائل .

2 - إن برشيد بكتابته للمسرحية لم ينفتح على حكاية فاوست وحدها ، وإنما انفتح أيضا على مسرح العبث (Lethéatre de dérision) من خلال العنوان « فاوست والاميرة الصلعاء » الذي يذكرنا بمسرحية Eugène la contratrice chauve Ionesco كما أشار أيضا إلى أسطورة اوديب من خلال السؤال الذي يوجهه أبو الهول إلى سكان طيبة عن الحيوان الذي يمشي في الصباح على أربع و في الظهيرة على اثنين وفي المساء على ثلاث .

3 - يبدو تأثير معالجة جوته وبول ڤاليري واضحا في عمل برشيد من خلال الصورة التي رسمها لفاوست فقد جعل منه موضوع النفس الانسانية بين الفكر والعقيدة والهوى وبين الفن والعلم والسحر ، ثم بين اليأس والرجاء والحرمان والغفران .

4 - حتى وإن كا عبد الكريم برشيد قد اطلع على الاعمال العربية التي اسلهمت فاوست فإنه لايمكن الحديث عن انفتاح على الشرق وإنما عن انفتاح على الغرب بواسطة الشرق . بما أن كل تلك الاعمال العربية لم تستطع التخلص من الرؤية الغربية لفاوست

5 - على الرغم من أن برشيد قد وظف في مسرحيته بعض الصيغ والحوارات ذات الطابع المحلي لإضفاء صفة الإقليمية على هذه الحكاية مثل قوله : « من بلاد سيبريا حتى سوق الأربعاء » أو قوله : «تسقط الزرزور من فوق السور» أو قوله «لكن ما فيديكش » إلا أنه لم يستطع التخلص من عدد من الصيغ والتعابير الملتصقة بالثقافة والتراث الأوربيين كقوله : « سامحتك السماء » أو قوله « صلوا من أجلي » أوكعنوان النفس الثاني : «« مات فاوست ... عاش فاوست »» الذي يذكرنا بما كان يقال عند موت الملك في البلدان الأوربية «« = le roi est mort ... vive leroi ».

6 -على الرغم من أن برشيد قد استعمل بعض الأسماء العربية التي تحليل على التراث العربي ليوحي لنا بأن الأحداث تدور في مكان وزمان عربيين مثل (مياسة) ، و (الزيبق) ، و (تاج الدين) ، إلا أن مجموعة من الإرشادات المسرحية تؤكد لنا أن هذه المسرحية لاتناقش قضايا عربية أو مغربية ، وإنما تعالج قضايا إنسانية عامة . وهكذا يقول في بداية المسرحية = «« ليس هناك بداية يمكن أن تنطلق منها المسرحية ، وليس هناك أيضا مكان محدود . »» (17) ويقول في موضع آخر ««حبال متقاطعة علقت عليها ألوان مختلفة من الملابس يمكن أن نميز فيها ملابس الجند والرهبان والعمال والمساجين والمشعوذين والمهرجين والدراويش (...) ملابس لكل العصور والأمم والمهن والطبقات. »» (18) إذن نحن في عالم يلتقي فيه الراهب بالدرويش .

7 - يقول برشيد على لسان فاوست = «« سيفضحني هذا الملعون في كل الدنيا ، سيجعل مني أسطورة وخرافة »» . و واو العطف هاته تدل على أن برشيد يساوي بين الأسطورة والخرافة ، على الرغم من أن

فاوست ليست بالأسطورة ولا بالخرافة كما رأينا في البداية .

ويمكن أن نتساءل في نهاية الأمر = ألا يمكن لمسرحنا المغربي أن ينفتح على الغرب لكن انطلاقا من إبداع ذاتي متحرر من هيمنة الآخر؟ .

الهوامش :

(1 Voir E.O James : My thes et rites dans le proche- Orient ancien- traduit de l'anglais par René Jouan - Bibli- othèque historique- Payot-1965 p283

(2 Voir : Michel Simonsen : Le conte populaire -Presses - universitaires de france - Paris - 1984 / p 14

3) انظر مجدي وهبة: أسطورتان دالتان في الحضارة الأوروبية : فاوست ودون جوان - عالم الفكر - المجلد الحادي والعشرون - العدد الأول - يوليوز - أغسطس - سبتمبر - ص 151 .

4) انظر فاوست - تأليف جوته - ترجمة وتقديم عبد الرحمن بدوي - الجزء الأول - المقدمة -ص 14 - ضمن سلسلة من المسرح العالمي - عدد 232 - يناير 1989 - تصدر عن وزارة الاعلام - الكويت.

5) المرجع نفسه - ص 23 .

6) مجدي وهبة : أسطورتان دالتان في الحضارة الأوروبية - عالم الفكر - ص 149 .

7) المرجع نفسه - ص 151 .

8) عصام بهي : الشيطان في ثلاث مسرحيات - مجلة فصول - الأدب المقارن - الجزء الثاني - المجلد الثالث - العدد الرابع - 1983 - ص 249 .

(9 Voir Goethe : Fauste - Traduction de Gérard Neval - chronologie et préface de Jeanne Ancelet -Hustache Flammarion - 1964 - p 16

(10 Ibib - p 16

11) عصام بهي:الشيطان في ثلاث مسرحيات - فصول - ص250.

12) مجدي وهبة: أسطورتان دالتان في الحضارة الأوروبية - عالم الفكر - ص 150 .

(13 Voir la préface de Faust-p36.

14) كمال رضوان:فاوست منذ عصرجوته - فصول - الأدب المقارن - الجزء الثاني -المجلد الثالث-العدد الرابع - 1983- ص234.

15) نقلا عن كمال رضوان - المرجع نفسه - ص 231 .
16) عصام بهي : الشيطان في ثلاث مسرحيات - فصول - ص250 .
17) عبد الكريم برشيد - فاوست والأميرة الصلعاء - مجلة أقلام العراقية - ص 206 .
18) المسرحية ص 206 .

مصادر تفسير النص الشعري عند العرب القدامى

شـــروح شعـر الشواهـد نموذجـا

مصطفى السلاوي
كلية الآداب - وجدة

مقدمة :

ليس من باب الصدفة الحديث عن مصادر تفسير النص الشعري عند العرب القدامى في مقام الحديث عن البحث الأدبي في المغرب بين التأصيل والتحديث : على أساس أننا من أكثر المثقفين العرب قراءة وترجمة وتشبها بنظريات الغرب في مجال تفسير النصوص الأدبية عامة ، والنص الشعري طرف حاضر حضورا قويا في هذا الكم من المستهلكات . وإذا كان وضعنا التاريخي والجغرافي والثقافي قد أرغمنا، ذات يوم ، على مثل هذا التوجه ، فإن الرؤية المستقبلية الطموحة في ترسيخ مبدأ الهوية والشخصية العربية الإسلامية ، هذه الرؤية المستقبلية التي تأخذ على عاتقها مسؤولية التفكير فيما ينبغي أن يكون عليه الدرس الادبي في هذا البلد الرائد وعند مثقفيه المشهود لهم قديما وحديثا ، بتفوقهم ؛ تحملنا على إعادة النظر في وضعنا كمثقفين ما يزالون يستهلكون (المنهج) استهلاكهم للمعرفة . . فمازلنا نأخذ عن غيرنا ونعتذر عن ذلك عذر محمد بن اسحق في طبقات ابن سلام الجمحي : لاعلم لنا بوجود (منهج) عند اسلافنا فسروا من خلال عناصره النص الشعري . ولاعذر لنا في ذلك ما دمنا كنا دائما نبحث عن باب اسمه (المنهج) في مصنفات القدماء ، ومادمنا كنا دائما نتوق إلى الوقوف عند (برامج) منهجية كتلك التي قرأناها عند الغرب أو أقل منها بقليل . لاعذر لنا مادمنا لم نكلف أنفسنا إعادة صياغة هذا

(الذي نبحث عنه (المنهج في تفسير النص الشعري) الذي بقي مبعثرا في مصنفات أسلافنا ، بين ثنايا تخصصات متباينة ، وخلال مسيرة زمنية طويلة بلغت عشرة قرون ... كنا ومازلنا نبحث عن (المنهج) تحت اسم باب خاص عند القدماء اسمه (المنهج) ، فلا نجده ويخيب سعينا ، فنضرب صفحا عن مثل هذا البحث المضني . ولكن، هل كلفنا انفسنا مرة تركيب (شذرات) هذا (المنهج) انطلاقا من القراءة الواعية بالذات والهوية والمستقبل داخل المصنفات والتخصيصات التي حوت عناصر المنهج وشذراته ؟ بل إن من هذه المصادر ما جمع عناصر المنهج كاملة وطبقها على النصوص خطوة خطوة ، وسبق بالتنظير لها في خطبة قد تقصر وقد تطول ، وسر - بعد ذلك كله - بالفوائد الجمة التي بلغته اليها خطته . يقول الشيخ ابو الحسن الندوي في حديث اشبه عندنا حديث (المنهج) الذي نقدم به لهذا العرض :

اصيب الادب العربي بمحنة ... هذه المحنة هي : تسلط اصحاب التصنع والتكلف على الادب الذين يتخدونه حرفة وصناعة ، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره ، ليثبتوا براعتهم وتفوقهم ، ليصلوا به الى اغراض شخصية محضة ... ويطغى هذا الادب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الامة ، وتحتوي عليه مكتبتها الغنية الزاخرة ، من أدب طبيعي ، وكلام مرسل ، وتعبير بليغ يحرك النفوس ويثير الاعجاب ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد ، ويبعث في النفس الثقة ؛ ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا الى الادب والانشاء ولم يتخذوه حرفة ومكسبا ، ، ولم يشتهروا بالصناعة الادبية ، ولم يكن لهذا النتاج الادبي الجميل الرائع عنوان أدبي ، ولم يكن في سياق أدبي ، وإنما جاء في بحث ديني ، أو كتاب علمي ، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي ، فبقي مضمورا مطمورا في الادب الديني ، أو الكتب العلمية ، ولم يشأ الادب الصناعي - بكبريائه - أن يفسح له في مجلسه ، ولم ينتبه له مؤرخوا الادب - لضيق تفكيرهم وقصور نظرهم - فينوهوا به ويعطون مكانه اللائق به . إن هذا الادب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية ، بل هو اكبر سنا وأسبق زمنا من الادب الصناعي ؛ فقد دون هذا الادب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يدون الادب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الادباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الادب الصناعي ، مع أنه هو

الادب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة اهل اللغة ولباقتهم، وهو مدرسة الادب الاصيلة الاولى (1).

فما أشبه حديث الشيخ أبي الحسن الندوي عن اغفال الدارسين ادب مرحلة صدر الاسلام وتعطيلهم بحث مضامين هذا الادب والانتفاع بفوائده والنسج على منواله ، في مقابل احتفالهم الكبير وفرط انبهارهم بأدب المرحلة العباسية المتكلف ؛ ما أشبه اذن هذا الحديث بحديثنا عن (ازمة المنهج) في ادبنا العربي بعامة . ذلك أن حديث الشيخ عن (الادب الطبيعي) و (الادب الصناعي) شبيه بحديث (المنهج الطبيعي) الذي يثير الاعجاب ، ويوسع آفاق المعرفة ، ويغري بالتجريب والاتباع ، ويبعث في النفس الثقة ، و(المنهج الصناعي) المستورد . المترجم ؛ فهو (ممنوع / متكلف) : نتنافس في الدعاية له، ونتكلف ونشطط في فهم قواعده ، ونجهد انفسنا ونجهد طلبتنا في تبني نظرياته ، لنثبت براعتنا في سرعة الادراك ، وتفوقنا في الاخذ والتوظيف . وهذا ما عبر عنه استاذنا (عباس الجراري) حين كتب يقول :

... وفي المستوى الثاني - وهو الذي ينطبق علينا - يتعلق الامر باقتباس منهجي يلجأاليه الذين يستهلكون المعرفة ولا ينتجونها ، فهم من غير أن يمروا بالطريق المعرفي يذهبون مباشرة الى المناهج رغبة في استعمالها ، وغالبا ما يتم ذلك من خلال التطبيقات التي جربها الآخرون والتي انطلقوا فيها من معطيات بحثوا فيها عما هو منسجم منها أو عما هو ممكن التوفيق ... ونحن حين ننظر في محاولات نقادنا في المرحلة الحديثة المعاصرة نجد أنهم سعوا إلى التوسل ببعض مناهج النقد الجديد التي أعطت ثمارا كلية أو جزئية عند الغربيين، ولكن سعيهم لم يتجاوز التجريب الذي لم يتح له أن يتم دون الوقوع في الخلل ، وهو خلل مرده الى أن التطبيق لم يكن متقنا وسليما ، وما كان له ان يأتي على الوجه الانسب بسبب الاختلاف الذي يمس نوع المعطيات ومدى تأثيرها حين تكون مستخلصة من بيئة ويحاول إلصاقها ببيئة أخرى من جهة، والذي يمس طبيعة التعبير وأداته وكل ما يرتبط بهما من جهة أخرى (2) .

ليس معنى كل هذا أننا ضد مناهج التحليل الحديثة ، وليس معنى ذلك أيضا أننا نعطل لغة التواصل مع غيرنا من الغربيين الذين قطعوا اشواطا بعيدة سواء على مستوى المعرفى أو على مستوى المنهجج . لكن

الذي نتوق اليه أن تكون لدينا مناهجنا التي ننطلق منها ، مناهجنا التي ترسخ تعلقنا بهويتنا ومعارفنا ، مناهجنا التي تمنحنا قوة الثقة في أنفسنا وحسن التصرف - بعد ذلك - في الاستفادة من غيرنا - لقد اهتم العرب القدامى بالنص الشعري شرحا وتفسيرا ووصفا وتأويلا اهتماما بالغا اهتموا به ابياتا مفردة تقوم مقام الشاهد والمثال في كتب النحو واللغة والغريب والتصريف والعروض والسيرة والرحلات والاخبار والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم ، كما اهتموا به وحدة متناسبة المقاطع كما هو الشأن بالنسبة لكثير من القصائد والمقطعات والدواوين الشعرية . والدارس لمختلف هذه الشروح التي طالت النص الشعري في جميع أحواله ومستوياته ، يلاحظ أن العلماء المسلمين القدامى فسروا مختلف مكونات النص ابتداء بتوثيقه ، حيث :

- تحقيق نسبة النصوص الشعرية ،
- التعريف بالشاعر ،
- الإحاطة بالإشارات التاريخية المصاحبة للنص .

وانتهاء بالمكونات البانية جسد القصيدة أو البيت المعروض للشرح والتفسير ؛ وهنا وجدناهم يقفون عند :

- المستوى اللغوي (المعجمي) ،
- المستوى العروضي (الإيقاع) ،
- المستوى النحوي (الاعراب) ،
- المستوى البلاغي (الجمالي) ،
-المستوى الدلالي (التأويل) .

وكثيرا ما وجدناهم يطيلون الوقوف عند تشابه المعاني بين الشعراء ، وأخذ المتأخر منهم عن المتقدم (السرقات / التناص / الحوارية بين النصوص) . يقول استاذنا (عباس الجراري) مبينا موطن الداء فينا ونوعية العلاج المنقد لضياعنا :

وأظننا في النهاية نستطيع الجزم بأنه لكي تكون للعرب والمسلمين مناهجهم لابد أن تكون لهم قبل معرفة ؛ أي أن تكون لهم فيها مساهمة وابداع . ولايتحققان مالم ينطلقا من ذات قادرة على إثبات الوجود مزودة بامكانات واستعداد ورغبة في توظيف هذه الامكانات وفق ما يمليه العقل ويشترطه الواقع الذي يتطلب باستمرار تخطي العقبات والسلبيات والنظر إلى المستقبل بمعايير منسجمة في تطورها وتجددها مع ما تقتضيه المعرفة المتغيرة ووظائف هذه المعرفة الخاضعة على الدوام لطموح ما نصيها وتطلعات مجتمعاتهم ومنعهم بذلك للتاريخ

أو تكييفهم لهذا الصنع مع شروط الكون وظروف الطبيعة، بعيدا عن أي وثوق وأي انسلاب .(3)

ومثل هذا السعي العزيز يقتضي منا الإلمام بامرين اثنين :

الأول : « الرجوع إلى تراثنا العلمي وسبر اغواره واكتشافه من جديد لحصر العناصر المعرفية والمنهجية واستحضار ما هو منهاجي وملائم لتوظيفه كما هو ، أو ما هو قابل للتطوير قبل التوظيف، وكذا لاستخلاص ما هو صالح لننطلق منه ، أو نستوحي أو نستمد بعض ما يقوي فينا قدرة الابداع أو يفتح أبوابه . » (4) .

الثاني : « التفتح بوعي وعمق وحرية على تراث الغرب وما يجد في شتى سوحه ومختلف ميادينه ليس لمجرد اتباعه والبقاء في مؤخر الركب لاهثين خلفه ، ولكن لاكتساب المقومات التي أهلته للتقدم وامتلاك المفاتيح التي لا يبقى مسدودا أي باب في وجهه يريد دخوله وارتياده . وبدون هذا الامتلاك وذاك الاكتساب سوف يكون مستحيلا علينا أن نساهم في إبداع الثقافة والحضارة وسوف نظل مجرد مستهلكين لما يتبقى من فتات يلفظه الغير . إن إجراء هذه العملية يتطلب وسائل وامكانات تقوم على مدى احساسنا بالواقع الذي نعيشه ومدى الرغبة في تغييره والقدرة على هذا التغيير . كما تقوم على معرفتنا بالذات والكيان وتحديدنا للغايات والاهداف ونظرتنا الموضوعية للآخر في غير قبول أو رفض مسبقين ، وتقوم قبل هذا وبعد على الوعي الصحيح بالعملية لفهمها وادراكها واستيعابها في حقيقتها وعمقها ، بعيدا عن أي جدل عقيم لايستند إلا على مجرد التحيز والخصومة .» (5) . وغير بعيد عنا الموقف الرافض الذي وقفه (رينيه ويليك / R. Wellek) الاروبي الأصل ، الأمريكي الجنسية من المفهوم الفرنسي للأدب المقارن ؛ هذا الرفق الذي كان متعلقا بالمنهج أكثر من تعلقه باي شيء آخر . بالرغم من أن الناقد يمثل ثقافتين متقاربتين أشد التقارب ، لكنه فضل ان ينبثق منهجه في بحث مفهوم الأدب المقارن من (المعرفي الأمريكي) بدلا من (المعرفي الأروبي / الفرنسي) .

ليست القضية اذن قضية تعصب عرقي ، أو تحامل ضد الاشخاص أو المذاهب ، بل هو ناموس الحضارة وناموس الذات الاصيلة التي تقتضي أن ينبثق كل أصل منها . وبعد ذلك فقط ، لابأس من الاستفادة

من جهود الآخرين ؛ بل لابد من الاقتباس من مناهجهم ومعارفهم . يقول الاستاذ عبد الحليم عويس :

من خلال التجارب الحضارية المتعددة يعلمنا التاريخ أن أخطر ما يواجه أمة هو أن تنهزم في فكرها ومنهج حياتها أمام خصومها الحضاريين .... إن الهزيمة الحقة هي تلك التي يستسلم فيها العقل وينسحق الوجدان وتتجه المشاعر - خضوع ذليل - الى منهج الاعداء العقدي والفكري والسلوكي (6) .

فالذي يعول عليه اذن يكمن أساسا في إعادة تركيب (ملاحظات) و(نظرات) و (شذرات) علمائنا القدامى ، وليس في استيراد التراكمات التي تزيد في تعميق الهوة بيننا وبين وجودنا كذات وهوية وكيان وأمة كان أول مانزل على نبيها الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم من الذكر العزيز الحكيم : الدعوة إلى القراءة ؛ الى العلم ؛ إلى المنهج . وهذا ما عبر عنه استاذنا الدكتور(حسن الامراني) في بحثه القيم عن (ثقافتنا المعاصرة بين الكائن والممكن) ؛ قال :

وإن مما يلاحظ أحيانا أن واقعنا يعاني تراكما ثقافيا ، ومع أن التراكم الثقافي لايعدو - في معظم الاحيان - أن يكون حملا كاذبا ، إلا أن هذا التراكم نفسه في واقعنا غير قائم على الحقيقة . ولوقسنا ما يصدر عنا - في التخصصات المختلفة - لوجدناه هزيلا . ومع ذلك فان الفكر الذي يمكن له بكل الوسائل هو الفكر الكسيح الذي يجعل الأمة عاجزة عن الانطلاق ... ان كل المشاريع الثقافية العربية التي قدمت على انها مشاريع مستقبلية ظلت تنفخ في الرماد لأنها ظلت تتصور أنها كلما تمادت في الانقضاض على التراث (الماضي) ازدادت قربا من المستقبل . ولكنها في الحقيقة كانت تستنسخ منهجا غربيا صار عواره باديا للعيان ... (7) .

هذه مقدمة كان لابد من الوقوف عندها والاطالة في سرد الملاحظات المتعلقة بها ، على أساس أن الحديث عن (مصادر تفسير النص الشعرى عند العلماء العرب القدامى) متعلق شديد التعلق بـ (قضية المنهج) في الدرس الأدبي العربي الذي مازال يتلمس طريقه بين كثرة المناهج الغربية المستوردة التي تروم أن تفصل له كسوة ليست دائما على مقاسه . والذين يهتمون بتفصيل هذه الكسوة لم يكلفوا ابدا أنفسهم أخذ مقاسات هذا الأدب العربي حتى تكون كسوته نابعة من مقاساته الحقيقية الأصيلة !!! كان لابد من (حديث المنهج) قبل أن نتحدث عن (مصادر) تفسير النص الشعري عند

القدماء. وبـ (حديث المنهج) ننوي ختم هذا الحديث إن شاء الله تعالى.

والقراءة التي اقدم في هذه العجالة : مبحث متواضع داخل أطروحة عريضة تروم ، بإذن الله سبحانه وتعالى، الكشف عن عناصر المنهج الذي اصطنعه القدماء في تغيير النص الشعري ، والتعريف بهذا المنهج وأدواته انطلاقا من مستوييه : التنظيري والتطبيقي ؛ وكان العرب القدامى اكثر ميلا في كتاباتهم التفسيرية الى التطبيق منه الى التنظير والوقوف عند حدود الرسوم واحكام القيمة النقدية كما قد ترسخ في الاذهان . واكتفي في هذه القراءة بالوقوف عند (مصادر) تفسير النص الشعري : خاصة المصدر الذي اهتم فيه اصحابه بشرح أبيات الشواهد التي تعلقت بالنحو واللغة والبلاغة والتعريف والغريب ، بالاضافة الى الشواهد التي اتصلت بتفسير القرآن الكريم ويخص من الحديث النبوي الشريف . ولعل في مثل هذا الوقوف ما يكشف عن كثير من الاسئلة التي وجب طرحها بقصد تحديد موقفنا من الدراسات الادبية في هذا البلد العزيز ، وتحديده بالنسبة لهويتنا وأصالتنا التي تجعل منا امة عربية إسلامية .

وقسمت هذا العرض الى اربعة أقسام رئيسية :

1 - نشأة الشروح الشعرية عند العرب .
2 - الشعري والعلمي في شروح القدماء ؛ وضمنها ميزنا بين ثلاث فئات من الشراح :
   أ) الشراح الشعراء .
   ب) الشراح العلماء .
   ج) المتأدبون من الشراح .
3 - مصادر تفسير النص الشعري .
4 - نموذج شروح شعر الشواهد / الامثال .

1 - نشأة الشروح الشعرية :

لعل أول ما تعلقت به الشروح التي مارستها الذهنية العربية (الشاعرة والعالمة) القديمة : الابيات المفردة ؛ سواء تلك التي تقوم مقام الشاهد أو المثال ، أو تلك التي كانت تطول البيت الواحد أو النتفة من الابيات داخل قصيدة أحد الشعراء . والمقصود بالابيات المفردة في هذه الدراسة : كل شعر محدود عدد الابيات اختاره القدماء من الشعراء والعلماء والكتاب ضمن ما اختاروه من شعر ضمن حماساتهم أو

اختياراتهم أو مؤلفاتهم في الرحلات والسيرة والادب والنقد . وهو خاصة : كل شعراستعان به القدماء من العلماء المسلمين ووقفوا عنده شاهدا يوضحون من خلاله ما أشكل بيانه من أي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، أو يقربون عن طريق التمثل به ما استعصى فهمه من قواعد العربية ، أو يرجحون بواسطته رأيا سديدا على رأي ضعيف في اطار ماعرف بالخلاف بين المدارس النحوية . ولانعني بالابيات المفردة : البيت الواحد فحسب ، وإنما نقصد الابيات التي وردت في سياق الاختيارات الشعرية وما شاكلها من كتب الحماسة والامالي وما لحق هذه الضروب من التأليف من شروح ؛ المهم أن لايزيد عدد الابيات في هذا المقام (الابيات المفردة / النص المفرد) عن ثلاثة . قال ابن هشام الانصاري (ت . 761 هـ) في مقدمة شرحه قصيدة (بانت سعاد) اللامية لكعب بن زهير :

اعلم أن البيت الواحد يقال له مفرد وتسميه العرب يتيما . ومن ذلك الدرة اليتيمة لانفرادها ، فإذا بلغ الاثنين والثلاثة فهي نتفة ، بضم النون وسكون المثناة بعدها فاء ؛ وهي في اللغة : الشيء القليل ، كذا رواهما الشاطبي في أول (شرح الالفية) عن القاضي ابن الطيب عن الفراء بسند رفعه اليه .(8)

من هنا اخذنا هذه الابيات المفردة على اساس أنهاا نصوص شعرية قائمة بذاتها من جهة ، وموصولة بسياقاتها - عند الشراح اثناء الشرح - من جهة ثانية . وما دام شعر الشواهد والابيات المشكلة الاعراب من ضمن النصوص التي طالها الشرح والتفسير ؛ بل ومن أكثر الشعر الذي استقطب اهتمام العلماء وجملة من المتأدبين من الشراح ، فهو النص (الشعري / العلمي) الاول الذي يمثل نشأة تفسير الشعر .

وقد سبقنا غيرنا من الدارسين إلى الاحاطة بخبر هذه النشأة الاولى داخل ما عرف بالبيئة التفسيرية للنص القرآني الكريم (9) الذي ظل الاساس الاول والرئيس في نشأة جميع العلوم الاسلامية . لهذا لن نتحدث عن نشأة هذه الشروح في اطار ما عرف بحجية الشعر في التفسير ، وتقصيد القواعد ، وبيان الاحاديث النبوية . لكننا سنقف عند هذا الامر من جهة نشأة نوعية هذه الشروح التي مارستها الذهنية العربية القديمة . وهنا وجدنا أنفسنا نميز بين أربع طبقات من الشعراء / المبدعين :

- الشاعر الذي ينظم ويسأل في تفسير نظمه ،

- الشاعر الذي ينظم ويرى لزاما عليه تفسير نظمه ،
- الشاعر الذي ينظم ويتولى غيره تفسير نظمه ،
- الشاعر الذي ينظم ويشرح الشراح الشواهد التي استشهد بها بعض العلماء (النحاة) من نظمه .

ولعل أول ما ظهر من هذه الطبقات الاربع : الشاعر القديم (الجاهلي) الذي كان ينظم الشعر ويسأله غيره في تفسير ما انبهم عليه من معانيه . ظهر هذا قبل الحاجة الى شعر الشواهد في تفسير القرآن الكريم والتقعيد للنحو واللغة والتعريف والبلاغة وغيرها . ومن أمثلة ذلك ما نجده متناثرا هنا وهناك في كتب الأدب والطبقات من إشارات متعلقة بالأسئلة والاستفسارات التي وجهت للشعراء طلبا لفهم شعرهم. وقد نشط مثل هذا الأمر نشاطا كبيرا مع العهد الأموي حيث كانت تعقد مجالس الشعر والرواية والأدب . ولنا في أخبار الفرزدق والأخطل وجرير وعمر بن أبي ربيعة وكثير وجميل والأحوص وغيرهم كثير من المواقف التي عبرت عن الاهتمام بتفسير الشعر بالإضافة إلى نقده .

وارتبطت بهذه الطبقة من الشعراء ، طبقة ثانية هي طبقة (الشاعر الذي ينظم ويتولى غيره تفسير نظمه) . والشروح التي احصيناها عن هذه الطبقة . كالتي جمعنا للطبقة الأولى قليلة ومتواضعة - في بداياتها الأولى - لاتتعدى الأبيات ولاتجاوزبعض الشعراء ؛ على رأسهم الأسماء التي سبقت الإشارة إليها - إلا أن شروح هذه الطبقة ستعرف قفزة نوعية كبيرة تخولها احتلال الصدارة في مجال الشروح الشعرية ، ابتداء من القرنين الثالث والرابع وما بعدهما . وقد بدأ هذا التطور مع ميل العلماء والرواة منهم إلى صنعة الدواوين ، ثم - بعد ذلك - شرحها شروحا متميزة لم يعرف العرب مثيلا لها . وكانت المعلقات الحلبة الواسعة والأرض الخصبة التي نمت فيها مثل هذه الشروح (الأدبية) ؛ كما هو الشأن عند الانباري (ت . 328 هـ) والتبريزي (ت . 502 هـ) ، والزوزني (ت . 486 هـ)، وابن النحاس (ت . 338 هـ)والاعلم الشنتمري (ت 476 هـ)والمرزوقي (ت 421 هـ) الذي شرح حماسة أبي تمام ، كما شرح (المفضليات) للمفضل الضبي . والأمثلة على هذا الاتجاه (الأدبي) في شروح الشعر كثيرة ، برع فيها الأندلسيون أكثر من المشارقة وأولوها من الاهتمام مالم نجده عند غيرهم من الشراح .

وفي نفس الفترة التي عرفت تطور الشروح الأدبية التي طالت

دواوين الشعراء والمعلقات واختيارات بعض المتأدبين، وجدنا شروح الطبقة الأولى (الشاعر الذي ينظم ويسأل في تفسير نظمه) تعود لتطفو على سطح الساحة الأدبية ؛ ولكن هذه المرة في صورة جديدة جد متميزة : (الشاعر الذي ينظم ويرى لزاما عليه شرح نظمه) . ويمكن التأريخ لهذا (النوع من الشروح بشيخ (المعرة) : أبو العلاء المعري الذي تميز تميزا كبيرا في هذا المجال ؛ فكان يشرح دواوينه وهو يعلم أن خروجها إلى الناس بدون شرح ضرب من اغلاق الخطاب وقطع حبل التواصل والفهم . ويمكن القول أن لاوجود لشروح شعرية واعية منظمة قبل أبي العلاء المعري الذي يعتبر الشاعر الأول الذي تولى شرح شعره بأسلوب منظم متميز، وبعقل واع بضرورة مثل هذا العمل . ولعلنا واجدون في رسائل أبي العلاء، وما صنفه في هذا المجال ذخيرة لايمكن الانتهاء من تأويلها وجمع صور الشرح الواردة فيها. ويضيق المجال هنا للالمام ببعض ماجاء به الشيخ الضرير . وليس معنى هذا أن الضرب الأول من الشروح (الشاعر الذي ينظم ويسأل في تفسير نظمه) قد توقف ، بل ما زلنا نصادف نماذج متطورة منه ؛ فقد كان أبو الطيب المتنبي إذا سئل في شيء من شعره : (تبسم) . ووددنا لو أن الشعراء المعاصرين لنا يفكرون في تفسير شعرهم ، لكان بين أيدينا نماذج نوازيها بغيرها التي تركها لنا المعري وأبي علي الحسن اليوسي في شرحه داليته ، ولكان لنا مستوى آخر من مستويات النظر في شروح الشعر والنقد المتعلق بها عامة (10) .

أما الشعر الذي ينظمه صاحبه ، ويأتي العلماء للاستشهاد والتمثل ببعض ابياته ، ثم يجيء -في مرحلة ثانية - من يتولى شرح هذه الشواهد / الأمثال التي اختارها العلماء ؛ فهذا هو الذي اشتهر بين جمهور الدارسين ب (شعر الشواهد) أو (أبيات الشواهد) . إنه الوجه الآخر لشروح الشعر ؛ هذا الوجه الذي عكس لنا (تعارض العلمي والشعري) في مجال الشروح . وبالرغم من أن هذا الضرب من الشروح بدأ مع أول عهد للعرب بالتأليف في علم التفسير وقواعد النحو ، حيث كان النحوي : مثل أمثال سيبويه والمبرد وغيرهما يتولون شرح بعض شواهد هم شرحا لايجاوز اللفظة أو المعنى البسيط أو الكناية الرائقة . فإن هذا الضرب من الشروح لم يتطور التطور الكبير والمفيد إلا مع جملة من العلماء المتأدبين الموسوعيين المتأخرين جدا ؛ من أمثال : الحسن القيسي (ت. 567 هـ) ، والعيني (ت. 855 هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت . 911هـ)، وعبد القادر بن عمر البغدادي (ت . 1093 هـ) . وقد وجد هؤلاء في جهود ابن

النحاس، والسيرافي (ت . 368 هـ) ، والأعلم الشنتمري ، وابن هشام، وغيرهم الفوائد الجمة التي مكنتهم من البلوغ بهذه الشروح مبلغا يذهل الدارس المحدث . وإذا كنا لم نقف عن كل الأسماء ، فذلك لكثرتها وضيق حيز هذا العرض على استيعابها كلها بمصنفاتها. وحسبنا من ذلك كله ما وقفنا عنده من هذه الإشارات .

هذه سبيل أخرى من سبل كثيرة يمكن بواسطتها الحديث عن نشأة تفسير النص الشعري عند القدامى . وقد عاشت جميع هذه الشروح جنبا إلى جنب في مختلف عصور الأدبيات الشعرية العربية . ومثل هذا التنوع في شروح القدماء هو الذي جعل الذهنية العربية أمام إشكال من الصعب جدا الظفر بقناعة شافية منه ؛ إنه التعارض الحاصل بين (ما هو علمي) و (ماهو شعري) على مستوى هذه الشروح ، ثم ما هو علمي (من قبيل المنظوم المصنوع) وما هو شعري (من قبيل الابداع الصافي الذي عصرته الروح الشاعرة) على مستوى الاشعار نفسها ، تلك التي وقعت شاهدا /أو مثالا في مصنفات العلماء من شراح الشواهد الذين يصنفون ضمن القسيم الأول : (ماهو علمي) من الشروح . وهذا ما سنقف عنده ضمن المبحث الثاني من هذه الدراسة .

2- تعارض الشعري والعلمي :

ومادمنا حصرنا اهتمام هذه الدراسة في النظر في المصدر اللغوي كواحد من مصادر تفسير النص الشعري عند العرب القدامى ؛ أي أننا سنقف عندما اشتهر بين جمهور العلماء بشعر الشواهد أو الأمثال نصا من النصوص التي أولاها علماء اللغة وثلة من المتأدبين فائق الاهتمام، فهذا يلزمنا بالوقوف عند واحدة من أكبر اشكالات هذا الاختيار: تعارض الشعري والعلمي في النصوص التي اشتهرت على أنها من شعر الشواهد . وقبل أن نخوض في بعض مظاهر هذا الاشكال ، نتعرف أولا على المقصود بالشاهد والمقصود بالمثال في إطار هذا الضرب من الدراسة .

لابد من التفريق في هذا المجال بين ثلاثة مصطلحات رئيسة : الاستشهاد والاحتجاج والتمثيل . فأما الاستشهاد والاحتجاج فواحد ، والتمثيل يستقل بخصوصياته . والتفريق بين الاثنين يعود إلى نوعية النصوص وأصحابها " فإذا كان النص من النوع الذي يعتبر أساسا للقواعد شعرا أو نثرا منسوبا إلى شاعر موثوق به في عصر الاستشهاد

أو إلى قبيلة من القبائل التي وثقت لغاتها فهو من النوع الأول، وينبغي تقديسه واحترامه . أما إذا كان النص مصنوعا أو غير موثوق بأن ساقه النحوي نفسه أو ساقه عمن لايحتج بكلامهم ، فهو « تمثيل»، وهو غير ملزم ، وهدفه الايضاح والبيان فقط ." (11) . فالنص وإن جاء ببعض الحدود السليمة ، إلا أن صاحبه غلط حين قصر (الصناعة) على ما يسمى (تمثيلا) فقط ؛ إذ من (الاستشهاد) ما هو (مصنوع) ؛ وكثير من النحاة كانوا يصنعون استشهاداتهم . ومن الدارسين من فرق بين (الشاهد) و (المثال) بحسب الشهرة ؛ قال :

> والغريب أن الشواهد الشعرية أخذت مكانها من كتب النحو ... رغم أن الشعر لغة ضرورة ولم تحظ الشواهد النثرية بعناية النحاة ... أما الأمثال فهي قريبة القاعدة من الشعر ، لأن المثل لايعكس لغة الاستعمال الدارج ، ولايمثل اسلوبا في الكلام المطرد ، وانما هو متن ثابت يمثل لغة خاصة انتهت إلى استعمال عام (12) .

أما القبائل التي أقر العلماء الاستشهاد بها وتلك التي منعوا الأخذ عنها ، فأول من أشار إليها أبو نصر الفارابي (ت . 398 هـ) في بداية كتابه (الالفاظ والحروف) (13) ، ونقله عنه من جاء بعده من العلماء كأبي حيان والسيوطي . يقول الفارابي :

> والذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف . ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين(14) .

وقد عد العلماء شرائط خمسا لاتلزم اللغة إلا بها ؛ هي (15)

1) ثبوت ذلك عن العرب بسند صحيح .
2) عدالة الناقلين .
3) أن يكون النقل عمن قوله حجة في أصل اللغة .
4) أن يكون الناقل قد سمع منهم حسا ، وأما بغيره فلا .
5) أن يسمع من الناقل حسا .

أما في مجال الاستشهاد بالشعر ، قسم العلماء الشعراء ثلاث طبقات ، هي (16) :

الأولى : الجاهليون .
الثانية : المخضرمون .

الثالثة : الإسلاميون (المتقدمون) .

والبغدادي صاحب الخزانة من أحسن من نبه إلى هذا الأمر ؛ قال : "فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعا . وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها. أما الرابعة ، فالمولدون ، ويقال لهم المحدثون، وهم من بعدهم - إلى زماننا - كبشار بن برد وأبي نواس ." (17) وبالنسبة للبغدادى ، فإنه لا يستشهد بشعر الطبقة الرابعة ؛ قال : «ما بعد المتقدمين لا يجوز الاستدلال بكلامهم ، فهم طبقة واحدة، ولافائدة في تقسيمهم » (18) . وبالرغم من ذلك ، فمن العلماء من استشهد بشعرالمتأخرين كالرضي والزمخشري في استشهادهما بشعر أبي تمام (19) .

ونعود بعد هذا لطرح الاشكال الذي سبق التنبيه عليه والمتعلق بتعارض العلمي والشعري في النصوص/الشواهد التي شكلت المتن الذي حظي بالتفسير. ذلك أن هذه النصوص الشعرية الشواهد منها:

- ما تغلب عليه الصنعة والتكلف ، موسوم بسمة العلمية التي تناسب علمية القاعدة ؛ فهل مثل هذا الشعر يصح الاعتماد عليه وعلى تفسيره من طرف العلماء الذين عرضوا لشرحه ؟ هو كلام منظوم، ربما يصنعه النحوي نفسه ويستشهد به دون أن ينسبه أو ينسبه إلى نفسه؛ وقد وجدنا أمثلة كثيرة على ذلك . فكيف نتعامل مع الشروح التي طالت مثل هذه الأبيات / النصوص التي تفوح منها رائحة الصنعة والعلمية ؟
- ما هو شعر حقيقي ، نابع من النفس الشاعرة ، وهذا لاخلاف فيه على أساس أن تفسيره وشرحه هو شرح وتفسير لشعر حقيقي قمين بالوصف والنظر ، وليس نظما مصنوعا الغاية منه ايضاح القاعدة النحوية أو الباب اللغوي أو البلاغي ... وللشيخ أبي العلاء المعري نظرات ثاقبة في هذه المعظلة التي تستوجب كثيرا من النظر بالنسبة للدارس الذي يتوق إلى الوقوف على صورة عامة سليمة لتفسير النص الشعرى / الشاهد كما وقف عنده الذين استشهدوا به، والذين - بعد ذلك -تولوا شرحه .

والذي من شأنه أن يخرج الدارس من مثل هذا الاشكال العويص الذي يعيد طرح قضية الابداع جملة وتفصيلا : أن الشراح الذين تولوا شرح ابيات الشواهد ، لم يقفوا فقط عند هذه الأبيات التي وقعت شاهدا في المصنفات النحوية . فوقوفهم عند الشاهد كان كثيرا

مايلزمهم على استحضار اجزاء أخرى من القصيدة يشرحونها في إطار النص الموسع . فالشاهد نص ضيق هو بمثابة (عتبة) عند الشارح يخرج بواسطتها إلى (النص الموسع) الذي هو (القصيدة) . وهنا يكون التعارض بين (العلمي) و (الشعري) قد كسر على أساس أن الشرح خرج من إطار الشاهد الضيق إلى اطار الشعر / القصيدة. وحتى حين يقف الشارح عند حدود الأبيات الشواهد المفردة ، فمن السهل جدا معرفة البيت المقطوع الذي يمكن الشك في أمر شاعريته ، والبيت الموصول بغيره داخل قصيدة لم يشر إليها الشارح ؛ وهو ضرب لايمكن الطعن في شاعريته .

ولا تطرح المعارضة الحاصلة بين (الشعري) و (العلمي) على مستوى المتن / النص المستشهد به فحسب ، بل وتطرح أيضا على مستوى الشراح الذين يتولون شرح هذه الاشعار الشواهد . وقد سبق لنا وقلنا أن هؤلاء الشراح اقسام ثلاثة :

- الشعراء الذين تولوا شرح شعرهم بأنفسهم .
- العلماء من النحاة وأهل اللغة .
- المتأدبون الذين خضبت (الادبية) بعضا من حدة شوكة (العلم / العلمية) المغروسة فيهم .

وهنا وجبت الحيطة والحذر فيما نقع عليه من هذه الشروح ؛ على أساس أن نسبة كبيرة منها موسومة بسمة العلمية التي تحصر اهتمامها في الفوائد اللغوية والنكات النحوية والمسائل التي تدخل في اطار الغريب والاعراب والتصريف . ونحن حين ننظر في شروح كل من (ابن النحاس) و (السيرافي) و (المجريطي القرطبي) وغيرهم من الذين تناولوا شواهد سيبويه بالشرح والتفسير ؛ نجد جهودهم خالصة للقواعد والعلم اكثر من خلوصها للادب والتفسير الشعري القمين بالوصف والنظر ، والمفيد في استنباط بعض معالم (المنهج) الذي ارتضاه القدماء لوصف النص الشعري .

إلا أن بعض المتأدبين ؛ كالاعلم الشنتمري والحسن القيسي، والعيني ، والسيوطي ، والبغدادي ذهبوا مذهبا بعيدا في شرح الشواهد ؛ فخلصوها من ثقل العلمية ورتابتها ودخلوا بها مجال (الادبية) التي تمنح الدارس صورة سليمة حقيقية لما كان عليه تفسير النص الشعري .

فقد خرجوا من النص الشاهد الضيق الى النص / القصيدة

الموسع وجمعوا في شروحهم بين اللغة والاعراب والعروض وجماليات البلاغة ، وتأولوا المعاني ، ونبهوا ، على الاشباه والنظائر فيها، ولم يفتهم أبدا ربط دلالات الابيات بعضها ببعض ، وتعليق بعضها على بعض. لقد فسروا النص الشعري تفسيرا يكاد يكون تاما .

أما الشعراء ، فهم أهل القول المطروح للنظر ، وتفسيرهم لاشعارهم يعج بالنكات المفيدة ، واللمحات الفريدة ، وبالرغم من أن قلة قليلة من الشعراء هم الذين شرحوا شعرهم ؛ فقد كان لنا في هذه الفئة القليلة نموذجا معتبرا لتفسير النص الشعري . ويأتي الشيخ ابوالعلاء المعري على رأس هذه الطبقة من الشراح ؛ وعمله في رسائله يحتاج الى وقفات طويلة ، يضيق مجال هذه الدراسة على تفصيلها ؛ وحسبنا من ذلك التنبيه عليها .وكان للمشارقة من الشعراء ، قبل ابي العلاء ، وقفات هي اشبه بومضات البرق عند اشعارهم ؛ وكذلك الشأن عند بعض الاندلسيين والمغاربة من الشعراء المتأخرين . إلا أن أبا العلاء يبقى النموذج الأمثل في مجال شرح الشاعر لشعره ، وحين كان المعري يقبل على هذا العمل ، فلعلمه أن ما يكتبه لايلاقي فهما ؛ وكثيرا ما كان يشرح شعره فيأتي بالغريب الذي سلم منه شعره ؛ حتى ليقال : الاكتفاء بقراءة شعر المعري ارحم من التوغل في شروحه .

وبعد هذه الوقفة ، نمر مباشرة للحديث عن مصادر تفسير النص الشعري عند القدماء.

3 - مصادر تفسير النص الشعري:

مصادر تفسير النص الشعري عند العرب القدامى اربعة أقسام ، هي :

1 - الشروح اللغوية .
2 - الشروح المتعلقة بالقرآن وعلومه .
3 - الشروح الادبية .
4 - الشروح المتعلقة بكتب الاخبار والتاريخ .

وحتى لا ندخل في الحديث عن اجزاء هذه التصنيفات ، نكتفي بحصر أجناسها التي تشكل تعددا مهما في المصدرر الذي اتصل بتفسير النص الشعري . وفيما يلي بيان بهذه الاجناس :

3-1) المصادر اللغوية :

وهي قسمان رئيسان :

أ) المصنفات اللغوية ؛ ومنها اجناس خمسة :

- كتب القواعد .
- كتب المسائل والنوادر .
- الشروح المتعلقة بالقواعد والمسائل والنواذر .
- شرح الشواهد المتعلقة بشرح كتب القواعد والمسائل .

ب) المصنفات البلاغية ، ومنها خمسة اجناس أيضا :

- كتب القواعد والمسائل .
- الشروح المتعلقة بالقواعد والمسائل .
- شرح الشواهد المتعلقة بكتب القواعد والمسائل .
- شرح الشواهد المتعلقة بشرح كتب القواعد والمسائل .
- كتب الاعجاز القرآني .

3-2) المصادر الدينية :

وهي ثلاثة أقسام رئيسية :

أ) تفاسير القرآن الكريم ؛ ومنها :

- التفاسير الخالصة في القرآن الكريم
- شروح شواهد التفاسير

ب) كتب الحديث النبوي ورجاله ، ومنه اجناس ثلاثة :

- جوامع الحديث النبوي .
- شروح جوامع الحديث النبوي .
- كتب رجال الحديث وطبقاتهم .

ج) كتب الفقه والاصول ، ومنها :

- كتب القواعد والمسائل والنوازل .
- الشروح المتعلقة بها .

3-3) المصادر الأدبية

وهي خمسة أقسام كبيرة :

أ) شروح المعلقات .

ب) الاختيارات الشعرية (الادبية) وشروحها ؛ ومنها :

- كتب الاختيارات غير المصنفة .
- كتب الحماسة .
- كتب الامالي .

ج) الدواوين الشعرية وشروحها ؛ و منها :
- صنعة الدواوين .
- شروح الدواوين :
الشروح الخاصة .
الشروح العامة .
د) القصائد المفردة وشروحها :
- الشروح المفردة
- الشروح المشتركة
- الشروح الخاصة
- الشروح العامة
هـ) كتب الادب والنقد ، ومنها ثلاثة اجناس :
- كتب الطبقات .
- كتب الموازنة (النقد التطبيقي)
- كتب النقد الموجه .

3-4) المصادر التاريخية :

وهي أربعة أقسام رئيسية :

أ) كتب الاخبار والسيرة ؛ ومنها :
- كتب الاخبار غير المنظمة .
- شروح السيرة النبوية .
ب) المصنفات التاريخية ، وهي جنسان :
- التاريخ بمفهومه العلمي
- التاريخ بمفهومه الادبي
ج) كتب الرحلات ، ومنها :
- الرحلات العلمية / الادبية
- الرحلات السفارية
- الرحلات الزيارية .
د) الفهارس وبرامج الشيوخ.

واتساع الحديث في هذه الاجناس والمصادر المنبثقة عنها يحول بيننا وبين تفصيل الكلام في اسماء المؤلفات ؛ فإذا نحن خضنا في هذا الامر واستظهرناه ، بلغنا في ذلك السواد الاعظم مما الفه القدماء . لكن الذي يمكن الاشارة اليه ان الحديث عن تفسير النص الشعري تنظيرا وتطبيقا موزع بين عدد لايحصى من أجناس التأليف ، ومصادره . وليس معنى ذلك انه من الصعب الاحاطة بهذه الثروة من التأليف بل

على العكس من ذلك ؛ فأكثرها مطبوع ، وبعض منها وقف عنده الدارسون وخصوه ببحوث قيمة جدا (20) حاول فيها أصحابها، موقفين ، رد الاعتبار لجهود القدماء وتسليط الضوء عليها والتعريف بقيمتها وفائدتها في الوقوف على منهج (عربي) خالص في تفسير النص الشعري ؛ على الأقل في مستوياته المعروفة .

ولا يفوتني وأنا بصدد الوقوف عند هذه المصادر الاشارة إلى اهتمام الشراح القدامى بكل جوانب النص : أشبعوها شرحا وتفسيرا ووصفا وتأويلا . وإذا علمنا أن ابن هشام الانصاري كلفه شرح لامية كعب بن زهير (البردة الاولى) في مدح خير البشرية رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، ما يزيد عن الالف صفحة من التأليف ، عرفنا القيمة العلمية الجمة والجدية التي وسمت أعمال هؤلاء المتأدبين الذين نذروا انفسهم لمثل هذا الامر . فقد اهتم القدماء بتفكيك وشرح مكونات النص الشعري (البيت / والنتفة / والمقطعة / والقصيدة) ؛ بما في ذلك :

1 - لغته (الجانب اللغوي) / المعجمي .
2 - اعرابه (الجانب النحوي) .
3 - بلاغته (الجانب الجمالي)
4 - تأويله وبيانه (الجانب الدلالي / المقصدي)
5 - عروضه (الجانب العروضي) / الايقاعي .
6 - بناؤه الخارجي (البناء الشعري)
7 - تشابهه مع غيره من النصوص الشعرية وغير الشعرية المتقدمة عنه (السرقات) / التناص) / (الحوارية) .

فهذه سبعة عناصر من داخل جسد القصيدة اهتم بها القدماء ووقفوا عند تفصيل الحديث عنها وقفات تنم عن وعيهم التام بالشرح الذي نذروا أنفسهم للقيام به .

وبالاضافة الى هذه العناصر السبعة ، ثمة عناصر أخرى نعدها من مكونات النص الخارجية التي لاتظهر على صفحته ؛ وقف عندها القدماء وأحاطوها بعناية عجيبة ؛ ويتعلق الامر ب (توثيق النص الشعري) الذي يشرحونه . ذلك أن شروح القدماء تتميز بجمعها بين مستويين متكاملين من مستويات الشرح والوصف :

الأول : مستوى توثيق النص الشعري .
الثاني : مستوى تفسير النص الشعري .

ويتشكل المستوى الأول الخاص بالتوثيق غالبا من ثلاث عمليات

رئيسة:

1) تحقيق نسبة النص إلى صاحبه .
2) التعريف بأخبار الشاعر والترجمة له .
3) التذكير أو التوسع في الاشارات التاريخية المتصلة بالنص وصاحبه (ظروف نظم النص) .

وليس معنى هذا أن العرب القدامى ، وهم يباشرون وصف النص الشعري وتفسيره ، جمعوا بين هذه الجوانب كلها داخل إطار واحد من الوصف والتأويل . وكونهم لم يمارسوا مثل هذا الجمع - وقد مارسه بعضهم كما سنرى - لا يعني انهم لم يكونوا مدركين لاهميته وضرورته . بل إن اكثرهم كان ينطلق من الجانب الذي يهمه أكثر ، أو الذي يلاحظ فيه بعضا من التقصير ، أو في حاجة - أكثر من غيره - إلى التفسير . وحين كان شيخ (المعرة) رحمه الله يقف عند تفسير الجانب العروضي في الشعر - وهو الامام المبرز في هذا الجانب - لم يكن يهمه أن يقف عند الامور البسيطة المعروفة ؛ بل إنه لايقف إلا عند ما لم يتحدث به قبله لسان ، ولا سطره بنان ، بل هو من مواهب الخالق المنان ؛ وكثيرا ما صرح أبو العلاء المعري بمثل هذه الامور في رسائله.

من هنا يصبح تأسيس (المنهج) في دراساتنا الأدبية عامة ، والشعرية منها بصفة خاصة ، مرتبطا أشد الارتباط بجمعنا (الشذرات) و (الملاحظات) و (الأدوات) و (المقاييس) المبثوثة هنا وهناك : بين التخصصات ، وفي خلال السنوات والعقود ، وداخل المصادر التي لا تعد ولا تحصى . هو فعلا عمل مضن ؛ لكنه من أوجب الواجبات ومسؤولية ستظل تتابعنا ما لم نشف منها التعليل ... وحتى نعطي صورة نموذجية مصغرة عن هذا الذي فعله القدامى بخصوص تفسير النص الشعري ، نقف - في عجالة - عند أحد المصادر : المصدر اللغوي : نستقرىء من خلاله صورة الشروح أو جنسا من الشروح التي مارسها العرب . وسنكتفي بالوقوف عن الهيكل العام المبين للمراحل التي يقطعها النص الشعري - حتى يصبح مفسرا - داخل هذه المصادر . ولن نخوض في النماذج الأولى السابقة المرتبطة بالقرون الثالث والخامس والسادس والسابع : بل سنمر مباشرة إلى القرون اللاحقة المتأخرة التي استفاد فيها هؤلاء من جهود المتقدمين . وقد اخترنا لذلك نماذج :

1 - ابن هشام الانصاري
2 - العيني
3 - جلال الدين السيوطي

4 - عبد القادر بن عمر البغدادي
ولكل من هؤلاء مؤلفاته التي تتعلق بموضوعنا ، وسياتي ذكرها في مقامها .

4 - نموذج من الشروح اللغوية / العلمية :

من خلال استقرائي لنماذج لا يمكن حصرها من شروح بعض المتأدبين لشعر الشواهد الذي استأنس به بعض اعلام النحو واللغة والتقصيد لهما : كسيبويه ، وأبو علي الفارسي ، وابن مالك ، وابن هشام الانصاري ، وابن الحاجب ، والرضي الاستراباذي وغيرهم ؛ بلغتي هذا الاستقراء الى الوقوف عند خطة واضحة المعالم لم يخرج عنها الشراح المتأخرون - إلا لماما - في تفسيرهم النص الشعري / الشاهد . وفيما يلي الهيكل البياني لأهم المراحل والمستويات التي وقف عندها القدامى في وصفهم النص الشعري / الشاهد ، مع الاهتمام حتى بأقل الجزئيات التي شيدت (المنهج) في الشرح :

والأمر هنا يتعلق بأربع مراحل رئيسة ، هي :
أ) إثبات نص البيت الشاهد .
ب) توثيق نص البيت الشاهد .
جـ) الزيادة في بيان الشاهد النحوي .
د) تفسير أهم جوانب نص البيت الشاهد .
وهذا بيان بالعمليات الصغرى المتعلقة بكل مرحلة ، مع العلم أن المرحلة الاولى مستقلة بنفسها ، وهي شكلية تنظيمية تكمن أساسا في اثبات نص البيت الشاهد وترقيمه بقصد الترتيب ، وأحيانا ذكر الباب الذي استشهد له بذلك البيت . ويكاد يكون هذا الصنيع مطردا عند جميع شراح الشواهد النحوية خاصة والمتعلقة باللغة بصفة عامة .

ب) توثيق نص البيت الشاهد : وتتفرع إلى أربع عمليات رئيسة :
1) تحقيق نسبة البيت الشاهد ؛ وهو نوعان :
1-1) تحقيق المتنى اللغوي للبيت الشاهد .
2-1) تحقيق نسبة البيت إلى الشاهد ؛ ومنه :
1-2-1) الأبيات المنسوبة .
2-2-1) الابيات المجهولة .

1-2-3) الأبيات المختلفة النسبة .
2) الترجمة للشاعر ؛ وهو قسمان :
2-1) الذكر القبلي لاخبار الشاعر .
2-2) الذكر البعدي لاخبار الشاعر .
3) تحديد موضع البيت داخل القصيدة ؛ وهو ثمانية أقسام :
3-1) التحديد القبلي .
3-2) التحديد البعدي .
3-3) الجمع بين التحديدين .
3-4) الإكتفاء بذكر المطلع .
3-5) الجمع بين المطلع والتحديد القبلي .
3-6) الجمع بين المطلع والتحديدين معاً .
3-7) استظهار اجزاء متفرقة من القصيدة .
3-8) استحضار القصيدة كاملة .
4) التذكير ببعض الاشارات التاريخية ، ويمكن أن نقسمها قسمتين وذلك إما بالنظر إلى موضعها وترتيبها ، وإما بالنظر إلى الكم الخبري الذي تنطوي إليه ؛ فمثال الاول :
4-1) الذكر المفصل لظروف النص .
4-2) الذكر الموجز لظروف النص .
ومثال القسم الثانية :
4-1) الذكر القبلي .
4-2) الذكر المتأخر .
4-3) الذكر في خلال الشرح أو الترجمة للشاعر .

جـ) الزيادة في بيان الشاهد النحوي :

ويتكون هذا المستوى من الشرح من أربع عمليات رئيسة هي :
1) بيان موضع الشاهد النحوي من البيت .
2) استحضار نص القاعدة المصاحب للبيت الشاهد .
3) الزيادة في توضيح الشاهد النحوي .
4) استعراض آراء العلماء في قضية الشاهد النحوي المطروحة في البيت .

د) تفسير المتن اللغوي للبيت :

ومنه جوانب عدة ، نحصي منها :
1) الجانب اللغوي (اللغة) / (لغة البيت) .
2) الجانب النحوي (الاعراب) / (إعراب البيت) .

3) الجانب البلاغي في البيت .
4) الجانب الدلالي (معنى البيت) .
5) الجانب العروضي (عروض البيت) .
6) التذكير بالابيات المتشابهة المعاني .

هذه جملة من الفوائد والملاحظات والاشارات والشذرات ، بامكاننا تجميعها واعادة ترتيبها وتركيبها بقصد استنباط ما يمكن أن ندعوه في مرحلة أولى (برنامجا) لشرح النصوص الشعرية .

وبالموازاة مع هذا الجهد ، لانمانع أبدا ؛ بل ومن الواجب على غيرنا أن يواصل شد علاقتنا مع الغرب والاستفادة من مناهجه وأدواته ومعارفه ؛ حتى اذا اكتملت الجهود جلسنا لتركيب الاحاديث والحوصلات: تلك التي تعمق تشبثنا بقرائنا واصالتنا وهويتنا وتلك التي تجعلنا دائمي الحضور ، متابعين لاجتهادات الغرب وكشوفاته في مجال (المنهج) فلا تصعب إذن ولاتشدد مادام المقصد شريفا نبيلا : أن تكون الذهنية العربية في مستوى الذهنيات الاخرى الحضارية في مجال تفسير النص . نحن إذن بازاء توزيع المسؤوليات : مسؤولية تلحمنا بماضينا ، ومسؤولية تلزمنا بالمتابعة ؛ متابعة ؛ جهود غيرنا .

وفي ما قدمته في هذا العرض دعوة للذين يقصدون المسؤولية الأولى ، وعند غيري من الدارسين دعوة للذين يقصدون المسؤولية الثانية . ويبقى أن الذي يفسد مثل هذه المقاصد والتوجهات : التنطع والتعصب الذي يخرج بنا إلى الفرقة وتضييع فضيلة (الحقيقة) حقيقة النص وسط طغيان الذات وأنانية التعصب . ونسأل الله جميعا أن يوفقنا لما فيه خيرنا جميعا ، وخير الدرس الأدبي العربي الذي كان دائما قمة . يستلهما الآخرون

الهوامش :

1) مجلة (المشكاة) السنة الثالثة ، العدد 11: 1989-1409-، مقالة للاستاذ أبو الحسن الندوي تحت عنوان : (نظرة جديدة الى التراث الادبي العربي) . ص 4-3 .
2) خطاب المنهج : عباس الجراري منشورات السفير، ط.1، (1990- هـ 1410م) ، ص 20-19 .

3) المرجع نفسه ، ص . 11 - 12 .
4) نفسه ، ص . 31 .
5) نفسه ، ص . 31 .
6) مجلة (المنهل) السعودية ، المجلد : 53 ، العدد : 495 ، السنة : (1412 هـ / 1992 م) ، مقالة بعنوان : (موقف الفكر الاسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة) ، ص . 23 .
7) مجلة (المشكاة)، السنة الرابعة، العدد : 14 / 1411- 1991م، مقالة بعنوان: (ثقافتنا المعاصرة بين الكائن والممكن)، ص.7.
8) شرح بانت سعاد ، 1 / 45 .
9) ينظر في هذا الاطار بحث الأستاذ : محمد المالكي "جهود الطبري في الدراسة الأدبية للشواهد الشعرية من خلال تفسيره : جامع البيان عن تأويل آي القرآن" ، وهو عبارة عن رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها ، نوقشت بكلية الآداب بفاس بتاريخ : 15 / يونيو / 1988 م .
10) إشارة ذكية من استاذنا محمد الدناي في خلال حديثه عن دالية ابي علي الحسن اليوسي ، في اطار الندوة الخاصة ب (الحركة العلمية على عهد الدولة العلوية) ؛ وجدة / كلية الآداب، أيام : 9 - 10- 11 / دجنبر / 1993 م .
11) الرواية والاستشهاد باللغة : محمد عيد ، ص . 101 - 102 .
12) الشواهد النحوية : أحمد ماهر البقري ، ص . 37 ؛ نقل هذا النص عن كتاب : القياس في النحو العربي ، ص . 83 .
13) هذا الكتاب مفقود ، ولذلك اعتمدنا - كما اعتمد محمد عيد الذي بنهنا إلى ذلك - على النقل من كتاب السيوطي الذي نقل كلام الفارابي في كتابين من مؤلفاته : الاقتراح ، والمزهر .
14) الاقتراح : السيوطي ، ص . 19 ، وينظر : المزهر : 1 / 211.
15) الشواهد النحوية : أحمد ماهر البقري ، ص .82 .
16) خزانة الأدب : البغدادي ، 1 / 6 .
17) المصدر نفسه ، 1 / 6 .
18) نفسه ، 1 / 8 .
19) نفسه ، 1 / 6 - 7 .
20) بدأت جهود الدارسين تتجه في هذا المسلك ؛ خاصة البحوث الأكاديمية التي تقدم عبارة عن رسائل وأطروحات جامعية ؛ وقفنا عند بعض من ذلك عن استاذنا علي حمودان في تحقيقه شرح الا علم الشنتمري لابيات سيبويه . بالإضافة إلى ماوقفنا عليه عند بعض الدارسين الذين اهتموا بشعر الشواهد في تفاسير القرآن الكريم ؛

كتفسير الطبري و تفسير البحر المحيط لابن حيان ، وتفسير الإمام السهيلي . ومن الدارسين من اهتم بالشاهد الشعري في كتب البلاغة والنقد . ونحن نحضر في هذا الإطار اطروحة لنيل دكتوراة الدولة في الآداب في موضوع : (تفسير النص الشعري عند العلماء المسلمين القدامى) ؛ وهي أطروحة أشرفت على نهايتها .

المصادر والمراجع :

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبد القادر بن عمر البغدادي (ت . 1093 هـ) ، تح . عبد السلام محمد هارون ، ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط . 3 / 1409 هـ - 1989 م.
- خطاب المنهج : عباس الجراري ، منشورات السفير ، ط . الأولى (1410 هـ / 1990 م) .
- الرواية والاستشهاد باللغة محمد عيد ، ط . عالم الكتب . القاهرة ، ط . 1976 م .
- الشواهد النحوية : أحمد ماهر البقري ، ط . دار المعارف ، مصر ، (1401 هـ / 1981 م) .

أثر تكريم الشيوخ والعلماء في الدرس الأدبي بالمغرب

علال معگـول
كلية الاداب – مكناس

ملخص :
تتناول هذه المداخلة محورين اثنين ، كلاهما يوكد الهوية ، ويحقق التواصل العلمي والثقافي بين الأجيال القريبة والبعيدة ، زمانا ومكانا ، لإثراء البحث الادبي واغنائه ، وفسح المجال أمامه ليقوم بالربط المتين بين افراد الأمة الواحدة على الخصوص ، وبينهم وبين غيرهم على وجه العموم ، وليدل من جهة اخرى علي فترات التوهج ، او الفتور في العطاء العلمي والأدبي ، وما يرتبط بذلك من مد وجزر في الحياة الاجتماعية والثقافية . كما يتضح من خلال المحورين الآتيين :
1 – كتب الفهارس والرحلات .
2 – مدح الشيوخ والعلماء بعد ختم الكتب المقررة في التدريس.

وقبل تفصيل الكلام في الموضوع ، وجريا على عادة طلاب العلم مع شيوخهم واساتذتهم في القديم ، فاني افتح قوسا اعبر فيه عن شعوري بالاعتزاز وانا أساهم بعرض متواضع في ندوة علمية تتناول من بين محاورها تكريم علم من اعلام الادب والفكر في العصر الحديث بالمغرب، اعني به الدكتور محمد الكتاني ، وهو من جملة اساتذتي الذين اتقدم بالشكر الجزيل اليهم ، معترفا بفضلهم علي ، وداعيا الله عز وجل بأن يجازيهم احسن الجزاء .. وفي مقدمتهم : الاستاذ عبد القادر زمامة، والدكتور محمد السرغيني ، والاستاذ ابراهيم السولامي ، والدكتور

عبد السلام الهراس ، والدكتور حسن المنيعي ، والدكتور عبد الوهاب التازي، والدكتور عباس الجراري ، والدكتور محمد بن شريفة ، والدكتور امجد الطرابلسي ، والدكتور عبد الله الطيب ، والدكتور فخر الدين قباوة ، والدكتور الشاعر احمد المجاطي ، والاستاذ احمد اليابوري ... دون ان انسى من قضى نحبه منهم ، والتحق بالرفيق الأعلى ، مثل الاستاذ محمد بن تاويت التطواني ، والدكتور نجيب محمد البهبيتي ، والاستاذ الشاعر محمد الخمار الكنوني رحمةالله عليهم واسكنهم فسيح جناته ، ومتع الباقي منهم بالصحة والعافية ليستمر عطاؤهم العلمي والأدبي في تألقه وازدهاره ، درسا وتأطيرا وتوجيها ...

المحور الاول : كتب الفهارس والرحلات :

تعتبر كتب الفهارس (1) والرحلات من اهم المصادر التي تؤرخ للنشاط العلمي والأدبي ، تدريسا وتأليفا ، من خلال تتبع مؤلفيها لنشاط شيوخ العلم ، ورفع اسانيدهم الي من اخذوا عنهم من العلماء، داخل المغرب وخارجه ، تكريما لهولاء واولئك ، بإظهار مكانتهم العلمية والأدبية ، ورصد تأثرهم بمن قبلهم ، وما انتجوه من مؤلفات، استجابة لما تمليه الظروف من رغبات ، تتطلب شرحا لغامض ، او تتميما لناقص، او تعليقا على ما يستوجب المخالفة في الرأي ، بناء على اجتهاد خاص...

والاهتمام بالشيخ وبشيوخه ، وتلاميذه ، واسانيده ، ومروياته ... يرجع بالأساس الى اهميته ، ودوره في الحياة العلمية ، التي لا يسمو الإنسان الا من خلالها ، ولا يحظى بالمنزلة الرفيعة ، والمكانة السامية في المجتمع ، إلا مما نسجته العلاقة الروحية بينه وبين شيوخ العلم الذين هم ((آباؤه في الدين ، ووصلة بينه وبين رب العالمين)) (2) ، كما يقول الإمام ابوزكرياء يحي بن شرف النووي (3) .

فأي شكر يستطيع الانسان تقديمه لهؤلاء ؟ وهل يمكن ان يوفيهم حقهم إن حاول ذلك ؟ خصوصا اذا علمنا كما يقول ابو علي اليوسي : ((أن مسألة واحدة من العلم اشرف من الدنيا وما فيها)) (4) فكيف بمسائل العلم الكثيرة ؟ وكيف اذا اصبح الطالب علما بارزا لا تستغني عنه مجالس الافتاء والدرس والقضاء ... تشد اليه الرحال للتزود من معينه ، والاسترشاد برأيه في امور الدين والدنيا معا ؟!

ولهذه الحيثيات كلها كانت كتب الفهارس والرحلات العلمية بعضا من هذا الشكر ، تخليدالهؤلاء الشيوخ بنشر آثارهم العلمية والفكرية، بين معاصريهم في هذه الجهة وتلك ، وبين الأجيال اللاحقة ، تعميما للفائدة ، ومساهمة في اثراء حقل المعرفة بتراجم واخبار ، اضافت الي كتب التراجم والطبقات مادة خصبة عن حياة العلماء ونشاطهم العلمي والأدبي .

واذا كانت سلسلة الأعلام المشار اليها في ترجمة بعض الشيوخ، تظهر – الي جانب نية التبرك بها – مستوى من اتصل بها ، واخذ عنها سواء في المجال العلمي او الديني او الصوفي او الأدبي ، اوفي هذه المجالات كلها ، فإن التوسع فيها ، وفي اخبارها ، وما يجر اليه الكلام من استطرادات يجعل الفهرسة غنية بما تحتاجه الدراسة المتنوعة لتلبية رغبات المؤرخ والأديب والصوفي والفقيه ، بالاضافة الى ما يمكن ان تقدمه من احوال وظروف خاصة بهذه البيئة او تلك ، تتناول الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة فيها ، بشكل او بآخر ، وبما تعكسه الأسباب والنتائج من تأثر او تأثير ، بحسب الملاحظة التي يثيرها النص ، او يستخلعها الدارس ، وبحسب التفصيل في تناولها، او الإشارة العابرة اليها ...

وفضلا عن هذا وذاك ، فان كتب الفهارس تسجل رغبة العصر ومستواه من خلال رواج كتب معينة ، وتأليف اخرى ، ليستمر الحوار بين الأجيال والثقافات ، حسب المد او الجزر لحضارة الأمة ، وتفاعلها مع ما يضيفه الزمان والمكان من انجاز ، يدل على خصوصية اصحابه وتميزهم ، من قوة وازدهار ، او ضعف وانحطاط بناء على سياق تاريخي معين .

وسأقتصر في هذا العرض علي فهرسة عالم مكناسة الزيتون وأديبها وقاضيها ابي القاسم (5) ابن قاضيها كذلك وعالمها ابي عثمان(6) سعيد العميري ، لما اشتملت عليه من نصوص أدبية ، شعرية ونثرية ، ومسائل علمية ، حسبما يقتضيه سياق الحديث اثناء استعراضه للمرويات والإجازات التي اخذها عن شيوخه ، واخذها هؤلاء عن شيوخهم بالسند المتصل احيانا ..

ومن هؤلاء الشيوخ الذين نوهت الفهرسة بهم وبآثارهم، وبدورهم في النشاط العلمي ، في هذه المدينة الاسماعيلية، وفي

المغرب كله على العموم : والد المؤلف ، واحمد بن احمد الشدادي (ت:1146 ه / 1733 م) ، وابو العباس احمد بن يعقوب الولالي (ت:1128 ه / 1715 م) ، والحسن بن رحال المعداني (ت : 1140 هـ / 1727 م) ومحمد بن عبد الرحمن بن احمد بصري (ت : 1124 هـ / 1712 م) ، ومحمد بن احمد المسناوي (ت : 1136 هـ / 1723 م)، وعبد القادر بن العربي بن شقرون المكناسي (7) (ت : 1140 هـ 1727م) وغيرهم ، دون أن ننسى الحديث عن شيوخ شيوخه ، ومنهم احمد بن ابراهيم العطار المراكشي (8) (ت : 1115 هـ/ 1693 م)، الذي ((كان انحى من ابن مالك)) كما جاء في قول المؤلف عنه . وفي انتظار ابراز الدراسات اللغوية والنحوية بالمغرب لمعالم هذه الشخصية ، ومناحي التفوق فيها ، نكتفي بشهادة من درس عليه واخذ عنه المادة النحوية ، وعلم القراءات ، وعلم الطب ، منهم الأديب محمد بن قاسم ابن زاكور (10) (ت: 1120 هـ / 1708 م) الذي طلب من الشيخ المذكور ، اقراء طلبة فاس ارجوزة (11) الرئيس ابي علي الحسين بن سينا (ت: 428 هـ/ 1063 م ، التي كان يشتغل بتدريسها في مراكش فقال (12) (كامل) .

ماذا على العطار لو اهدى لنا نفحاته من جونة[13] الأرجوزه
وا باحنا أسرارها تلك التي هي لم تزل من دوننا محروزه

وقد عبر عن محتويات هذه الفهرسة واهميتها محمد المكي(14) ابن موسى الناصري (ت: بعد 1180 هـ / بعد 1766 م) ، عند طلبه الاجازة من مؤلفها ، فقال : ((ولما وقفت على الفهرسة التي جمعها والفها الشيخ العالم ، الجامع بين اللسان والقلم ، الصدر البليغ الأوج الأوحد ، قاضي قضاة العصر ، ابي القاسم بن الامام ابي عثمان سعيد العميري ، قدس الله روحه ، وتأملت مااودعه فيها من النكت والفوائد والصلات ... وجدتها بحرا لا ساحل له ، ودرا لا يغوص عليه ، بل لا ينظمه الا من اهله الله له ، انشدت فيها ابياتا علي قدري ، وادخلت خرزي في سمطها الدري ، رغبة للدخول في سلكه ، والتعلق باشطان(15) فلكه ... (بسيط) .

لله فهرسة تسمو بما جمعت من العلوم على كل الفهاريس
ماشئت من أدب غض وفقه ومن نظم زرى بابن حجروابن حمديس (16)
ازرت جواهرها بما تضمنه قلائد الفتح من شعر وتجنيس

ثم يقول :

ود البلوطي(17)لويعطى بلاغته وابن الخطيب، كما ود ابن طاووس(18)

وتمضي القصيدة كلها (19) في التورية بالاعلام والكتب ، وبطرق العلماء في الاجازة ، والاشادة بهم ، وبأسانيدهم التي تؤكد حرصهم على ربط الاتصال بمن سبقهم من جهابذة العلم ، حفاظاً على ما عدنهم من روايات ومسموعات واخبار ، وآراء في المسائل العلمية .

وتكشف لنا هذه الفهرسة من جهة اخرى عن كثير من النصوص الشعرية والنشرية للمؤلف وغيره ، قد لا نملك عن اصولها واخبار اصحابها الا ما ورد ذكره فيها او في غيرها ، مما يظهر قيمتها في اثراء الدرس الأدبي واغنائه بما تعبر عنه من مكونات نفسية واجتماعية ، وشعورية وفكرية ، تتجاوز اضطراب الذات او هدوءها ، الي ما يحيط بها من علاقات ، وظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية ، نسجت نسيجها في افكار تلك النصوص وصورها وايحاءاتها ، وما تومىء اليه من إشارات مباشرة ، وغير مباشرة ، كما هو واضح في النكبة التي حلت به وبأهله بعد عزله عن خطة القضاء سنة (1149 هـ / 1736 م)، واستغلال اولاد بوعنان (20) لفساد الأوضاع اثر وفاة السلطان اسماعيل، وكان ابو القاسم العميري قد عزلهم ، وابعد غيرهم عن القضاء ، وكتابة الرسوم العدلية ، لعدم نزاهتهم واستقامتهم ، فافتوا بقتله ، وقتل كل من كان عونا له ، فغادر مكناسة الى شمال المغرب ملفوفا بالحسرة والأسى ، على تغيير الأحوال والديار ، دون ان يترك الناس في غفلة عن اولاد ابي عنان ، وعن مناكرهم ، وان كان الكل في شغل شاغل ، فكتب رسالة في فضحهم والتنديد بهم ، منها قوله :

... اما بعد فان من المتعين علي ، والأمر البين لدي، ان اصدح بالحق في نازلة حدثت لهذا العهد ، تولى كبرها دون سائر الناس ، من ولي الأحكام الشرعية بالحضرتين : مكناسة الزيتون وفاس ، وتظاهر عليها بسقط من العدول ، كان الشرع اوجب عزلهم ، فقمت فيهم بالواجب ايام ولايتي ، فنصبوا ، لجهارتي بالسوء ، جدهم وهزلهم ، فتعين اذذاك معهم الكلام ... اما علمتم يا اولاد بوعنان انتم قضاة على المسلمين ، وان الله جعل في كل شيء رخصة ، الا في ذكره ، والعدل في السيرة ، قال تعالى : «وأن احكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع اهواءهم » (21) ... فانى لكم بهذا الاجتراء على الله ، والافتراء

عليه ، تبيحون في شريعته المحمدية اراقة دماء المساكين ، بترهات سولتها لكم انفسكم ، لا دليل عليها ، وهم اناس معصومون بلا اله الا الله التي بها عصم الله دماء المسلمين في اعراضهم واموالهم ... (22)

فالنص بالغ الدلالة على فساد الاوضاع التي ترتضيها النفوس الفاسدة السباقة الى تأجيج نيران الفتن كسبا لمنفعة او منزلة لا تستحقها ، ويوضح من جهة اخرى ان من يأبى الجور والظلم والبغي .. لا يتلون مع الأهواء ، وتقلبات الأيام ، ولا يستبدل السيادة بالهوان ، والسعادة بالشقاء الدنيوي والأخروي ، ولا يبغى عن الحق محيدا ، احب من احب ، وكره من كره ، تقديرا منه للأمانة التي استؤمن عليها ، حماية للرسالة السماوية وصيانة لها من ترامي اصحاب الأهواء عليها لاستغلالها حسب منافعهم وشهواتهم .

ولم يكتف ابو القاسم العميري بالنثر ، في تعبيره عن فساد الأوضاع واستغلال النفوس الشريرة لها ، بتدليس الأحكام على ولاة الأمر ، بل بكى وبكى بالشعر على رحيله عن مكناسة التي شهدت فيها اسرته امجادها ومكانتها ، وتحملت فيها وفي غيرها الأمور الجسام بأمانة واخلاص لله ولرسوله ، وللبلاد والعباد .. وبين عشية وضحاها يهوي ذلك الصرح ، ويتشتت الأهل والأصحاب ، ويتحول النادي الى يباب (23) واطلال ، يثير الآلام والأحزان ، ويصبح صورة في الذاكرة والخيال ، بعد الحقيقة والمشاهدة والعيان !! وعنه يقول (24) (طويل) .

دعيني فوصل الغيد ليس من العدل
ولا تعذلي فالاذن صمى عن العـــذل
وكفف بمن ولى عن الوطن الـــذي
توالت به الآمال في الزمـن المحـــل
وظني به ، ان عف خيرا، وان يكـن
جفاك ، فان المرء عنك لفي شغـــل
بمكناسة الزيتون خلف أهلـــه ،
وحل بقرب الريف فردا بلا أهـــل

ويمضي قائلا :
وتصدية السيف المهند لم تـــزل
وحقك ، ترجو ان تعاهد بالصقل

والا فلو خيرت ما اخترت غيرهـا
قرارا ، وقد قرت بها العين للأجل
كأني لم ارشف لماها ، ولم أكـــن
جنيت جناها من لدن طلعت نخلي
أمكناسة الزيتون يا خير بلـــدة
حدائقها تزهو على الحدق النجـل(25)
وما القول فيمن حال حال وصالـه
فـــلا جعل الله الموانـع فـي حـل

ويستمر الشاعر الأديب ابو القاسم العميري في تصوير مشاعره على فراق مكناسة ، وتخيل معاهده وملاعبه بها ، كلما هب نسيم او لمع برق من جهتها ، او ورد ركب من ناحيتها ، او خبر ممن بقي فيها من اهل وصحب يواجه الفتن المتأججة ، والخراب الذي تتعرض له المدينة برمتها ، باعتبارها قاعدة الدولة حينئذ تتجه اليها انظار المؤيد ين والمخالفين لهذا الأمير او ذاك ، نظرا لما كان يقوم به العبيد من تولية وعزل لاهل الحل والعقد ، لا بحسب المؤهلات والكفاءات ، او الرغبة في تحقيق المصلحة العامة ، بل للانتقام من جهة ، وضمان المكاسب والامتيازات (26) من جهة اخرى ..

فكيف لا يتفجع ابو القاسم العميري على مآل مكناسة عموما ، ومآل اهله بها خصوصا ، بعد هذا الوضع الذي فضحت فيه ((حرايم اهلها كبيرة وصغيرة في حالة شنعاء)) (27) وكيف لا يعبر عن مشاعره الحزينة التي هي في الآن نفسه تعبير من مسته تلك الأحداث في اهله وذويه ومسكنه ، وغربته ، كما غربت شاعرنا الذي لم يعد يملك غير الحسرة والأسى ، واطالة التأمل في ما فات ، وفي ما هو آت :
إذا لاح نحو الغرب برق هوت بـــه
دواعي الجوى بعد العلو إلى السفل
وإن هبت الأرواح رق وراق مـــن
يسهل من امريه ما ليس بالسـهل
وان غنت الورقاء بالأيك روعـــت
فؤادا دعاه الشوق بالجد والهـــزل
هل الحزن الا يوم فارقت صبيـــة
فلله ما قد حـل بالفـرع والأصـــل

ولم يملك الا ان يتوجه الى الله عزوجل يخاطبه متضرعا ومتوسلا ،

وشاكيا له ما آل اليه الوضع تعميما وتخصيصا :

ولله اشكو اليوم ما حل بيننـــا
ولله ارجـو ما تعـودت مـن فضـل
فيا رب فرج كربتي ، واكفنـــي أذى
عبيدك ، واجمع ما تشتت من شمـل

ويعتبر انحياز ابي القاسم العميري واخوته ضمن اعيان مكناسة وعلمائها الى المستضيء (22) بن السلطان اسماعيل ، الذي كان في خلاف مع اخيه عبد الله ، من اقوى العوامل في هذه المحنة ، التي تمت فيها معاقبة المؤيدين لهذا الطرف او ذاك ، مع ما صاحب ذلك من آلام واحزان ، ذاق مرارتها الجميع . وفي هذا السياق - كما يقول محمد بن الطيب القادري:

قبض على الفقيه القاضي السيد بلقاسم العميري ، وعلى الفقيه القاضي السيد احمد بن علي الشدادي ، وعلى الفقيه السيد بلعباس ابن العلامة السيد الحسن بن رحال المعداني ، وعلى الطالب احمد بن عبد الله المليتي ، وامربهم في المشور ، فنزعت عمائمهم ، ولطموا على وجوههم ... وعزل جميع خطباء مكناسة الزيتون ، واستبدل بهم غيرهم ..(30)

((واعطيت دار القاضي العميري لأحد العبيد)) (31) ، وقيل لآخرين منهم : ((من اراد منكم دارا بمكناسة فليأخذها)) (32) .

وفي خضم هذه الأحداث يقتل وزير المستضيء ابو الحسن علي العميري الذي كانت تتزين به مجالس العلم والأدب ، فرثاه اخوه ابو القاسم ، ورثى نفسه واهله احياء وامواتا ، بقصيدة كتبت كلماتها بدماء الاكباد الجريحة ، وشحنت بحرارة الوجدان ، وبجزع النفس، وخوفها ، واضطرابها على المصير المفجع الذي يلاقيه افراد الأسرة تباعا، لأنه اتى بعد وفاة اخ آخر له ، وهو احمد العميري بنحو شهر فقط ، فتزاحمت الآلام في صدر الشاعر، ووقعت الجراح على الجراح، وازدادت المأساة عمقا .. ولم نستطع ان ندرك منها الا القليل مما جاء في قوله نثرا وشعرا :

وكانت وفاته رحمه الله بعد وفاة اخي سيدي علي بنحو الشهر(33) ، وفراق الأحباب من اعظم مصايب الدهر ، فعظم بفقدهما المصاب ، وتجرع سائر ذويهما من ذلك الحادث العلقم والصاب (34) ، الا ان المصيبة كانت بسيدي علي اشد ، فانه

رحمه الله ، بلغ من الامتحان الأشد ، انقطع لبعض الملوك ، وانتهج لخدمته سبيلها المسلوك ، وذلك بعد ان كان يعد في عمار مساجد الله بتدريس العلم ، وممن حلاه سبحانه بزينة القبول فيه ، ورونق الجمع بين بهجة الحفظ وجودة الفهم ، ثم جرى عليه قدرادى الي قتله ، وافضى الى حطه عن مراتب مثله ... ولذلك رثيته بقولي ... (كامل)

ثارت لفقدك يا أبا الحسن الرضى
زفرات مصدور لها آثار
أسفا عليك ، لما بدا ، وتلهفا
لورود أمر ماله اصدار ...))

وتمضي القصيدة في تعداد مناقب ابي الحسن علي العميري وهي مناقب علمية وادبية تدل على المكانة التي كان يحتلها بين العلماء والأدباء ، وغيرهم ممن لا تتزين المجالس الا بهم ، ولا يلتفت اليها الا من خلال حضورهم ، وتزداد وحشة كلما غاب عنها امثالهم .. انه رثاء للشخص الهالك ، ورثاء في الآن نفسه للمحافل العلمية المعطلة ..

ألقيت نفسك في مهاو(35)قد هوت
بالعلم مذرخصت له أسعار
ضيعت عمرك في الفضول ، الم تكن
تزهو ببهجة علمك الأمصار
ما كان خصمك حين كنت بمجلس
ترتاده الاسماع والابصار
وتري محاسنك التي لم تحتمل
احصاءها الأفواه والأسطار
ولطالما قطعتك عنا غيبة
في غير شيء كانت الأسفار
فاذا تراءتك العلوم استرجعت
وتراجعت من صفوها الأكدار

وبعد رثائه لمجالس العلم ينتقل الى ما هو شخصي في اخيه ، فيصور حالته في سجنه قبيل قتله ، يعاني من محنه واهواله ما يعاني..

لله ما حملته في شقة
شقت لها الاطواق والأزرار

راعيت ذمة من خدمت ولم يكن
يرعى الذي يختارما يختـــــار
نظرت لك الآمال شزرا منهـــم
وعداك منها الجهر والأســـرار
قصرت لديهم كـــل شفاعـــة
وتباعـــد التقريب والايثـــار
ولكم شفعت وما انتفعت بشافع
ما هكذا تتكافـــأ الأحـــــرار

ولم ير في قتله عارا وذلا ، بل عزة ومكانة ، لا يخفيها قتل النفس، وتغييب الجسد ، مهما حاول المتربصون به اخفاء قدره ، وطمس معالمه واخباره ، التي ظنوا بفعلهم هذا انهم حققوا شيئا منها، فاظهروا سرورهم وفرحهم شماتة فيه !! فنبههم ابو القاسم العميري الى ان الدهر لا يومن جانبه ، ولا يطمئن الى سلامته الا من قصر نظره، وعميت بصيرته ، مشيرا في ختام القصيدة الى ان ما تحقق انما هو من مشيئة الله وقدرته التي هي الملاذ والملجأ في السراء والضراد ...

إن يقتلوك ، فإن قتلك لم يكن عارا عليك ، ورب قتل عار
ان يقتلوك أخي ، فتلك شهادة شهدت بصادق عهدها الآثار

ثم يقول :

ولرب مسرور بمصرعه الـذي من قبله حكمت به الأقدار
ان يشتفي أنى له بالامن مـــن تلك المصارع ، ام له انظار !!
والله يفعل ما يشاء في ملكـه بالحق وهو الفاعل المختـار
وهو المؤمل ان يصير أخي الى جنات عدن تحتها الانهـار

واذا كان الشاعر قد تغلب عليه العقل والايمان بالمقدور، في تشكيل الفاظ هذه القصيدة وصورها وافكارها ، فانه في ابيات اخرى، قالها في الموضوع ذاته ، ابى الا ان يرينا وقع الحادث في اعماق نفسه، بعد ان فقد الصبر والسلوان ، فاسعفته عيناه بالتعبير عما لا تستطيع الالفاظ الافصاح عنه ، فيتدفق دمعا ، ويتصعد زفرات ، وتنهدات تحرق من سمعها او وقعت عليه (36) (طويل)

بكى مالكا قبلي اخوه متمتمـــم(37)
بعين ، وعين دمعها كان احجمـا
فكيف ترى فيمن بكلتيهما بكى
اخا ، ما كفاه فيه قول تقدمـــا

ولم يخفف من هذه الآلام والأحزان الا مجالسة الأدباء والشعراء ومسامراتهم حول موائد الشعر والأدب ، ورواية النوادر ، والاخبار ، والملح والطرائف .. ترويحا عن النفس ، وابعادا لها ، ولو الي حين ، عن المعاناة الكثيرة ، خصوصا في فترات الاضطرابات والفتن ..

وتعتبر المساجلات في الشعر والمطارحات في النثر من اهم المناسبات لاختبار القرائح ، وزند الهمم ، واستحضار البديهة ، وطول النفس في توليد المعاني والصور والأخيلة ، وتلوينها بما تقتضيه المناسبة من احاسيس وانفعالات ، واشارات بالغة الأهمية، في الدلالة على تقلبات الاحوال ، ومعاناة من تقع عليه سهامها ، من خاص وعام، وقريب وبعيد ، وكبير وصغير ...

ويتضح هذا مما قاله عن احد تلامذة والده ، وهو قاضي غمارة الفقيه احمد بن محمد المدعو ابو سلام الحميدي ، الذي آواه ، وواساه في محنته:

... فسر بقدومنا عليه ، واستحمد لنا من كان اشار بنا اليه، ورأينا منه اكراما جميلا ، واحسانا جزيلا ، واذا هو مع ذلك ممتع المجالسة ، عذب الفكاهة ليس يمل طولها من جالسه ، الى ادب يسلي المحزون ، وينسي انس من كان سمر بين الصفا والحجون (38) ، ويسبي القلوب برشاقته ، ويري الناظر فيه غاية بلاغته ... وكان لنا معه مساجلات ومراسلات ، كمل بها احسانه ، وطال بها في جانب الكمالات يده ولسانه ، منها ما كان ودعنا به حين انصرف عنا ، وعلق بما الفه من الانس منا، فقال : (وافر) .

أود عكم وفي قلبـــي حنين
ولي منـــه على قرب انين
فكيف اذا تطاول في زمان
ومرت من فراقكم سنـــون
اودعكم وقد اودعت قلبـــي
لديكم ايها العقد الثمـــين
....)) (39)

فالنص يتضمن ملاحظات نقدية لا تخلو من اهمية ، دون ان تكون من صنع المجاملة ، لما بين القاضيين من علاقة مودة واخوة نسجتها مجالس الدرس والذكريات المشتركة ، التي شهدت عليها معالم مكناسة

آنذاك ، وكل منهما طالب وعالم واديب ، يساهم في النشاط العلمي والأدبي مساهمته في السياسة العامة ، كما اشارت اليها الأبيات السابقة ، والعبارات الواردة في النص النثري الذي تقدمها ، من مثل قوله : ((... الي ادب يسلي المحزون ، ويري الناظر فيه غاية بلاغته)) ، ويتأكد هذا ايضا من إجابة ابي القاسم العميري عن الابيات السابقة مع المحافظة على وزنها وقافيتها (40) :

لك المجد الموثل مستبين وعن اخلاقك الحسنى مبين
وبرك ما يزال به لساني شكورا ، والحديث به شجون
بنظم لو يباع لكان حقا لأذني درە ثمن ثمين
براعته تباهي زهر روض يراعته عريكتها تلين

ويختتم القصيدة قائلا :

ودونك من صنيع الفكر نظم تقرلحسن موقعه عيون

ولم يتردد القاضي الحميدي في الاجابة عن هذه القصيدة التي اثارت مكامن قريحته الابداعية ، فانطلق محلقا في اجواء الشعر ، دونما تكلف او تمحل ، تحدوه سجيته وثقافته الشعرية والأدبية ، وتمكنه من ناصية اللغة الي مزاحمة كبار الشعراء العباسيين والأندلسيين ، في مجالس الشعر والانشاد ، تتسابق اليه المعاني والألفاظ تسابق النحل لامتصاص رحيق الأزهار ، ورشف قطرات الندى من اكمامها ...(طويل)

انظمك في جيد الطروس ام الدر ام النيرات الزاهرات ام السحر
وفكرك املى ما نراه مسطرا ام الجدول الزخار فاض ام البحر
كذاك يصاغ القول للشعر حلية والا ، فلا نظم يقال ولا نثر

ويمضي قائلا في وصف شعر صاحبه :

يضوع شذاه للأنوف كأنه رياض من الازهار نم بها نشر
وهبك كتمت أوسكت نزاهة أيخفى ذكر المسك والعنبر الشحر(41)

وهكذا تستدعي كل قصيدة نظيرتها وجوابها ، في بحرها وقافيتها، وكل من الأديبين يمتحن ذاكرته ، ويتغلغل في اعماق تجربته، ليخاطب بمحتوياتها صاحبه ، مكنيا تارة ، ومصرحا تارة اخرى بما بينهما من علاقات ، وما يؤثر فيهما من ذكريات ، وجراح البعد والنوى، وتقلبات الاحداث ، كما يتضح من اجابة ابي القاسم العميري عن القصيدة السابقة (42)

تقاصر في الاحسان عن نظمك الدر ومن دون ترصيع به الانجم الزهر
تعرف عراف القريض بعرفه شذى طاب الا ان عنبره شحر

ويختم القصيدة قائلا :

وان قصرت بي عن جوابك همة فمنك – وقيت الهم – يلتمس العذر
فكيف ولي قلب تقسم فانثنى بمكناسة شطـــر ، وعندكـم شطـــر

ويمكن متابعة المساجلات الشعرية بينه وبين صاحب آخر طارت شهرته الأدبية في الآفاق ، انه الشيخ الفقيه الأديب ابو مدين (43) محمد بن احمد الفاسي (ت: 1181 هـ /1767م) خلال مأدبة اقامها في بستان كثير الاشجار والظلال ، والثمار والمياه ، استدعى لها الفقهاء والأدباء من طبقته احتفاء بأبي القاسم العميري ، فتناغمت موسيقى الشعر مع الحان الاطيار ، وتشكلت من طبيعة البستان ، ومن اللغة الشعرية لوحة اضفى عليها البيان من الالوان والظلال والصور ... ما جعل حديقة الشعر حية ومستمرة بأنغامها بعد زوال البستان الذي كان مسرحا لهذه المساجلات ، ومما جاء في قول ابي مدين الفاسي (44) (متقارب)

تغنت بمدح أبي القاسم حمامة دوح الربى الناعم
وقد رقصت بيننا خصة على زهر بستانها الباسم

وضمن سياق الحديث عن شيخه محمد بن احمد المسناوي اشار الي ابيات من شعره في مدينة مكناسة التي يقول فيها (45) (كامل)

كذب الذين ترفعت في زعمهم فاس على مكناسة الزيتون
وأصاب من جعلت له مكناسة دار الامارة والعلى والدين
بابي العماير عمرت ارجاؤها وترنمت اطيارها في الحين

ومما جاء في تذييل ابي القاسم العميري على هذه الابيات قوله :

نشرت عليها[46] محاسنا ورزيغة[47] بالروح والريحان والنسرين

وتتبع هذه الفهرسة وغيرها من الفهارس يطلعنا على كثير من النصوص الأدبية ، مغربية ومشرقية ، لم تكن هي المقصودة بالذات ، في هذا اللون من التأليف بل اتت عرضا ضمن سياق الحديث عن مجالس العلم ومشايخه ، الذين هم الأساس والغاية منه ، تخليدا لهم ولآثارهم ، وتنويها بقدرهم ، وبدورهم في الحياة الاجتماعية والدينية والفكرية والعلمية .

المحور الثاني : الاحتفالات الأدبية بعد ختم الكتب المقررة في التدريس :

ويعتبر مدح الشيوخ والعلماء بعد ختم الكتب المقررة مجلسا آخر للدرس الأدبي ومناسبة للتغني بالشعر ، وبالخصال الحميدة التي يتحلى بها هؤلاء العلماء ، دون مبالغة كما هو واضح في قصائد المدح في غيرهم ، للفارق الكبير بين دافع التكسب والمجاملة والرياء ، وبين دافع المحبة الصادقة ، والتعلق المتين ، والروابط الجياشة بين الشيوخ وتلامذتهم ، الذين هم نتاجهم وخلفهم في تحمل اعباء نشر العلم، تدريسا ، وتأليفا ، وخطابة ، وافتاء ، وقضاء ... لهذا كان مدحهم يتجاوز اظهار المكانة الدينية والعلمية لهم ، الى الاعتراف بالحق لأهله، والثناء عليهم ، والتعبير عما يشعرون به من احساس وانفعال، يحاولون شحنه في الكلمة الدالة ، والعبارة الموحية ، والصورة المعبرة عن الروابط التي تنسجها مجالس العلم ، وتلونها مسائله ومجالاته المتعددة التي يستعصي على اللسان تعدادها وتبيانها .. لأجل هذا كانت الكلمة صادقة ، والدال معبرا عن مدلوله ، وكان المجاز حقيقة ، والخيال واقعا في هذا اللون من الشعر .

وقد تطلبت بعض من هذه القصائد وضع شروح عليها ، لإيضاح الفاظها ومعانيها وايحاءاتها ، وتسليط الضوء على ما هو غامض فيها من اشارات واعلام واحداث ... وما الى ذلك مما يستدعي تفسيرا وتحليلا ... كما يتضح من دالية ابي علي الحسن بن مسعود اليوسي، في مدح شيخه، وشيخ علماء زمانه محمد (48) بن ناصر الدرعي (ت: 1085 هـ/1674 م) تلك القصيدة التي بلغ عدد ابياتها خمسمائة واربعين (540) بيتا .

وقد قام بوضع هذا الشرح الشاعر نفسه ، الذي تحول من مبدع الى دارس لشعره ، ومفسر للمرامي والأبعاد التي اساء فهمها بعض ممن كان يتعاطى الأدب في زمانه ، الشيء الذي برر وضع هذا الشرح كما جاء في مقدمته :

... فقد كنت سنة سبع وسبعين (49) قلت قصيدة امتدح بها شيخنا الرباني ، واستاذنا العرفاني ، اوحد زمانه في العلم والدين ، وشيخ اوانه في تربية المريدين ، سيدنا ابا عبد الله محمد بن ناصر الدرعي ... فرأيت كثيرا من رواتها تنبو افهامهم عنها ، ويستغربون كثيرا منها ، فيعدون الدهس

ضرسا (50) .، والسلس شكسا ، وما ذلك الا لعموم الغباوة والجهل علي ابناء الدنيا ، وتقاصر همهم عن العلوم ، ولا سيما علم اللسان ، فاردت ان اصنع تقييدا مختصرا ، يبين لحفاظها ما عسى ان يشكل من الفاظها ، غير متصد لتقرير معانيها، وتحرير ما لم يكن عنه بد منها ...(51) .

ومما جاء في مطلع هذه القصيدة قوله : (كامل)

عرج بمنعرج الهضاب الورد بين اللصاب (52) وبين ذات الارمد
وأجزمن الجزع الذي بحضيضه اجداث اصداء العشير الهمد
واربع على الربع المحيل هنيئة ان الربوع ربيع قلب الاكمد

وقد اعتبر الشاعر الوقوف على الديار في هذه القصيدة ليس من باب التقليد المتبع عند شعراء القرن الثاني فمن بعدهم ، بل جعله حقيقة وواقعا حيا ، له كيان في اعماقه واحساسه ، ومن ثم فالتعبير عنه هو تعبير عن النفس وتنفيس لها من معاناة وجروح عمقتها الأحداث من حوله ، كما هو واضح في سياق شرحه للبيت الاول والثاني من القصيدة :

... ان الشاعر جرد من نفسه مخاطبا ، فامره بحبس الركاب ، والوقوف على هذه الجبال بين تلك الشعاب ، وبين تلك الأرض الرمداء التراب ، لأنها كانت منازل الاحباب ، وهي منازل معلومة في ارضه ، ومنازل لقومه ... وفي البيت براعة المطلع، لاعتبار الهضاب هضاب العلم والدين الواردين من عين الحقيقة، وبحر الشريعة، كالشيخ الممدوح بها ، رضي الله تعالى عنه ... وامره ايضا ان يجيز البلد ، اي يسلكه او يقطعه من ناحية هذا الوادي الذي كانت بأسفله قبور العشائر والاحبة الهالكين ، وهذا ايضا موضع معلوم، كانت فيه مقابر قومه، ومنهم والده ، رحمة الله تعالى عليه ... (53)

ويأبي الشاعر الا ان يصف احوال نفسه قبل وبعد التحاقه بمجالس شيخه العلمية والصوفية ، التي دفعته الي مغادرة الاهل والاحبة ، في ظروف محفوفة بالمكاره والمخاوف ، والشدائد والمحن، التي اسالت دموعه في الطريق ، واسالت دموع اهله اثناء توديعه وبعد فراقه ، والكل خائف من عدم لم الشمل مرة أخرى ، لما هو معروف عن الشيخ اليوسي الذي لا يكاد يستقر في بلدة حتى تدعوه اخرى، فيستجيب راضيا اوكارها !! مما جعله يديم الحوار مع الاشياء والطبيعة من حوله ، حين يعدم الصاحب والمخاطب من جنسه ، في هذا التنقل

المستمر ، والبحث الدائب عن الحقيقة الضائعة في الانسان وفي الكون، وعن هذا المشهد الرومانسي الحزين يقول (54).

ولرب باكية شجتني موهنـــــا نغماتها فوق القضيب الأمـــأد (55)
باتت تطارحني البكاء كأنهـــا تدري الذي بجوانحي من موجـــد
فبكيت غير بكائها اذ لم تـــرق دمعاء ونحري بالمدامع قد نـــدي
بكيت الهديل(56) على تقادم عهده افلا احن الى حديث المعهـــــد
وبكت وفرخاها هناك ، وقد عـدا فرخي عني كل نشز قـــــردد (57)

ثم يقول :

أبكي عليهم بعدهم اسفـا، وهـم يبكون بعدي كالثكالـــى الفـــقد

وهذا الاضطراب والخوف والبكاء يتلاشى وينتهي ، حينما يستقر الشاعر بديار العلم ، والامن والصفاء الروحي بزاوية تمكروت التي يرتوي من حياضها كل من قصد منابعها ، وتفيأ ظلال عوالمها وأعلامها، لهذا وذاك تغيرت النغمة بعد الابيات السابقة ، وخرجت النفس من عالم الكآبة والحزن ، وتسابقت مع المتسابقين الي اغتنام اللحظة بجني الفوائد والثمار من مجالس العلم ، وحلقات الذكر والوعظ ، التي يتصدرها شيخ تمكروت الكبير (58) .

غيث الورى ذاك ابن ناصر الذي نصر الاله به شريعة احمد
واعاد وجه الدين ابيض مسفـرا بهجا مقرا عين كل موحـد

ثم يقول :

كم سنة احييت بعد اماتة وضلالة اخمدت بعد توقـد

ويقول (59)

وفتحت اصداف المكارم للورى وجمعت اصناف السلوك الاقصد
وركبت اكتاف المجادة والعلـى ومنحت اعراف العلوم الشـــرد
ونجعت اكناف المعالي مخصبا ومريت اخلاف الرغاب المجـد (60)

وقد اثارت هذه القصيدة كثيرا من المعارف والعلوم ، والاشارات الادبية ، التي علقت بذهن اليوسي ، من محفوظات ، ومرويات ، وحكم ونوادر ، مما جعلها كثيرة التداول بين معاصريه ، من ادباء وعلماء وفقهاء .. لما يجد فيها كل من هؤلاء ، وغيرهم ، مرغوبه وطلبه .. وهناك من عارضها كما وكيفا ، في الغرض نفسه ، ولكنه اعترف بالعجز والعياء ، بالرغم من زاده العلمي واللغوي والادبي والصوفي، انه الشيخ احمد بن عبد القادر التساوتي (61) (ت: 1127 هـ/ 1715م) الذي قال قصيدة لامية سنة (1110هـ/ 1698م) بلغ عدد ابياتها (528)

بيتا ، ومما جاء في حديثه عن دالية اليوسي الذي قدم به لقصيدته :

... وجدتها بحرا تلاطمت امواجه بالبيان ، وروضا مفتقا بازهار من العرفان ... وقد نظمها رحمه الله وهو شاب فتى، والعلم قريب العهد منه طري . ولما رأيت منها ما ابهرني، حركني وارد لا استطيع رده ، ولا اقدر دفع حره وبرده ، لوضع قصيدة تقرب من عددها، وتقصر عن مددها مع كبر سني، وتناسي العلم عني ، وشتان ما بين حمار وفرس ، وبين بدر طالع مع قبس ، وهي هذه . (62) (كامل).

قف ساعة بين الغوير فأربل(63) واعطف بمنعطف الرسوم الطمل

وفيها يقول :

وإذا تزينت المعارف بالتقى وتشوق للواحد المتفضل
أزرت بتاج فوق رأس مملك بجواهر ولآليء متكلل

وهكذا كانت الاجواء الادبية ، بعد ختم الكتب المقررة موسما أدبيا، ومجالا يستريح فيه العقل من عناء البحث ، والغوص في المسائل العلمية ، وتتبع تقريرات العلماء حولها ، وما الى ذلك مما يستدعيه الدرس من بسط للقول والنقاش ، لتوضيح الغامض، وتفصيل المجمل، لذا كان انتظار هذه الاحتفالات من الايام المشهودة، التي خلدها الأدباء والشعراء في شعرهم تكريما لشيوخهم من جهة، وتعبيرا منهم عما يشعرون به تجاههم من محبة وتقدير من جهة اخري . كما هو واضح علي سبيل المثال ، من قصيدة الشاعر الأديب محمد بن قاسم بن زاكور، في مدح شيخه ابي حفص عمر بن محمد بن عبد المومن المانجلاتي (64) بعد ختم (جمع الجوامع للسبكي) عليه بالجزائر سنة 1094هـ/1682م، يقول في مطلعها (65) (بسيط) .

حي على الانس ان طيف الهموم سرى
وسل نفسك وانهج نهج من صبرا
ولا تصغ لدواعي البث ان صدحت
ان دواعيه تستجلب الضررا
واذكر معاهد قد راقت نضارتها
فان في ذكرها انسا ومعتبرا

وفيها يقول :

والبحر مثل مذاب التبر حاك به
كف النسيم دروعا حسنها سحرا

والورق تسقط في امواجـه دررا
كما سقطت على بحر العلا عمـرا
حبر الجزائر ، والدنيا برمتـــها
من عالج العلم حتى ذاع وانتشرا

ولم يتردد في اخبار اهله – بالمغرب – بالظفر الذي حصل عليه في مجالس هذا الشيخ وامثاله ، والسعادة التي ينعم بها بعد عناء الرحلة وتعبها ، وفراق الاحبة والديار ، ويدعوهم الى الاطمئنان عليه ، لأنه عوض اهلا بأهل في رحاب شيخه المذكور .

من يبلغ الاهل اني بعد بينهم
جالست بدر هدى بالشمس معتجرا (66)
وقد ظفرت بما كنت آملـــــه
لما قضت منيتي مـــن نـوره وطـرا

وفيها يقول :

بحر العلوم التي غاضت مناهلهـا
منذ زمان وسيل الجهل فيها جرى
شمس الاصول التي تعشي اشعتها
عين الجهول فلم يسطع لها نظـرا
كم من فوائد اولاني غدوت بهـــا
اطاول العالم الحبر الذي مهـــرا

وهكذا تعتبر فهرسة (نشر ازاهر البستان ...) ديوان شعر في مدح الشيوخ والاشادة بمجالسهم العلمية (67) التي نهل منها مؤلفها ابن زاكور وغيره من ادباء زمانه الذين عبروا عن تلك العلاقة الروحية بتعبير مفعم بالصدق ، مع العجز والعياء في وصف ما يشعرون به من احساس نحوهم ، لما لهم من الفضل على كل من تتلمذ عليهم ، واخذ من معينهم الذي صبت في مجراه ما انحدر مع لياليهم وصبرهم ومعاناتهم من ذوبان المعرفة ، وتدفقها عبر المعاجم وامهات الكتب ، ومسائل العلم ، ودواوين الشعر ، وملازمة العلماء ، وضرب اكباد الابل في الرحلة اليهم مع ما يصاحبها من هم والم ، وفراق اهل واحبة ..

فكيف لا تكون الكلمة صادقة ، والصورة معبرة عن هذه العلاقة ؟ وإذا لم تكن صادقة في نقل هذا الاحساس من الشعور الخاص الي الشعور العام ، فكيف تكون صادقة في غير هذه العلاقة ؟ وخاصة اذا

كانت وليدة المزاج والمناسبة العابرة ، او المنفعة المادية الفانية التي لا تعمر طويلا ، وربما تنتهي في اللحظة نفسها!!

فعن طريق هولاء الشيوخ وتلامذتهم نستطيع ان نعرف مستوى العصر ثقافيا وعلميا وحضاريا ، من خلال مد الحركة الثقافة فيه ، او جزرها ، والشاهد على ذلك والناطق به هو هذا الشعر الذي قام بما لم يقم به النثر احيانا ، في تخليد كثير من الاعلام الذين ، لولا مدح تلامذتهم لهم بعد ختم الكتب التي كانوا يدرسونها لضاعت اخبارهم ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، ابو عبد الله محمد بن محمد المشاط، الذي لولا شعر علي مصباح الزرويلي (68) (ت : 1130 هـ / 1717 م) في مدحه لما عرفنا عنه اي شيء ولما عرفنا هجرته مع ابنائه من فاس الى وزان فرارا من محنة جمع العبيد المعروفة ، وقد وعد محمد بن الطيب القادري بان يترجم له (69)، ولكنه لم يفعل ، لسبب من الاسباب ، وفي انتظار ما يكشفه البحث العلمي عن هذه الشخصية يبقى شعر علي مصباح فيه هو المصدر الوحيد حتى الآن لتسليط الضوء علي هذا العلم ومما مدحه به بعد ختم (مختصر خليل) قوله من قصيدة (70) (طويل).

عليك اخذت العلم عذبا مسلسلا
ومنك قوى قلبي وزندي وساعدي
تساعدني فيك القوافي ، فهاكها
تحاكي عقودا فوق جيد الخرائـــد (71)
لعمرك ما نظم القوافي (بحلية) (72)
فان المهى لم تكتحل بالمـــــراود

ولم تغفل كتب التراجم الشيخ المشاط وحده ، بل هناك شيخ آخر من شيوخ العلم ، لو لا رثاء علي مصباح له ما عرفناه ، وهو ابو عبد الله محمد بن العافية الزواق (ت 1127 هـ / 1715 م) ، ومما جاء في ذلك الشعر قوله من قصيدة (73) (كامل)

امحمـد وجدي عليـك عـرمـــــرم
وصبابتي بك لم تزل متماديه
دفنوك في بطن الثري ، ولو (74)انصفوا
ودي لكم دفنوك وسط فؤاديه

وكانت تتخلل هذه المجالس ملاحظات ادبية من الشيوخ الذين قيلت فيهم تلك القصائد ، مما يجعلها ذات اهمية في توجيه الشعراء الي مواطن الجمال او القبح في شعرهم ، فيدعوهم ذلك التنبيه الي الامعان في شعرهم ، والاكثار من التأمل في الفاظه ومعانيه ، وصوره واخيلته ، فيضيف الى عمل من سبقهم تجربتهم الخاصة ، بوضع انتاجهم في سياقه التاريخي ، ومحيطه الاجتماعي والحضاري ، لينسج خيوطه من المشاعر الخاصة والعامة ، ويلونها الانفعال الحاد بما يجري في الواقع من احداث تدعو الشاعر الى تحديد الموقف منها اعجابا او نفورا، حبا او كرها ...

فهذه الملاحظات النقدية ، ولو انها عابرة احيانا ، لتناولها تجربة الشاعر في مجملها ، وتوجهه العام في شعره ، دون ان تنصب على النص في الفاظه ومعانيه .. ومع ذلك لا تخلو من اهمية في اثارة انتباه الشاعر بانه متابع في صناعته وتجربته ، فعليه ان يحسب كل حساب لتلك المتابعة ، ليحظى هو وشعره بما يستحقه من عناية وتقدير، في المجال الأدبي ، وليفوز بالسبق لاحتلال موقعه في نفوس الناس ، والتأثير في وجدانهم واحساسهم ، واثارة انفعالهم ، ليشاركوه آلامه واحزانه ، وافراحه وآماله ... كما جاء في تقديم علي مصباح لقصيدته الدالية المشار اليها في مدح شيخه محمد بن محمد المشاط:

> ومن ذلك قولي في مدح شيخنا الفقيه الاجل ... وانشدت عليه في مجلس درسه وهي اول ما اظهرته من شعري للناس في ايام الابتداء، لان الطلبة حثوا علي ، فلم يمكني الا اسعادهم بها .. فاخذوا القصيدة واعطوها الى رجل (75) فائق في حسن النغم، واجادة الانشاد، فانشدها على الشيخ والمجلس خاص باهله ، من طلبة واشراف وعوام ، فوالله ما اتمها المنشد حتى لم يبق احد من اهل المجلس الا وقد بلت دموعه خده ، لأني كنت اشرت في اثناء القصيدة بعدة ابيات الى رثاء بعض (76) اشياخنا كان اصيب في تلك الايام ، فقال الشيخ للمنشد : اصلحك الله ، لمن القصيد ؟ فقال : لفلان ، وكان الشيخ قبل لا يعرفني باسمي لصغر سني ، فقال : ومن هو فلان ؟ وكنت في وسط القوم ، فاشار الي ودعاني ، وقال : جزاك الله خيرا (كل الصيد في جوف الفرا) (77)، فوالله ما ظننتك تجمع بين كلمتين (78) ، ثم دعا لي، وصار يعرف مكانتي من ذلك اليوم (79).

ومعلوم ان محمد بن الطيب العلمي مدح الشيخ نفسه في المجلس ذاته بقصيدة لامية، غير انها لم تعجبه، ولم يلتفت الى صاحبها، الشيء الذي اغاظه، وأثار حفيظته، فراح مع جماعة من اصحابه ينتقد قصيدة علي مصباح بالحق وبالباطل (80)خصوصا وهو بعد ما زال صغير السن. ومما قاله ابن الطيب العلمي في قصيدته هاته (81) (وافر)

بحور الدمع من عيني تسيل بسيط وافر الاجزا طويل
وصبري قل من سكان صدري ويعذر من له صبر قليل

كما ان الشيخ محمد بن احمد المسناوي رفض الاستماع لقصيدة الشاعر نفسه ، بعد ختم (المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) (82) منها قوله (83) : (طويل)

بشائر ليلى آذنت بوفودها
وطالعها أنبا بقرب ورودها
فها الافق زاه ، والنجوم زواهر
تلوح ، وتجري في بروج سعودها

ثم يقول :

وهذي غصون بالنسيم تمايلت
على النهر ، قد أومت له بسجودها
فدونكها كالشمس في جو كاسها
معتقة تنفي الردى بورودها
تطوف بها بين المحافل ظبية
ظفرنا بها من بعد طول شرودها

ولم يكتف الشيخ المسناوي بالرفض الشفهي لسماع هذه القصيدة في مجلسه ، بل كاتب صاحبها في الموضوع ، معللا سبب ذلك المنع بأنه ليس اهلا بان يقال فيه ذلك المدح ، والذي يظهر ان محتوى القصيدة، وتكلف الشاعر فيها، وتماديه في وصف مجالس الشرب ، والخمر المعتقة، وما يرتبط بهما من جواري وغناء ومجون ... ولو ان جريان ذلك لا يتجاوز الذاكرة ، ونظم الكلام ، هو السبب الحقيقي في ذلك المنع، نظرا للمجلس العلمي الذي يغشاه الطلبة، والعلماء، وعامة الناس في المسجد، ولما يمثله الشيخ كذلك من اتجاه أدبي يميل الى الطبع ، وينفر من التكلف والتصنع المثقل بالبديع ، وهو الذي اعتمد عليه اساسا علي مصباح الزرويلي في تكوينه الأدبي ابداعا ونقدا (84) ومما جاء في كلام محمد بن الطيب العلمي ، مع اشارته الي رسالة الشيخ المسناوي :

... فمنعني من اقرائها في مجلس درسه ... وكتب الي من الغد يعتذر عن عدم اقرائها ، ونصه ... فاستصغرت نفسي ان يقال في ذلك المقال ، او تحلى بها تلك الخلال ، ولا سيما في المجامع والحفول المشتملة على مختلفة الآراء ومباينة العقول ... فهذا موجب المنع من قراءة قصيد تكم الرائقة ، وامتاع الاسماع ببدائعها الفائقة ، لا غير ذلك مما عسى ان يختلج في البال ، او يوسوس به بعض ما لا علم لـــه بحقيقة الحال ، فانه محض افك وزور ... ولولا ان الشعر بالشعر ربا ، وانـــه لا يناسب من ولت عنه مثلي ايام الصبـــا ، لجلـوت عليك مـن عـرائسه ما يكون كفاء ودك ، واتيتك من نفائسه بما يليق طرازا لحلة مجدك...(85)

المراجع :

1) للتوسع في الموضوع ، انظر : ما كتبه الاستاذ عبد القادر زمامة عن الرحلالت المغربية في مجلة المناهل عدد 22 ، 25 ، و(فهارس علماء المغرب من النشأة الى القرن الثاني عشر للهجرة) لعبد الله الترغي ، وهي ما تزال مرقونة بكلية الآداب بفاس وتطوان ، وادب الرحلة والتواصل الحضاري – سلسلة الندوات رقم 5 ، كلية الآداب مكناس .

2) منحة الجبار لحمد العربي بن محمد البصري مخط خ ح رقم 11286ز، ورقة 280، وفهرسة العميري مخط خ.ح رقم 560 ورقة 187.

3) مفتي الامة وشيخ الاسلام في زمانه ، واحد كبار فقهاء الشافعية ، من مؤلفاته (شرح مسلم ، والمناهج ...) (ت 676 هـ / 1277م) انظر (فوات الوفيات 4/264 - 268) والمصادر التي اشار اليها محقق الكتاب الدكتور احسان عباس .

4) فهرسة اليوسي مخط خ.ح رقم 1183 ورقة 17/ب .

5) ينسب الى بني عمير من تادلا ، ولد بفاس ، وانتقل الى مكناسة مع والده ، وبها لمع نجمه في الفقه والتاريخ والادب (ت : 1178 هـ / 1764 م) ، ترجم لنفسه ولوالده في فهرسته ورقة 44 – 100 ، انظر كذلك (تذكرة المحسنين لعبد الكبير الفاسي مخط خ ح رقم 12235 ز، ورقة 5، والاتحاف 5/541) .

6) تولى منصب القضاء والافتاء والتدريس بمكناسة ، وكان السلطان اسماعيل يشاوره في الشادة والفاذة (ت: 1131هـ / 1718م)، انظر (فهرسة ولده ، والتقاط الدرر ونشر المثاني حوادث السنة المذكورة) .

7) تنظر تراجم هولاء الاعلام في (فهرسة العميري ورقة 187 – 256، والتقاط الدرر والنشر حوادث وفياتهم ، وندوة الحاضرة الاسماعيلية ص 329 – 337. الصادرة عن كلية الآداب مكناس 1988.

8) قاضي مراكش ومفتيها ، برع في تدريس الطب وعلم القراءات. انظر(صفوة من انتشر لليفرني ص 214 – 215 ط حجرية ، والتقاط الدرر والنشر ، حوادث 1115 هـ) .

9) فهرسة العميري ورقة 189 .

10) من ادباء عصره اللامعين درس على كبار شيوخ زمانه في فاس، وتطوان ، والجزائر ، من مؤلفاته : (نشر ازاهر البستان فيمن اجازني بالجزائر وتطوان) المطبعة الملكية 1967 وتزيين قلائد العقيان مخط خ ع رقم 7 ج) انظر : (التقاط الدرر، والنشر حوادث 1120هـ) .

11) كشف الظنون 1/ 63 .

12) صفوة من انتشر ص 215 .

13) الجونة بضم الجيم : ما يضع العطار فيه الطيب ويحرز (اللسان – جون) .

14) هو صاحب (الدرر المرصعة باخبار صلحاء درعة) مخط خ.ع رقم 2637 د. انظر (الاعلام للزركلي 7/ 109 ط 6) .

15) اشطان جمع شطن : وهو الحبل الطويل الذي يشد به الدلو ، وغيره (اللسان – شطن) .

16) ابن حمديس هو ابو محمد عبد الجبار بن ابي بكر الصقلي ، احد الشعراء الذين مدحوا المعتمد ابن عباد (ت : 527 هـ / 1132م) انظر (وفيات الاعيان 3/212 –215 ، تحقيق إ. عباس .

17) البلوطي هو المنذر بن سعيد ، خطيب بني امية بالاندلس وشاعرها وقاضي قضاتها (ت: 355هـ/ 965 م) انظر : (تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي رقم الترجمة 1454 ، الدار المصرية).

18) لعل المقصود بابن طاووس هو احمد بن موسى ، من فقهاء الامامية ومحدثيهم ، له شعر وعلم بالادب (ت: 673هـ/1274م) انظر : الاعلام للزركلي 1/261) .

19) فهرسة العميري ورقة 99/101.

20) منهم قاضي القضاة محمد الطالب بن عبد الواحد ابي عنان، الذي كان ((يقبض الهدية من القضاة على الولاية ، ويقضي بغير

المشهور ، ويوافق الرؤساء فيما ارادوه))، (ت: 1151 هـ/1738م) انظر: (نشر المثاني حوادث السنة المذكورة).

21) المائدة /49 .

22) فهرسة العميري ورقة 120.

23) اليباب : الخالي ، لاشيء فيه ولا احد .

24) فهرسة العميري ورقة 147 – 148.

25)النجل جمع نجلاء : وهي العين الواسعة (اللسان – نجل) .

26)انظر .ما نتج عن ذلك من غارات وفتن في القبائل والمدن (نشر المثاني حوار ت 1140هـ /1727م) .

27) نفسه حوادث : 1141هـ/1728م) .

28) منهم احمد وعلي ، انظر : (الاستقصا 7/(151 – 152، 157).

29) خاض حروبا كثيرة مع اخيه عبد الله ، وتعرض لهزيمة نكراء سنة 1156هـ/1743م) في معركتين احداهما قرب فاس ، وثانيهما قرب وزان ، واستمر علي تلك الحال الي ان توفي سنة 1172هـ/1758م) انظر (النشر حوادث السنتين المذكورتين).

30) نفسه حوادث 1153هـ/1740م .

31 ، 32) الاستقصا 7/152.

33) لم نستطع تحديد السنة التي قتل فيها ، والغالب على الظن انها سنة (1156هـ/1743م) لأنه دخل مع المستضيء القادم من مراكش الى مكناسة سنة (1155هـ/1742م) باعتباره وزيرا له ، صحبة اخيه القاضي ابي القاسم . المرجع السابق والصفحة .

34) الصاب جمع صابة : شجر مر (اللسان – صوب) .

35) يقصد تحمله خطة الوزارة ، وهي منصب سياسي ، في حين خطة القضاء منصب شرعي .

36) فهرسة العميري ورقة 242 – 243.

37) هو متمم بن نويرة اليربوعي ، وكان لا يملك غير عين واحدة صحيحة ، واخوه مالك قتله خالد بن الوليد لارتداده عن الاسلام . انظر (وفيات الاعيان 6/13–18 في ترجمة وثيمة بن الفرات) .

38) الحجون : جبل بمكة (اللسان – حجن).

39) فهرسة العميري ورقة 149–150.

40) نفسه ورقة 150–151.

41) الشحر : ساحل اليمن بين عمان وعدن (اللسان – شحر).

42) فهرسة العميري ورقة 153–155.

43) برع في الخطابة وجودة الالقاء والانشاء ، الى جانب مشاركته في الفقه والحديث والتفسير ، وهو صاحب الخطب المشهورة باسمه ،

و(المحكم في الامثال والحكم) من شيوخه القاضي بردلة ، ومحمد بن احمد المسناوي، ومحمد بن عبد الرحمن الدلائي . انظر (تذكرة المحسنين، وفيات 1181هـ وسلوة الانفاس 1/322-323. وجامع القرويين 3/803-804).

44) فهرسة العميري ورقة 161 .

45) نفسها ورقة 254.

46) يحذف السكون الاخير في النطق للوزن .

47) احدى متنزهات مكناسة ، في الجهة الشمالية منها ، تكون مع جبل زرهون المشهد الرائع في هذه المنطقة .

48) شيخ شيوخ العلم والتصوف في زمانه به اشتهرت الزاوية الناصرية بتمكروت في المغرب وخارجه ، انظر تفاصيل ترجمته ، في (فهرسة اليوسي ورقة 21/ب22/أ ، مخط خ ح رقم 1183 ، والصفوة : 173-177 ، والنشر والتقاط الدرر حوادث 1085هـ) .

49) يقصد سنة 1077هـ/1666م.

50) الدهس: الارض السهلة. والضرس: الارض الخشنة (اللسان – دهس ، وضرس) .

51) نيل الاماني في شرح التهاني ص 2-3 مطبعة الكوكب الشرقي بالاسكندرية ، 1211هـ/1796م.

52) اللصاب : الشعاب (اللسان – لصب) .

53) نيل الاماني ص 4-6.

54) نفسه ص 96-97.

55) الموهن : الوقت من الليل ، نحو النصف او بعده ، والأمائد : اللين.

56) الهديل : صوت الحمام ، والهديل ايضا فرخ تزعم العرب انه كان في عهد نوح عليه السلام ، فصاده جارح ، اومات عطشا ، فما من حمامة الا وهي تبكي عليه (نيل الاماني ص 97) .

57) نشز قردد : كل ما ارتفع من الارض وغلض .

58) نيل الاماني ص 100.

59) نفسه ص 113.

60) مرى الدرع : مسحه ليدر اللبن ، والاخلاف جمع خلف : وهو ضرع الناقة ، والرغاب : جمع رغيبة وهي الامر المرغوب فيه .

61) احد اصحاب احمد بن ناصر الدرعي ، وابي علي اليوسي ، وبينه وبين هذا الاخير مكاتبات كثيرة في احوال المجتمع ، توفي بمكناسة ، انظر : (النشر والتقاط الدرر حوادث سنة وفاته).

62) نزهة الناظر ، وبهجة الغصن الناضر مخط خ.ع رقم 1669

ك ورقة 73 -93.

63) الغوير تصغير الغور : وهو ما انخفض من الارض ، ويطلق على تهامة وما يلي اليمن . (اللسان غور) . والربل كاثمد : بلدة قرب الموصل (القاموس الربلة).

64) شيخ الجزائر وعالمها في وقته ، وقاضي قضاتها ، من شيوخه علي بن عبد الواحد السجلماسي لازمه اربع عشرة سنة ليلا ونهارا، انظر (نشر أزاهر البستان لابن زاكور ص 4-13).

65) نفسه ص 4 - 8.

66) معتجر من الاعتجار : وهو لي الثوب على الرأس من غير ادارة تحت الحنك ، وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح معتجرا (اللسان - عجر) .

67) انظر : (ص 14-21 في مدح الشيخ محمد بن عبد المومن الجزائري ، وص 39 في مدح الشيخ محمد بن سعيد المعروف بقدورة، وص 56-60 في مدح شيخه علي بن محمد بركة التطواني ، وص 89 في مدح شيخه ابي علي اليوسي ...الخ).

68) انظر الاختلاف في وفاته دراسة صاحب البحث عنه وهي بعنوان (علي مصباح الزرويلي حياته وآثاره ص 108 - 113) ما تزال مرقونة بكلية الآداب بمكناس وفاس.

69) التقاط الدرر ص 280 ، ذكره في سياق من تتلمذ علي جده ابي محمد عبد السلام .

70) ديوانه مخط خ ح رقم 6938 ورقة 55 (حققه محمد الحسيني ولم ينشر بعد) ، وسنا المهتدي مخط خ ح رقم 11095 ز لوحة 220 .

71) الخرائد جمع خريدة : وهي البكر من النساء الحيية .

72) في الديوان بنسختيه (بحيلة) ، ولعل الصواب ما اثبت وهو انسب للمعنى .

73) نفسه ورقة 88.

74) تنقل حركة الهمزة للواو قبلها ، وتخفف لضرورة الوزن .

75) لعله يقصد محمد بن الطيب العلمي صاحب الانيس المطرب،

76) يقصد شيخه عبد السلام جسوس الذي قتل سنة 1121 هـ/1709م) في سجنه بسبب محنة جمع العبيد ، وقد رثاه بقصيدة منها قوله :

حل بالدين يالقومي بلاء احجمت دون وصفه الشعراء

وديوانه مخط خ ح ورقة 99-100) انظر ترجمة الشيخ في النشر والتقاط الدرر ، حوادث السنة المذكورة .

77) مثل عربي ، اصله ان ثلاثة افراد ، اصطاد احدهم اربنا ،

واصطاد الثاني ظبيا ، والثالث حمارا ، فتطاول على هذا صاحباه ، فقال لهما : (كل الصيد ...) مجمع الامثال 82/2 مصر 1933.

78) اي الجمع بين المدح والرثاء .

79) سنا المهتدي مخط خ ح (ز) لوحة 220.

80) نفسه لوحة 221.

81) الانيس المطرب ص 298 ط حجرية.

82) للشيخ عبد الواحد بن احمد الانصاري ابن عاشر (ت: 1040هـ/1630م) انظر : (النشر والتقاط الدرر حوادث السنة المذكورة) .

83) الانيس المطرب ص 287-288.

84) انظر حديثه عن هذا الشيخ واعتماده عليه في (سنا المهتدي مخط خ ح (ز) لوحة 220.

85) الانيس المطرب ص 286-287.

جهود محمد الكتاني في البحث الأدبي

- تحقيقا وتأليفا -

جهود الدكتور محمد الكتاني في تحقيق « روضة التعريف بالحب الشريف »

نجاة المريني
كلية الأداب - الرباط

الأستاذ قيدوم كلية آداب مكناس ،
الأستاذ المحتفى به الدكتور محمد الكتاني ،
الأساتذة الفضلاء ،
الإخوة الطلبة الأعزاء .

لابد لي في البداية من الإشارة إلى نقطتين :
الأولى : كلمة شكر رقيقة أوجهها إلى منظمي هذه الندوة في كلية آداب مكناس على دعوتهم الكريمة للمشاركة في أعمالها .
الثانية : أنني سعيدة للمساهمة بعرض متواضع بمناسبة تكريم استاذنا الجليل الدكتور محمد الكتاني .

ولكلية آداب مكناس الفضل في إقامة هذا التكريم ، سنة حسنة أرجو أن تعم ظاهرتها جميع الكليات المغربية الأدبية والقانونية والعلمية . وهنا نحن نحتفي بأستاذنا الكبير الدكتور محمد الكتاني متعه الله بالصحة والعافية ، لابأس من اقتراح متواضع يكون لبنة للتفكير في تكريم أستاذنا العزيز الأستاذ أحمد اليبوري ، فأفضا له كثيرة علينا وعلى أساتذة كليات الآداب في الجامعات المغربية ، وما ذلك على همة السادة المسؤولين عميدا وقيدوما ونائب قيدوم وشعبة اللغة العربية ، هنا بمدينة مكناس ، بعزيز ، وإنهم جميعا على ذلك لقادرون وفاعلون بإذن الله .

* * * * * * * * * * * * * * *

تكريم العلمام الأصفياء ، والأساتذة الأعزاء ، والأخيار الأوفياء من علامات البرور، وشارات الوفاء، تمتينا لعلائق التلمذة والصداقة، وتأكيدا لروابط المودة والإخاء .

وتكريم الأستاذ الكريم ، والعالم الجليل ، الدكتور محمد الكتاني هو تكريم لواحد من العلماء الفضلاء والمحققين الأذكياء الذين مافتئوا يتحفوننا من حين لآخر بزبدة ما ينتجه الفكر ، وما تقدمه المطبعة ثمرا جنيا لكل طالب علم ، يقتنيه بشوق ولهفة ، ويعكف على قراءته ليتزود منه بغذاء متعدد الفوائد ، شهي الطعم والمذاق في كل وقت وحين.

ولعل تكريم الأستاذ الكتاني لايقتصر على تكريم العالم المحقق المدقق ، المفكر الإسلامي ، الباحث الأكاديمي ، وإنما هو تكريم الأستاذ الطيب العشرة ، الدمث الخلق ، اللذيذ الرفقة ، خاصة عندما تقسو الظروف وتشتد ، فنجده ذلكم الرجل الهادئ البشوش ، يطمئن في وداعة متناهية ، وينير السبيل في روية وحزم ، وينبه إلى الطريق اللاحب بلطف كبير وتواضع جم عز نظيره ، فهو نموذج إنساني فريد في علاقاته الإجتماعية ، وقدوة حسنة يعتز الاحتذاء بسلوكها ومواقفها، ففي صفاته الخلقية وفضائله الإنسانية ما يملأ قلب طلابه ومعارفه وأصدقائه محبة وتقديرا ، وإعزازا وتوقيرا .

الأستاذ الكتاني ممن حباهم الله حسن القبول ، مجلسه لا يمل، وحديثه فوائد يزدان بها فكر كل من اتصل به ، وعلمه في غزارته عطاءات تتدفق عذبة شهية ، إضافة إلى ما للتبليغ الجيد - في فصاحة وإشراق لغة - من آثار عميقة في النفس والفكر .

فتهنئة صادقة لأساتذي الجليل على هذه الحظوة ، وعلى هذا الإجماع ، إذ يلهج الجميع بذكره إنسانا وعالما .

سأحاول في هذا العرض المتواضع الحديث عن جهود الأستاذ محمد الكتاني في ميدان التحقيق ، وخاصة في تحقيقه كتاب حد "روضة التعريف بالحب الشريف" لابن الخطيب .

وكتاب " روضة التعريف بالحب الشريف" من المؤلفات الهامة التي انصرف فيها صاحبها إلى الحديث في موضوح الحب الإلهي،

بناء على رؤية واضحة وتجربة كبيرة .

لاشك أن حياة ابن الخطيب المضطربة القلقة وفرت له عناصر أساسية ارتكز عليها مؤلفه في علاقته بالآخرين ، وفي علاقته بالخالق سبحانه وتعالى ، فكان موضوع "**روضته**" يسبح في عوالم (خيالية) نسج خياله فيها صورة متكاملة للمحبة ، « فتمثلها شجرة ، والنفس الإنسانية أرضا لها » (ص39) ومن ثم جمع به خياله إلى تحليل عناصر تلك الشجرة بفروعها وأغصانها وثمارها باعتبارها نقطة الارتكاز في الموضوع وهو الحب الإلهي ، يقول المؤلف عن موضوع كتابه :

وجعلته شجرة وأرضا ، فالشجرة المحبة مناسبة وتشبيها، وإشارة لما ورد في الكتب المنزلة وتنبيها ، والأرض النفوس التي تغرس فيها ، والأغصان أقسامها التي نستوفيها، والأوراق حكاياتها التي نحكيها ، وأزهارها ثمارها التي نجنيها، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التي ندخرها بفضل الله ونقتنيها. (1 / 101)

وقد تنوعت فقراته ومباحثه ، فهو كما يقول :

ولم أترك فنا إلا جمعت بينه وبين مناسبه ، ولا نوعا إلا ضممته إلى ما يليق به ، واستكثرت من الشعر ، لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذبات أفنانها ، ويؤدي إلى الأنوف روائح بستانها ، واجتلبت الكثير من الحكايات ، وهي نوافل فروض الحقائق ، ووسائد مجالس الرقائق ، ومراوح النفوس من كد الأفكار، وإحماض مسارح الأفكار(ص 103).

كتاب "**روضة التعريف**" إذن من المصادر الهامة التي تناولت موضوعا في المحبة والمحبين ، وتغيت تحقيق الارتقاء إلى ألذ درجاتها، وأسعد لحظاتها ، وهي الفناء في حب الذات الإلهية ، فكان موفى الأغراض من حيث أريد له أن يكون معارضة لمؤلف مشرقي هو "**ديوان الصبابة** " لأبي العباس أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني (725 - 776 هـ) ، الأديب الصوفي ، إذ "اشتمل هذا الديوان على أخبار العشاق وأقوالهم شعرا ونثرا " (ص 38) .

لقد اتبع الدكتور محمد الكتاني في تحقيق كتاب " **روضة التعريف** " منهجية صارمة ، أبان فيها عن شيم خلقية رفيعة وعن زاد معرفي متنوع ، يكشف هذا التحقيق عن شخصية الباحث المحقق ، فهو الباحث الصبور المتأني ، السمح ، وهو العالم المدقق المتمكن ، الذي لم

يكتف بسياحة ميدانية في المجال الأدبي ، وإنما قام بجولات متنوعة في ميادين معرفية مختلفة : التصوف ، الفلسفة ، علم الكلام ، التاريخ، إلى غير ذلك ، وفي مثل هذه المعرفة الشمولية لايسع المرء إلا أن يقف إجلالا وتقديرا لهذا الباحث المتمكن الذي بذل جهودا جبارة في توثيق المعلومات وفي تخريج الأشعار والأمثال.

وإذا كانت الغاية من تحقيق النص - التحقيق العلمي الجاد - قراءته قراءة علمية سليمة ، فإن أستاذنا محمد الكتاني قد أنجز تلك القراءة المبنية على أسس علمية رصينة ، فجاء المتن المحقق واضحا موثقا مضبوطا مستقيما ، غنيا بهوامشه التوضيحية التي يمكن اعتبارها نصبا ثانيا محققا لما بذل فيه من الجهود في عملية تخريج الآيات والأحاديث والأشعار.

وهكذا يمكن تلخيص العملية الإجرائية التي اتبعها الدكتور محمد الكتاني في تحقيق نص "**روضة التعريف** " كالآتي :

1 - **مرحلة جمع المخطوطات** : وهي سياحة متعبة، انصرف فيها المحقق إلى جمع عدد كبير من مخطوطات **روضة التعريف** إذ بلغ عددها أحد عشر مخطوطا وإذا كانت السياحة متعبة ، فيظهر أنها في النهاية كانت ممتعة لأنها أرضت غرور الأستاذ المعرفي، وأشبعت نهمه في التزود بأكبر قدر من النسخ المخطوطة.

2 - **مرحلة دراسة المخطوطات** : وفيها انصرف المحقق إلى قراءة المخطوط قراءة متأنية مستوعبة ، فصحح الأخطاء بعد مقارنة النسخ مرجحا ، القراءة الأقرب إلى الصواب ، وتعتبر هذه المرحلة منذ أدق المراحل وأصعبها ، لما يكتنف عملية القراءة من تعمية وغموض سواء تعلق الأمر بنوع الخط ونوع المداد ، وطريقة كتابة النساخ . إهمالهم ما يعرف اليوم بتنقيط النص وتفقيره ، منتهيا إلى اختيار النسخة المخطوطة الأقرب إلى الأصل والصواب، لاعتمادها النسخة الأصل وغيرها من المخطوطات فروعا يستعين بها عند التصحيح عند الضرورة.

3 - **مرحلة توضيح معالم النص** : وفيها عمد المحقق إلى ضبط النص وشكل ألفاظه رعباراته ، ووضع الحواشي المكملة للنص من حيث الشرح والتوضيح والتخريج ، والتعريف بالأعلام والأماكن.وقد جعل هذه الحواشي صنفين ، أحدهما للمقارنة بين النسخ ، والثاني للشرح والتخريج .

هذه هي أهم المراحل التي قطعها المحقق الأستاذ الكتاني في عمله

المتميز " تحقيق روضة التعريف "، وقد جاء عملا رائدا في بابه، عملا جادا أثبت للمتخصص وغيره براعته (أي المحقق) في إنجاز عمل صعب ودقيق بمنهجية واضحة ، وموضوعية شاملة ، فكان يتقصى الجزئيات ، ويدقق في العموميات لإبراز النص في قالب جديد، وإخراجه أقرب إلى الصواب بالاتكاء على ما بين أيديه من نسخ الكتاب.

لقد اقتضى العمل في تحقيق هذا النص العودة إلى مصادر مختلفة في التصوف والفلسفة والتاريخ . وإلى المجاميع الأدبية والدواوين الشعرية خاصة عندما كان المؤلف ابن الخطيب يلجأ إلى نقل مقتطفات ومقتبسات من تلك المصادر ، يغلب على نقلها التصحيف والاضطراب ؛ ويفوق عدد المصادر التي استأنس بها المحقق لتوثيق النص مائتي مصدر ومرجع منها : **أحوال النفس** لابن سينا (تحقيق الدكتور الأهواني، ط 1952) ، **إحياء علوم الدين** للغزالي (طبعة الاستقامة) ، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** للقفطي (ط 1326هـ) ، **الأغاني** للأصبهاني (ط1927)، **بد العارف، وعقيدة المحقق المغرب الكاشف ، وطريقة السالك المتبتل العاكف** لابن سبعين (مخطوط) ، **ورسائل ابن سبعين** (تحقيق بدوي 1965). إن التعامل مع هذه المصادر بدقة وصبر يدل على محاولة جادة متميزة لبناء النص المحقق ، وإعادة كتابته من جديد، وتقديمه وفق أصول علمية منهجية ، كما أنها تطلعنا على الزاد المعرفي الذي يتوفر عليه المحقق ، وعلى قدرته على توظيفه أثناء اشتغاله بالنص.

وإذا كان تحقيق النص الذي بين أيدينا اليوم عملا رائدا ، فإن الفضل في ذلك يعود إلى الجهود الكبيرة التي بذلها الباحث المحقق الدكتور محمد الكتاني ، إذ أعاد النظر في النص من خلال مخطوطاته بروية وتفحص ، وعمل على التعريف بالأعلام على اختلاف معارفهم وبلدانهم ، وهو عمل شائك وصعب ؛ إذ لم يكتف المحقق بتصحيح الأسماء وضبطها والتنبيه إلى مؤلفاتها ، بل كان يشير إلى المصادر التي ترجمت لها مثبتا الجزء والصفحة والمحقق نفسه يتحدث عن العناء الذي لقيه في هذا العمل ، فيقول : "والحقيقة أننا لقينا عناء أي عناء في هذا السبيل ، لأننا - او هكذا خيل لنا - أنه يجب على المحقق أن يقدم لقارئه نصا صحيحا جهد المستطاع ، وألا يدع قارئه متحيرا أو مترددا (روضة العريف 1 / 71)

ووفاء للروح العلمية التي يتحلى بها الأستاذ الكتاني في عمله الجيد والمتميز ، فإنه يؤكد إن حدثت حيرة أوشك للباحث ، فعليه ترجيح ما يراه الأصوب ، فيقول : "على أنه إذا شعر هذا المحقق في بعض المواطن بالتردد والحيرة ، واضطر للتقدير والترجيح ، فيجب أن يعود إلى الحواشي لأثبات الوجوه الراجحة والمرجوحة لكي يختار القارئ نفسه الوجه الذي يرتضيه" 1 / 74 . وإضافة إلى عناء قراءة النص قراءة سليمة ، فإن عملية التخريج عملية مرهقة، يضطر معها الباحث المحقق إلى التحلي بالصبر والأناة وطول النفس، بحثا عن مصدر النص القرآني والحديثي والشعري والنثري ، توثيقا وتصحيحا وضبطا .

وقد أبان تخريج الأشعار الواردة في المتن عن مخزون المحقق الأدبي والشعري . في عزو الأشعار إلى أصحابها وفي دواوينها أو المجاميع التي أوردتها ، إلا في القليل النادر ، حيث يعسر التنبيه إلى الديوان لأنه غير موجود ، أو لتعذر الحصول على الشعر في مجموع أدبي معين، خاصة ما يتعلق بشعر التصوف ، وفي ذلك يقول الأستاذ الكتاني:

> حاولنا عزو الشعر إلى أصحابه في نطاق ما مكنتنا منه الذاكرة والاطلاع الشخصي ، لأن كثيراً من الشعر الوارد في هذا الكتاب من أشعار الصوفية الذين لم تجمع أشعارهم ولم تفهرس بحيث تمكن الباحث من الوقوف عليها متى شاء . 1 / 75 .

وتحظى المصطلحات الصوفية التي يحفل بها الكتاب بعناية المحقق واهتمامه ، فيحدد المفاهيم ، ويدقق في المعاني المتعارف عليها زمن التأليف ، ويقف عند الكلمات الغامضة الفهم ليشرحها ويقر بها من الأذهان كما هي في معانيها الحقيقية والمجازية.

وتؤكد وقفات المحقق عند الإشارات التاريخية والأدبية دقته في خدمة هذا النص التراثي البديع ، وإعجابه به بالرغم من المشاق التي تكبدها والمتاعب التي عاناها ، وهو يبحث عن خبر أو يتأكد من معلومة.

ويتميز تحقيق كتاب " **روضة التعريف** " بفهارسه المتعددة، منها ماوقف عند الأحاديث النبوية ، ومنها ما وقف عند الأعلام والطوائف والأمم والأمكنة ، ومنها ما وقف عند مصطلحات العلوم

والفنون والتصوف، إضافة إلى فهارس الكتب الواردة في الكتاب في ترتيب أبجدي توخى تسهيل مهمة البحث والتنقيب على القارئ والدارس، وتقع الفهارس وحدها في أزيد من مائة صفحة ، وترتيبها كاف للإعجاب ببراعة محقق متمرس متمكن من أدواته الإجرائية والمنهجية، فجاءت ملبية لإرضاء طموح علمي يهنأ عليه على الدوام.

لقد أعاد الدكتور الكتاني للنص ما كان يفتقده من رونق وبهاء في مخطوطاته أو في طبعته الصادرة عن دار الفكر سنة 1968، بالقاهرة بتحقيق السيد عبد القادر أحمد عطا ، وهو تحقيق يفتقد مقومات البحث العلمي كما هو متعارف عليه ، فجاء مليئا بالأخطاء والتحريفات والتشويهات.

إن التحقيق العلمي الجاد الذي أنجزه الأستاذ الكتاني كشف عن حقيقتين:

- أهمية الكتاب وموسوعية ثقافة صاحبه ابن الخطيب ، وتعدد مشاربه المعرفية .
- جهود الأستاذ المتميزة في تحقيق الكتاب تحقيقا علميا غنيا مفيدا، وكذا ثقافته المتنوعة ، وتضلعه في معارف كثيرة اخترقت مجالات تخصصه لتثبت موسوعية هذا العالم الرصين الذي يحق لنا طلابا وأصدقاء أن نفخر ونعتز به في مكان وزمان.

ولعل من أهم أسباب تفوق الأستاذ الكتاني في هذا التحقيق إيمانه بالعمل ، فقد أثبت قدرة كبيرة على تخطي الصعاب ، والنجاح في التغلب عليها ، فكل صفحة في الكتاب ، وكل هامش ، وكل حاشية تشهد للمحقق بالجهود الرصينة ، والعمل الجاد ، وهو نفسه يتحدث عن ذلك في قوله " أعتبر أن من الإنصاف لنفسي أن أذكر بأنها كانت مؤمنة بهذا العمل ، متحمسة له ، باذلة له من الراحة والصحة كل ما تستطيع ، وربما بأكثر مما تستطيع " 1 / 79 .

المراجع :

- روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب عارضه بأصوله، وعلق حواشيه وقدم له الدكتور محمد الكتاني دار الثقافة - الدار البيضاء - 1970 .

- مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين ، دكتور رمضان عبد التواب - ط 1 - 1986 - القاهرة .

"روضة التعريف "
نموذج للتحقيق الجامعي

عبد الله الهمس
كلية الآداب - مكناس

ان اختيار علم لتحقيق متن منه لا يتم كيفما اتفق ، كما يبدو للوهلة الأولى ، اذ لا بد فيه من تقدير مسبق لأهميته العلمية ، وما يمكن ان يسد من ثغرات يكون البحث العلمي شديد الافتقار اليها. ويقوى الاهتمام بالمواضيع المغمورة في التراث كلما امكن التعرف علي جانب من جوانبه الأصيلة التي يبقى الحسم فيها للباحث القدير الذي يتولى كشف ما يعتبره ذا فائدة فيه.

وادراك المفيد منه وغير المفيد ليس في استطاعة اي كان التنبيه عليه ، لأنه عملية تتصل بتكوين الباحث نفسه واستعداده العلمي، وسرعة وقوعه على مستلزمات المقبول والمردود على السواء ، بسبب أو اكثر منه ، وترجيح احدهما على الآخر حين تتوافر لديه عناصر الترجيح العلمية.

وبهذا تعاد للمتن صفاته الأصلية ، ويعاد له الاعتبار الذي من اجله الفه صاحبه ، من خلال تناوله بعد ذلك بالتحقيق والدراسة المفضيين الى ربط قضايا وظواهر ثقافية بقواعدها واصولها الصحيحة ، تبعا لحاجات كل عصر وما احدثه من فلسفات اضحت محل اعتقاد وتسليم من لدن اهله.

ان عملية التوفيق في الاختيار تحيط بها صعوبات جمة تتشكل كلها في مجموعة اسئلة لا تنتهي ، في مقدمتها : كيف يختار الباحث المحقق المتن الصالح ؟ وما هي الشروط المعتمدة في ذلك ؟ ولأي امر

يسعى من ورائه ؟ وما هي القيمة العلمية التي يتوخاها في الأمدين القريب والبعيد ؟ وكيف السبيل الى فهم محتوياته وفك طلاسمه ومصطلحاته ورموزه؟

نعتقد ان التغلب على بعض من تلك الصعوبات مطمح كل ممارس لعلم التحقيق ، قد يتغلب على جزء منها بالكاد ، لكنه لا يتغلب عليها جميعها في اغلب الأحوال ، وان هو حاول اكثر ما يستطيعه ، لأن العمل البشري يخضع للذوق في بعده النهائي ، الذي يظل محصورا بين قوة المبدع الاصلي له ، وقوة القاريء المتخصص الذي يعمل على احيائه، وبين قوة القاريء العادي ايا كان التماؤه واستعداده ورصيده المعرفي.

ونظن اننا لن نصل لنتيجة مرضية اذا كنا نأمل في توحيد الأطراف والذوق والانتماء حول القبول او الرفض ، لان في المحاولة قضاء غير معلن علي حرية الانسان في الاختيار ، مادام القصد تقوية هذا علي ذاك ، وتفضيل الواحد علي الاخر بقوة الفصل – الذي يعني الانتساب الي التراث العربي الاسلامي الاصيل – لا بقوة القيمة المستمدة من الافتقار والحاجة .

والباحث في امر التحقيق وشؤونه يدرك انه مركب صعب، وعمل يشقي صاحبه ، ابتداء من مرحلة البحث الأولى وانتهاء بطبع ما تم تحقيقه – ان قدر له ان يري النور – وان كان في هذه المرحلة الاخيرة ما يشعر باللذة العلمية الموحية بتجاوز ازمة اعادة الانتاج المخطوط على الاقل ، والا صدق عليه قول الحكيم المتنبي (1) :

فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

ان الدارس لتاريخ تحقيق النصوص العلمية يدرك ان هذا العلم حديث النشأة ، وانه ارتبط بفرة الإحياء التي بدأ فيها الفكر العربي يسائل ذاته بعد ان وعى شيئا حقيقة موقعه في الثقافة الانسانية التي بدأ الغرب ينفثها عبر وسائله العديدة ابتداء من القرن التاسع عشر، لقد حاول ان يصوغ اجابات عن الاسئلة المتنامية داخله ، تنامي الحاجات اليومية للفرد والمجتمع علي السواء ، طمعا في البقاء ومسايرة للتطور الغربي المدهش في مجالات عدة .

والتحدي الممكن كان هو محاولة النهوض باعباء اضافية تتمثل في احياء التراث ، واخراجه من العدم الى الوجود حتي يتسنى

للدراسات النقدية ان تنطلق في كل سبيل من سبل المعرفة وتؤسس قواعد علمية صالحة للاعتماد.

واننا في المغرب سرنا علي هدى المشرق ، فتأثرت حركتنا العلمية بنهضة مصر في حدود ما توافر لها من شروط الاتصال ، حيث كان الاقبال على عموم ما يصل الينا من ثمرات مطابعها شديدا ، ومن ضمنها - في النصف الثاني من القرن العشرين - الاقبال على تحقيق النصوص الذي يعد مظهرا من مظاهر الحركة العلمية عندنا حين تأسست الجامعة المغربية ، على الرغم من قلة الاثار المحققة اذا قيست بمثيلاتها في الشام ومصر والعراق.

ومما تطمئن له النفس حقا ، وينشرح له الصدر ، ويريح ضمير الباحث في التراث ، اضطلاع الجامعة المغربية بمسوولية احياء التراث ونشر نصوصه ، يشرف عليها عصبة من شيوخنا الاجلاء الذين وهبوا انفسهم لهذا المسعى واحسب انهم استجابوا - كما استجاب اساتذة الجامعة المصرية قبلهم - للنداء الصادق الذي ارسله في عنان السماء شيخ المحققين عبد السلام هارون ، خاطب به اساتذة الجامعة المصرية آنئذ كي يلزموا طلابهم في الدراسات العليا بانجاز تحقيق مخطوط ينال به صاحبه درجة الاجازة . ومما جاء فيه قوله : (وانه لما يثلج الصدر ان تتجه جامعاتنا المصرية اتجاها جديدا ازاء طلابها المتقدمين للاجازات العلمية الفائقة ، إذ توجههم الى ان يتقدموا مع رسالاتهم العلمية تحقيقا لمخطوط يمت بالصلة الي موضوع الرسالة، وعسى ان يأتي اليوم الذي يكون فيه هذا الامر ضريبة علمية لا بد من ادائها) (2).

لقد كان بعض شيوخنا على موعد مع هذا النداء المخلص ، فالزموا طلابهم بمضمونه وابعاده، سواء من خلال ما حققوه هم انفسهم من نصوص او من خلال ما انجزه طلابهم تحت اشرافهم وتوجيها تهم، يسعون من وراء ذلك كله الي الإسهام بنصيب في نشر الجانب المشرق من التراث العربي الاسلامي ، وكشف كنوزه المعرفية ، وبيان فضل علمائنا الغابرين عليهم رحمة الله ، وتوطيد الصلة والتواصل المنتج بين الماضي والحاضر بواسطة العلم الذي يحدد الهوية الإنسانية ، ودرجة حضارة الشعوب.

ولسنا في حاجة لذكر الأعلام المغربية جميعها (3) والمذاهب والاتجاهات التي بشروا بها في مقدمات ما حققوه ، والنصوص التي

احيوها بعد.

ممات طال عهدا ، مكتفين بالقول : ان كل الممارسين المتخصصين في التراث العربي الاسلامي القديم على صلة باسماء المؤلفات والدواوين التي اعتنى بها شيوخنا واصدقاؤنا فالدكتور محمد بنشريفة ، والدكتور عباس الجراري ، والدكتور محمد الكتاني والدكتور عبد السلام الهراس ، والدكتور محمد مفتاح ، والدكتور جعفر الكتاني ، والدكتور علال الغاري ، والدكتور عبد العالي الودغيري ، والدكتور احمد العراقي ، وعشرات آخرون نضرب عن ذكرهم تجنبا للاطالة ، ينتسبون للجامعة المغربية التي اخذت علي عاتقها منذ البدء مهمة احياء التراث لدواع معرفية خالصة والرجوع الى ينابيع ما ابدعه الفكر العربي الاسلامي مشرقا ومغربا (4) لانتخاب منتخبات منه صالحة ، متجاوزين ماله صلة بالشرح وشرح الشرح، والتحشمية والحاشية ، وفق رؤية جديدة ومنهج علمي يستجيب للشروط والقواعد المرعية التي قعدها ارباب هذا العلم.

وللتماس صورة التحقيق الجامعي المغربي وخصائصه نعرض بالدراسة لكتاب "روضة التعريف ، بالحب الشريف" للأديب الموسوعي لسان الدين ابن الخطيب السلماني الذي نهض بتحقيقه واخراجه استاذنا الفاضل الدكتور محمد الكتاني (5) من خال محورين اثنين.

الأول : مقدمات المتن ونعني به جملة امور اسوقها كالتالي :

أ - ضبط اختيار النص ، وفيه يبدو الباحث المحقق شديد الاحاطة بالمكتبة العربية الاسلامية وما ابدعه الفكر طيلة عهوده الزاهرة مقدرا اهميته ، ودوره العلمي والحضاري من خلال الروافد الاصلية والطارئة عليه ، المتصلة بالمذاهب الفكرية ، وما كانت تمتح منه زمن عصر الانوار. يقول المحقق عن الباعث على تحقيق **روضة التعريف** :

وقد يكون من بعض العوامل التى جعلتنى اختار تحقيق هذا الكتاب المساهمة في احياء كتاب يضاف الى تراثنا الاصيل في هذا الموضوع ولكن هذا العامل لم يكن وحده في الميدان، اذ ينبغي ان اعترف بان اختياري **روضة التعريف** يرجع الي عدة عوامل ، بعضها يتصل باهتمامي الوجداني بمشكلة الحب البشري ، ولا سيما الجانب الصوفي منه ، وبعضها يرجع الى

الجانب الموضوعي في عملية احياء التراث القديم نفسه، وبعضها يرجع الى محاولة الكشف عن الوجه الجديد الذي يضطلع به ابن الخطيب (6) .

ب- صلة المتن بصاحبه ، ويراد به الاطلاع على العناصر المؤثرة او الفاعلة في الإنسان والعصر معا ، ومحاولة تجميعها وتأليفها على نسق يطلع المخاطب على خصائص عصر ابن الخطيب، وحياته فيه اجمالا . والدارس لهوامش الكتاب يدرك ان محققه اعتمد ثلاثة وخمسين مصدرا ومرجعا تناولت كلها عصر المؤلف والسياسات التي كانت تسابق الارواح املا في الخلاص المؤقت على الأقل، والاطماع المتصارعة التي تلعب بالاهواء ، احال عليها جميعها في حواشيه (7) والمحقق لا يقنع بنقل الاخبار كما رواها الاخباريون المعاصر منهم واللاحق به ، بل نجده يتدخل فيما يروونه ويقررونه من احكام ، تدخل العالم بمساراتها ونتائجها ، ليخلص الى تقرير خلاصات يقوم بها المعوج ، ويلغي الشبهات القائمة حولها المعتمدة على غير دليل راجح ، خدمة للنص والعلم مما ، وفي هذا يقول: (تلك اثار ابن الخطيب ما بين مطبوع ومخطوط ومنسوب اليه بدليل او بغير دليل ، كما نبهنا عليها او اوردناها وأحلنا على مظانها) (8)

ج - الاهتمام بتحقيق موضوع الكتاب وسبب تأليفه وموضوعه وقيمته وعلاقية بحياة المؤلف ابن الخطيب ، والمحقق فيه يغني كل منحى من مناحيه بالكثير من الآراء السديدة ، عبر تحليل دقيق لكل الاشارات الظاهرة والخفية التي يزخر بها الكتاب ، الدالة على تقوية فضول التاويل حولها ، يقول المحقق :

فموضوع الكتاب اذن هو الحب الالهي بأوسع معانيه ، لان المؤلف لم ير في معارضة ديوان الصبابة " - وهو كتاب في اشعار العشاق والمحبين - وما يناسب سنه واهتماماته الروحية قسما بالموضوع الى الحب الالهي، ووجهه الوجهة التي تليق بمن يهدي ومن يهدى اليه (9) .

وهو رأي احسبه يدحض اقوال القائلين بخلافه الذاهبين في التاويل الى ما سواه كل مذهب بالرغم من حصول قوة القرينة المرجحة هذا المذهب علي ما عداه ، حبا في الجدل ، وان بدا ما يخالفه ويضعف مذهبه ، ويؤكد عندنا امر الاتصال بمضمون الكتاب ، وفهم ما اشتمل عليه من اشارات قوله في اسلوب التاليف الذي سما به ابن الخطيب الي عالم المتصوفة روحا ولغة ومعاني حتى كاد ان يتوقف عليه ، وقد اتسم بسمات الانتظام

والتعاقب والاستطراد ، والتنميق ، واعتماد السجع احيانا . وقد كان المؤلف في هذا الكتاب منهجي الترتيب ، ومع كونه قد حدد الصورة التي سيفرغ فيها موضوعه ، فانه لم يترك قارئه يلملم اجزاء هذه الصورة من خلال الصفحات الكثيرة بنفسه ، وقد يعييه التطويل ويثنيه عن تحقيق ذلك ما في الكتاب من حشو واستطراد، وهما عيب الكتب القديمة عامة .(10)

والاتصال الواعي بالمتن اسهم الي حد كبير في الوصول الي نتائج تبدو علامة بارزة ، تعرف بفكر المحقق القدير ، منها قيمة الكتاب التاريخية والادبية والثقافية والصوفية ، استنبطها استنباطا من الاشارات الدقيقة ، والتلميح الخفي الوارد في التعابير والجمل ذات البعد المزدوج ، وليس اصعب من لغة الصوفي المتمرس ، لانها لا تشبه في شيء اللغة العادية بالنظر لمدلولاتها المتصلة بالتجربة الصوفية المعقدة ، حسبما قال به كثير ممن خبروها ، واجتهدوا ايما اجتهاد في الكشف عنها .

د – منهج التحقيق : ونقصد به الطريقة التي انتخبها المحقق لانجاز مشروعه العلمي ، وهي تتالف من عناصر اهمها في نظرنا استقصاء البحث عن النسخ الخطية الممكنة للكتاب ، وهي مهمة عسيرة الطلب مستحيلة التحقيق سيما اذا كان المحقق من اولئك الذين لا يتقبلون بسهولة اساليب الاعتذار والتسويف ، والجهر بلا ندري ، وضعف الوسائل المادية والصحية ، وسواها من الاساليب والمعاذر التي يعرفها كل من اتخذ التحقيق سبيلا في مرحلة من مراحله العلمية .

ان استاذنا لم يسلم من كل ذلك ، وعبر بوضوح عن بداية رحلته الشاقة مع "روضة التعريف " بمجرد الاطلاع علي النسخة الأولى ، التي هداه إليها فقيد العلم والتراث الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني رحمه الله، والاقتناع بالإقدام على اخراجه ، يقول المحقق: (فاطلعت عليها، ووجدت في موضوعها المادة الصالحة للعمل ، وكان علي منذ ذلك الحين مواصلة البحث عن مخطوطات أخرى لهذا الكتاب في كل مكان) (11).

وبالفعل قادته رحلته العلمية الى جهات بعيدة ، الى المدينة المنورة، ودمشق، واسطنبول، وتونس، فضلا عن مدن المغرب المترامية الأطراف، كالرباط وفاس وتطوان، ومراكش وسواها، وحصل في رحلته على زاد نفيس، ومادة ثرية للبحث لا يقدر قيمتها الا من اشركه تجربته، يتمثل ذلك الزاد في احدى عشرة نسخة خطية متفاوتة القيمة،

تطلبت منه زمنا للتنقل، وزمنا للمكاتبة وانتظار الرد، وأزمانا للقراءة والمعارضة والتخريج وترجيح ما يصح اعتماده من الروايات اصلا لها جميعها ، وكل هذا ندركه من قوله:(وقد حاولنا الاطلاع علي جميع هذه النسخ جهد الإمكان ، وسلامتها من الاخطاء، وقدمها، لترجيح بعضها علي بعض يحسب تلك الاعتبارات، واعتماد واحدة منها باعتبارها هي الأصل في عمل التحقيق ، فمضيت في هذا السبيل)(12).

ومنها تقديم وصف شامل للمتن المحقق ، والمكان المنسوبة اليه تلك النسخ وناسخيها وقياسها ، ورقمها ، وناسخيها ، وعدد أوراقها، وسطور كل ورقة ونوعية الخط الذي كتبت به ، وبداتها ونهايتها واصطناع الرموز للتفريق بين جهاتها ، وبين ماله صلة بتفسير المتن وبيانه (13).

وقد اكد المحقق أهمية المنهج في مقال لاحق (14) له ، نشره بمجلة كلية الآداب بتطوان ، ذهب فيه إلى القول بضرورة ضبط قواعد المنهج المعتمد حتى يسلم النص من العيوب ، لأن الهدف المتوخى من وراء تحقيق أي نص كيفما كان موضوعه هو توثيقه وإخراجه علي الصورة التي ارتضاها له مؤلفه ، يقول : (والبداية دائما من الفكرة قبل العمل، ومن المنهج قبل الممارسة ، إلا أنه لا ينبغي للمحقق ان ينساق كثيرا للتنظيرات وتعدد المناهج في هذا المجال ، بالرغم مما للتنظير من اغراء فكري . فالقاعدة الذهبية في التحقيق او المخطوطة التي هي هدف المحقق هي التي تفرض شروط العمل ومنهجه ، فمادة المخطوطة العلمية ، وحالتها النصية ، ونسبها للمؤلف ، وتعدد المخطوطات او عدمه للكتاب ، وعلاقة بعضها بالبعض ، ومستوى الناسخين الفكري او العلمي ، وغير ذلك من المواصفات التي لكل مخطوطة حظ منها ، يعين على التحقيق ، اويضع في سبيله كل الصعوبات والمزالق ، كل ذلك هو الذي يملي على المحقق منهجية ملائمة لطبيعة المواصفات التي توجد عليها المخطوطة) (15) .

ولتحقيق اثباتية النص اهتدى المحقق الى اعتماد موقف علمي صارم من متن الكتاب ، في مقدمة اصوله ، تصحيح ما علق به من اخطاء النساخ ، وتتميم ما يخل بالمعنى بواسطة الزيادة فيه متي تحقق معها الوضوح والانسجام ، وكان لها حضور في بعض النسخ ، لان امر الفساد في التركيب لا يمكن رده للمؤلف ، ويبرر عمله ذاك بقوله:

اننا نحقق متن المؤلف ، لا كتابة الناسخ لذلك المتن ، فقد يكون المؤلف وهذا هو الغالب – عالما وادبيا ، او كاتبا مجيدا ، لا يصدر عنه الخطأ ولا يمكن تصور فساد الجملة اوركا كيتها في المتن الا من جهة الناسخ الذي يعرض له من السهو والطفلة ما يشوه الجملة ، فلا يكون من الموضوعية في شيء ان يترك المتن متعثرا في اخطاء النساخ بحجة الامانة في التحقيق .(16)

والموقف يختلف به مع اولئك المحققين الذين اختاروا الحياد منهجا لهم ، فاثبتوا ما في المخطوطة من اخطاء وتحريفات مكتفين بالتنبيه عليها احيانا ، ان هم ادركوا الاضطراب الحاصل في نظام تأليف الجمل او انحراف المعنى عن حقيقة السياق العام . ونعتقد ان من قواعد تحقيق المتن ، قيام المحقق بتلك المواجهة المشروعة مع الاحالة على كل ما استدرك على الناسخ من اخطاء ، سواء بالزيادة او الحذف، حتى يدرك القارىء وحدة النص ، وحتى يدرك القاريء ايضا ما يأخذ وما يدع . وهذا شأن استاذنا وشأن طريقته في المواجهة المشار اليها، يقول:

واضعين جميع الزيادات بين القوسين المعقوفين مشيرين في الحواشي الى مصدر تلك الزيادة ، وربما سمحت لنفسي ان نضيف إلى النص بعض الزيادات التي لا تعدو الكلمة والكلمتين او الجملة القصيرة ولو لم تكن في النسخ الاخرى في حالتين :

1 – اذا كان النص في جميع النسخ لا يستقيم الا بتلك الزيادة من حرف عاطف او جار او نحو ذلك ، وهو قليل نادر، وقد نبهنا عليه في الحاشية.

2 – اذا كان النص في جميع نسخه لا يستقيم الا بغير زيادة نجدها في المصادر التي نقل منها المؤلف ، سواء ذكرها او لم يذكرها ، كما فعلنا في بعض الفقرات . (17)

الثاني : ماله صلة بالنص . ويراد به جملة امور تتصل اتصالا وثيقا بظاهر النص وخباياه من الدلالات اللفظية والمعنوية ، ياتي في مقدمتها ، الفصل في قضية الهامش المخصص للفروق بين الروايات الحاصلة في النسخ المتوفرة لدى المحقق بعد ان يكون قد حللها ونقدها، وقلب كل الوجوه الممكنة فيها ، واثبت المناسب منها للسياق اللفظي والمعنوي ، ضمانا لانسجام التاليف وهي من اشق ما يعترض المحقق الحق ، اذ به يدرك عمله ، وتتجلي قيمته بين العلماء المحققين ، خاصة

اذا تعلق الامر بتعدد النسخ كما حصل في كتاب روضة التعريف(18) او تعلق باسلوب مغرق في الصناعة والتجريد ، والتكثيف، والموسوعية المعتمدة على الاخذ من التراث المتقدم ، كاسلوب ابن الخطيب هذا.

والمحقق اختار هامشين ، ليفصل فيما له صلة بالرواية ، وفيما له صلة بالنص من حيث الشروح والتعليقات التي تخدم النص. والقاريء يختار ما هو في حاجة اليه ، وقد بلغ عدد كلمات الفروق المشار اليها في الهامش الاول سبعا وثلاثمائة والف كلمة ، يقول المحقق، وقد قسمنا التعليقات الى صنفين ، وجعلنا كل صنف مستقلا عن الآخر ، فالمقارنات بين الاصول الخطية فيما يتعلق بالفاظ النص ضممناها مستقلة في الحاشية الأولى من صفحات الكتاب ... والتعليقات من الشروح والتخريج وغيرها جعلناها في الحاشية الثانية... ليكون القارئ قادرا علي التمييز بينهما ويرجع الى احدهما حسب حاجته) (19) .

والأمر الثاني يتضمن النظر فيما له صلة بلغته ، ومشمولات التراكيب ومصطلحاته ، وما يعمد اليه المؤلف من توظيف اشكال تعبيرية سائرة تأخذ مكان الاستشهاد ، تصريحا او تلميحا ، معزوة وغير معزوة . والمحقق قد تولى استخراج تلك الاشكال ، واحال عليها في مظانها ، وبين المراد منها في الهامش الثاني . وبلغ عدد التعليقات التي اشتمل عليها ثلاثة عشر وسبعمائة والف تعليق . موزعة على القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية ، والاعلام ، ومصطلحات العلوم والفنون ، والتصوف ، والامكنة ، والافلاك ، والآثار ، والمقدسات، والمذاهب ، والطوائف والامم ، والانساب ، والأشعار ، والرسائل، والكتب .

ولا داعي لحصر مجموع الاشكال التعبيرية التي صاحبت تجربة ابن الخطيب في روضته الصوفية ، اذ يكفي الرجوع الى صفحة او جملة من الكتاب للاطلاع على عدد هائل يتشعب ليضرب في كل ناحية من العلوم التي تتصل بموضوعه .

والمحقق وهو يتتبع ذلك يتمثل لنا باحثا متمكنا من اسرار تراكيب **روضة التعريف**،المستوحاة من ثقافته ، وعالمه الخاص والعام، والمصادر التي يغترف منها في خلوته ، ودليلنا في تفسير ذلك مايلي :
1 – الوقوف على منقولات ابن الخطيب ، وفيها يكشف عن قدرها في

اكثر من موضوع ، ثم يحيل على مصدر النقل ، منها قوله : (ينقل المؤلف هنا عن ابن الدباغ) (20)وقوله عن طبيعة نقله (ويشير المؤلف الى كونه ينقل في هذا الموضوع عن منازل السائرين، للهروي والواقع انه ينقل نقلا كليا (حرفيا)، وان كان يجمل ويختصر) (21) وقوله عن مدى استفادة المؤلف من غيره (وتجدر الإشارة هنا الى ان المؤلف هنا يستفيد كثيرا من كتاب الإحياء في قسم المحبة) (22) وقوله عن حجم النقل (هذا الكلام منقول بنصه من المقالة الخامسة في حكمة **الاشراق** وهي مقالة في المعادن والنبوات والمقامات) . وقوله في مستوى النقل وطبيعته (كل ما اورده المؤلف في هذا الفن منقول من امام الاشراقيين السهروردي من كتابه حكمة **الإشراق** ولكنه نقل رؤوس فقراته ، ولخص رأيه تلخيصا مخلا) (24) وقوله (الملاحظ ان ابن الخطيب في هذا الفصل ينقل بتصرف عن رسالة احوال النفس لابن سينا) (25) وقوله في تعدد نقوله : (ينقل ابن الخطيب في هذا الموضوع عن ابن سينا وابن سبعين ، ولكنه كان يخالفهما ، فيجعل القوة الذاكرة في مقدمة الدماغ ، وهي عندهما في مؤخر الدماغ) (26) وقوله في الموضوع المتقدم (هذا مأخوذ من تقسيمات ابن عربي)(27).

وغير هذا كثير في هوامش المحقق ، وقد تفطن الى الأسباب التي دفعت ابن الخطيب الى الاغارة على كلام غيره ، فقرر انه ايجاز منه وتركيز ، للفكرة ، وتحوير من قصد إلى قصد آخر عارض . ولا يخفى ما في هذا الموقف من دفاع عن المؤلف حتى لا يؤخذ بعيوب النقل . يقول عن هذه الظاهرة : (فانه يجب ان نؤكد اننا لم نلزم المؤلف بان يكون قد نقل عن غيره نقلا حرفيا ، بل قدرنا انه ربما قصد الى الايجاز والتحوير ، وتركيز الفكرة) (28).

2 – الاستقصاء في بيان الاشارات اللغوية قصد تقريب المعنى الحقيقي للنص ، من خلال البحث عن الوجه المناسب للفظ متى تشكك في قدرة القارئ على الربط بين اجزاء التركيب ومحمولاته ، يعتمد في ذلك على سوق عدد هائل من الشواهد التي يلجأ اليها اللغويون في العادة ، في مقدمتها القرآن الكريم والشعر العربي يقول في شرح كلمة " الري " بكسر الراء لعل المقصود هنا " الري " بكسر الراء اي المنظر الحسن بملحظ كونه ارتوى مما يقيم حسنه. ومنه قوله تعالى (وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم اكثر اثاثا ورياء في قراءة المدينة) (29) ويقول في شرح " الداية " الذي يعني الظئر، الداية " الطئر ، وهي المرضع غير الأم ومنه قول الفرزدق:

ربيبة دايات ثلاث ربينها يلقمنها من كل سخن ومبرد (30)
ويقول في شرح كلمة "السرحة" السرحة : الشجرة العظيمة ، وقد يكنى بها عن المرأة المعشوقة ، ومن ذلك قول الشاعر حميد بن الارقط :
ابى الله الا ان سرحة مالك على كل افنان العضاه تروق (31)
ويحيل على مصادر بعينها لاستكمال الشرح المتعلق بكلمة أو رأي من الآراء حين يحس بصعوبة التقرير في شأنها ، أو حين يحس بفائدة البحث فيما يحيل عليه ، يقول (انظر مزيدا من شرح هذا الرأي في **مشارق أنوار القلوب** ص 52 – 58) (32) .
ويتصل بباب الشروح اللغوية أيضا التوسع في شرح المثل ، فيذكره ويذكر منشأه ، ومعناه، ثم يحيل على مصدره أو مصادره والآيات القرآنية المذكورة كلا او جزء .
3 – تخريج الأحاديث النبوية سواء ذكرت بلفظها أو معناها ، متصلة أو مقطوعة ، مع بيان صحتها أو ضعفها ، طلبا لصحة الاستدلال بها في بابها ، وفي هذا يقول : (حتى يدرك القارئ صلا حيتها للاستدلال بها في الباب الذي سبقت فيه ، أو الاحتجاج الذي اجتلبت له ، لا سيما في مجال التصوف الذي كثر فيه التدليس والاحتجاج بآثار الرسول (ص) ، وخلط الحق في ذلك بالاباطل دون تمييز ، تطاولا على العلم ، وتلبيسا على العوام) (33).
والباعث على التقصي في احوال نص الحديث أيضا لفت نظر القارئ الى ضرورة التأني في أخذ ما يسند للرسول (ص) من اقوال وافعال . (ولكننا حين خرجنا تلك الآثار رجعنا الي المظان المشار اليها في كل تخريج ، وحملنا مسؤولية ذلك لأصحابها ، وان كنا نجلها ونجل اقدار مؤلفيها عن كل ريبة ، وانما هو لفت نظر القارئ الى اعتمادنا على من سبقنا في هذا الباب) (34) .
ومن نماذج نقده لمتن الحديث قوله (هذه الجملة جزء من حديث نبوي ورد في المقاصد الحسنة ص 284 ، وصار مثلا ، ومعناه : ان من الناس من لا يصلح له الا الفقر ، فلو اغتنى لفسد) (35) وقوله : (هذا حديث منسوب الى الرسول ص الف بعض الفقهاء رسالة مع كونه لا اصل له) (36) وقوله : هذا الحديث لا اصل له ، والمشهور : (العلماء ورثة الانبياء) تعليقا على قول المؤلف : (علماء امتي كأنبياء من قبلهم) (37) وقوله :(لم اقف على هذا اللفظ للحديث، وهناك لفظ "علماء امتي انبياء بني اسرائيل" وهو لا اصل له ، والمشتهر في الموضوع حديث : "العلماء ورثة الانبياء" رواه احمد وابو داود والترمذي عن ابي الدرداء مرفوعا ، وان ضعفه

غيرهم)(38) وقوله : (وإسناده جيد) (39) وقوله : (وله لفظ مختلف) (40) إلى غير ذلك من النقدات والتوجيهات .
وله اقوال اخرى في كثير من التعاليق اهتم فيها بالتنبيه على ماله صلة بالحديث سواء من حيث روايته أو صحته ، أو ضعفه وضمن كل ذلك الفهرس الذي أتى فيه على جميع الأوجه (41) .

4 – التعريف بالمؤلفات : لم ينس أن يعرف بالمؤلفات النادرة ، تعريفا مجملا مفيدا ، كقوله في ديوان الصبابة : (هو ديوان الصبابة للفقيه الحنبلي أبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني المعروف بابن ابي حجلة المتوفى سنة 775 هـ ، وقد طبع هذا الديوان بمصر سنة 1302) (42).

5 – العناية بالمصطلحات مبعثه القاء مزيد من البيان على الجوانب الخفية في المتن ، تعود في جزء منها الى ما كان متداولا من لغة بين أهل التصوف ، وبين رجالات المذاهب الكلامية والفلسفية ، وحضورها بكثافة في الكتاب املى على المحقق التوسع في مظانها كي يفهمها للمتأخرين في عصرنا ، يقول :
لإلقاء الضوء علي هذا الفصل المعتمد من الكتاب يحسن الالمام بمذهب وحدة الوجود ، وهو مذهب يرى اصحابه أن الوجود حقيقة واحدة ، أما التعدد فيه فأمر قضت به الحواس الظاهرة ، والعقل الانساني المحدود لإنه يعجز عن ادراك الوحدة الذاتية والكلية للأشياء (43) .
ويقرر الأمر نفسه حين يشير الى المصطلحات التي لا تنفصل كثيرا عن المذاهب الكلامية فيما يخص لون لغتهما التي يتعلق بها فهم النص وسياقاته . يقول :
اعتبرنا في فهرس المصطلحات ماورد منها باعتباره مصطلحا في اي فن من الفنون ، لأن الكتاب شبه موسوعة في بابه، ولكي نرفع الغموض عن تلك المصطلحات في الفهرس اذا كانت من المشترك الاصطلاحي حددنا نسبتها الاصطلاحية ، ولم ندرج في هذا الفهرس المصطلحات الصوفية المعتادة (44) .

6 – تخريج الابيات الشعرية ، وتتميم الناقص منها ، حين يأتي المؤلف بصدورها او اعجازها ، أو جزء منها ، وتصحيح رواياتها تم الاحالة على مظانها (45).
والكتاب اشتمل على مائة والف بيت ، نظمها شعراء وصوفية، يعتبر معظمها في حكم المفقود من ذاكرة الناس ، لكن لها حضور قوي . في الاستشهاد بها تصريحا او تلميحا . والمحقق اضطلع بتخريجها واسنادها الى اصحابها ، بعد ان جاءت في الكتاب غير

معزوة ، ولتبرير عمله فيها يقول :
اننا حاولنا عزو الشعر الى اصحابه في نطاق ما مكنتنا منه الذاكرة والاطلاع الشخصي لأن كثيرا من الشعر الوارد في هذا الكتاب من أشعار الصوفية الذين لم تجمع اشعارهم ولم تفهرس بحيث تمكن الباحث من الوقوف عليها متى شاء (46).
وقد يلجأ الي زيادة بيت في الهامش غير مذكور في النسخ الخطية متى اعتبر الزيادة مفيدة للشرح ، يستقيم بها المعنى ويتوضح به البيت المستشهد به في المتن ، كما فعل مع بيت علي بني محمد التهامي (47) وبيت ابي ذؤيب الهذلي (48) وبيت غيلان بن شجاع النهشلي (49) وبيت المتنبي (50) وعجز بيت كثير عزة (51) .
وأما الابيات التي وردت ناقصة فصنيعه فيها أن يأتي بصدورها أو اعجازها ، ثم ينسبها لقائلها (52) وان اورد منه المؤلف جزء صغيرا اتى به كاملا (53) وقد يلجأ الى التذكير ينسبتهما كما فعل مع البيتين اللذين ينسبان لعقبة بن كعب بن زهير ، وكثير عزة(54).
7 – نقد المتن : إن ما يميز هوامش المحقق التدخل في العبارات ، ونقدها حتى يستقيم الفهم لها ، وهو يأخذ عنده أشكالا ، منها تصحيح النسبة كقوله : (عبارة تنسب لعامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس العنبري البصري الذي قال فيه مالك بن دينار: "هو راهب هذه الأمة ". وينسبها بعضهم لأبي بكر ، والبعض لصهيب الرومي) (55) ولم يهمل الاشارة الى الاحالة على مصدر كل رواية ، ففيما يتصل بالأولى احال على الكواكب الدرية ج 128/1، والثانية على جمهرة الأولياء ج 136/1)(56). ومنها نقد الاثار المروية كقوله : (ينسب هذا القول لأبي بكر الصديق ، وقد رواه أبو نعيم ، في الحلية عن ابن سينا ، وسنده ضعيف ، ولكن معناه صحيح) (57) ومنها ما جاء على صورة استدراك كقوله :(هنا اسقاط لا محالة ، لأن المؤلف التزم التنصيص على الورقات الثلاث التي يفرعها عن الغصون) (58) . ومنها ما يتصل بالاضطراب الحاصل في العبارات الذي يرده الى العجلة ، وكثرة القول ، كقوله "ولكنه لا يخلو ايضا من الالتواء والضعف والتفكك، يصيب عباراته احيانا ، بسبب العجلة التي الف فيها ، وطابع النقول التي تحكمت في تأليفه ، وأعجلت صاحبه عن احكام صياغته على صورة مطردة في سائر كتابه" (59).

إن ادراك المحقق للغموض والتفكك والاضطراب ، حتم عليه الاشارة الى بعض المصادر التي تولت شرح ذلك ، كقوله (انظر شرح هذه المعاني في اماكنها من كتاب " مدارك السالكين " لابن القيم ، إذ عقده المؤلف علي كتاب " منازل السائرين) (60) وقوله (يفسر الهروى ذلك بقوله) (61) .

ويعلق على قول المؤلف حين يضمن كلامه كلام غيره (هذا المعني مأخوذ من بيت المتنبي :

أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم في من شحمه ورم (62)

ويتولى الباحث احيانا توجيه معنى العبارات كقوله : (أراد بالعقول المفارقة ، العقول التي تعقل بها الأشياء ، وهي عارضة للنفس زائلة بزوالها) (63)

قيمة الكتاب المحقق ، ان هوامش الكتاب تلخص بحق الجهود العلمية التي نهض بها المحقق ، إذ يكفي ان نقول ان هامش الفروق ضم سبعا وثمانين وثلاثمائة والف هامش ، وان هامش الشروح والتعليقات اشتمل على ثلاث عشرة وسبعمائة وألف احالة وان فهارس الكتاب الفنية وصلت الى تسعة ، وكلها تمكن الناقد النزيه من الوقوف على خصائص التحقيق العلمي الجاد الذي اضطلعت به الجامعة المغربية في النصف الثاني من هذا القرن ، وتتمثل في الاطلاع الواسع علي مصادر المكتبة العربية الاسلامية ، فالمحقق اوصل عددها في الجانب المتعلق بحياة ابن الخطيب وعصره وآثاره الى خمسين مصدراً ، منها ما كتبه المؤلف نفسه ، ومنها ما كتبه معاصرون عنه ، ومنها ما كتبه المتأخرون عنه، ومنها ما كتبه المؤرخون ومنها ماكتبه بعض من حققوا آثاره، ومنها ما كتبه بعض مؤرخي الأدب ، ومنها ما كتبه بعض المستشرقين، ومنها ما كتبته بعض الموسوعات . واما المصادر والمراجع المعتمدة في تحقيق المتن فعددها خمسة ومائتا مؤلف ، فيها ست دوريات ، وسبعة مراجع باللغة الأجنبية .

والخاصية الثانية هي الاحاطة الواعية بعلم التحقيق ومناهج المحققين ، نقف على ذلك في موضعين اثنين ، الأول ينتقد فيه طريقة بعض المحققين الذين يغضون ابصارهم عن الأخطاء تحت طائلة الأمانة العلمية ، يقول (وقد جرى بعض المحققين على أن يكونوا أمناء في نقل نص المخطوطة المعتمدة لديهم ، دون تغيير ، حتى ولو كان النص فيها

يحتوى اخطاء ، ثم ينبهون في الحواشي على ما في غيرها من صواب ، وهذا ليس في رأيي من مستلزمات التحقيق) (64) والثاني يرسم فيه طريقته ، وهي تخالف الطريقة السابقة – التي يحقق بها بناء النص كما اراده صاحبه ، لا كما اراده النساخ ، يقول :

اهتممت بإن احقق واتبت ما تقتضيه اقامته سليما رعيا للأصل الذي صدر عن مؤلفه ، وبذلك يكون النص المثبت عندي لكتاب ابن الخطيب هو ما تعاونت على تقديمه كل النسخ التي بين ايدينا عنه ، وكذا المصادر التي نقل عنها المؤلف ، لأننا كنا نحقق النص ، ولم نكن ننقل عن مخطوطة بذاتها ، تزكية لها ، بغير مبرر. (65)

وتبد و خطة الدكتور محمد الكتاني بارزة ايضا في بيانه الهام الذي قدم به لفهارسه التي راعي فيها افادة الباحثين الذين اتوا بعده ، وتأثروا بطريقته ، يقول : (اعتبرنا في وضع فهارس هذا الكتاب نوع حاجات الباحثين فيه ، وعلى ضوئها تركنا ما لا فائدة وراءه منها)(66) .

واعتبر ان الكتاب وحدة لا تنفصم عراه ، تتألف من ثلاثة عناصر هي المقدمة ، والمتن ، والحواشي ، ونبه الى خطورة الفصل بينها او محاولة اقصاء واحد منها (67)

ويعود في فترة لاحقة ليؤكد على هذه الطريقة التي حققت نتائج علمية باهرة ، يقول :

الطريقة الثانية تقوم على منهج الطريقة الأولى من غير نقصان او تساهل في اقامة متن النص على نحو ما يلتزم به اصحاب الطريقة السابقة الا انها لا تكتفي بذلك ، وانما تعمل علي توسيع مجال الاشارات العلمية فتعمل علاوة على تذييل كل صفحة بالمقارنات بين كل ما اختلفت فيه المخطوطات من الفاظ المتن ، تعمل على تخريج الآيات والأحاديث والأشعار والامثال ، وشرح المصطلحات الفنية المستعملة في المتن ، التي يغلب على الظن خفاء معناها على غير المتخصصين ، وتعمل ايضا على تذييل التحقيق بفهارس عامة متنوعة تكون بمثابة مفاتيح للراغبين في الاستفادة من المتن المحقق لغاية من غايات البحث العلمي (68) .

ويعني بمنهج الطريقة الاولى حصر تحقيق النص في اعادة قراءته من لدن المحقق في جميع المخطوطات المتوفرة ، ثم يجتهد في التقصي والاطلاع على خباياها ، ويعمل على ان يؤلف المتن على صورة تكون اقرب الى صورته الاصلية التي صدرت عن المؤلف ، وذلك بتنقيته من الشوائب العالقة به كالتصحيف واخطاء الاملاء ، والبتر ، وغيرها(69)

وأما الثالثة فهي التعمق في فهم المتن المحقق ويتجلى في حديثه عن موضوع الكتاب ، وقيمته من خلال طريقة ابن الخطيب في الاستفادة من المصادر التي اعتمدها ونقل منها في روضه التعريف خاصة ، دون عزو ، مع ان هذه المصادر مغمورة في مجملها ، يقول:

وليس بين ايدينا اليوم كل هذه المراجع ، اذ لا نعرف منها الا كتاب ابن الدباغ ، وبالرجوع اليه نجده قد استفاد منه في حدود ضيقة ، اما ما سوى ذلك من الكتب المؤلفة في نفس موضوعه او ما اتصل به فلم يذكر منها المؤلف واحدا ، بالرغم من كونه استفاد منها كثيرا ، ونقل عنها احيانا نقلا حرفيا ، وكتابه يشهد بانه كان واسع الاطلاع على كتب القوم ، او أنه كان حين رسم خطة تأليفه يستحضر في ذهنه مظان تلك الموضوعات التي سيتناولها ، والمصادر التي يعود اليها. (70)

وينتقد ابن الخطيب ثانية في طريقة الاستفادة فيذكر انه مضطرب المنهج ، لا يثبت على حال واحدة ، ولا يلتزم خطة دقيقة . ولعل وراء ذلك دواع واسباب اهمها في نظر المحقق الاحواج الذي بات يستشعره حين ينتمي لمذهب من المذاهب المعروفة ،يقول المحقق:

وطريقة المؤلف في الاستفادة من تلك الكتب غريبة وغير مطرده ، فهو ينقل منها احيانا بالنص دون اشارة اليها ، واحيانا ينقل مع تصرف واختصار ، منبها الى المؤلف ، وتارة ينص على أنه يورد كلام مؤلف بعينه .

فابن الخطيب ينقل عن مصادره نقولا متعددة دون التزام بذكر من ينقل عنهم ، ولعل ذكر بعض اولئك كان يحرجه لأنهم كانوا معروفين بمذهب معين لا يحب ان يقال عنه انه تأثربهم او نقل عنهم ، كابن سبيعين ، وابن العربي ، والسهروردي ، ومع ذلك فاصالة العلم كانت تقتضي منه غير هذا الاسلوب ، وان كان عذره في هذا ان القدماء جميعا لم يروا في ذلك بأسا .(71)

ورابع الخصائص تتصل باسلوب المحقق الذي نقرأ فيه متانة العبارة ، ورشاقة التعبير ، واحكام صنعة التأليف ، مع الميل الى الاستسلام احيانا للخيال الذي يكسب النفس انشراحا ، والفكر اتزانا ونصاعة ، وهي بقايا ترسبت في ذاكرة المحقق ايام كان يقرأ لجبران وسواه من المهجريين فيما نظن يقول :

واحب ان أؤكد في غير تحفظ ان مجرد التفكير في هذا الموضوع يعبر وحده عن القلق الروحي الذي كان يعانيه ابن الخطيب ، وهو في اخريات ايامه ، بين مغريات السلطان ، والجاه والنفوذ ، وبين هواتف الضمير ، وروادع الهوى ، وهجس الخاطر بوخامة المصير الذي كان ينذر المملكة الغرناطية الصغيرة ، وهي تختلس لياليها البيضاء من سواد ايامها الحالكة .(72)

وقوله (فاستوى له الموضوع روضة غناء ، ذات ارض طيبة ، وشجرة باسقة ، ذات فروع وأفنان ، وثمرات وأزهار) (73) وقوله (تلك هي نواحي الموضوع الذي استوفاه الكتاب وتقصاه ، والصورة التي رسمها له المؤلف فملأ اقطارها ، والشجرة التي اغترسها ورماها ، وكان بحق طائرها الشادي الغريد) (74) وقوله (مما يستولي على القارئ فيستسلم بذهنه وقلبه ، وهو يقرأ متنقلا في اطوار من التفكير والشعور ، مترنما مع الشعراء ، متأملا مع الفلاسفة ، متألها مع الحكماء ، مستشرفا عوالم الملأ الأعلى مع الصوفية والعارفين) (75) .

وأما خامس الخصائص فهي التحرر الفكري الذي لايدين بالولاءلسلطان الحرية ، والعلم ، اللذين يلغيان الخرافة ، والخيال ، والوهم ، والفرضيات التي سادت قبل الكشوف العلمية وثورة الرياضيات والفيزياء . يقول المحقق في تعليق له على ابن الخطيب في مسألة تفسير النظام الكوني:

لا نحتاج للتنبيه على كون المؤلف ومن ينقل عنهم من الفلاسفة بصدد تفسير النظام الكوني ، يصدرون جميعا عن تصور قديم للنظام الفلكي الذي وضعه اقليدس ، وبطليموس ، وارسطو ، وحكماء الهند والفرس القدماء ، وقد اصبح تصورهم اليوم خرافيا ، بعد التطور العلمي الذي حدث وغير فهمنا للنظام الكوني ، فقد تم الإنتقال من حسبان الارض مركزا للكون ، واعتبار فلك القمر العالم المادي الوحيد .. وأصبح الكون المادي يدرس علي اساس معطيات الكشوف العلمية ، وقوانين الفيزياء ، والرياضيات ، التي لامجال فيها للخيال

والوهم والفرضيات الدينية ، كما كان الشأن عند القدماء(76) .

ويكرر موقفه من الشعوذة والخرافة اللتين طلبهما ابن الخطيب في كتابه فقال :

الحكاية ، واللتان بعدها ، كل منها ينافي بل يعاكس الحقائق التي اقرها الاسلام ... وواضح ان واضعيها ان لم يكونوا ضالين فهم يدسون للعامة في عقيدتهم ، ويخلطون بين الاسلام والرهبنة في صورها المتطرفة ، وكان حريا بابن الخطيب ان ينزه كتابه عن هذه الخرافات او الشعوذة المفضوحة (77) .

إن المحقق في نظرنا يستمد اصوله الفكرية من النهضويين الاحيائيين الذين تأثر بهم من خلال ماكتبوه ، يقول في التراث المخطوط:

وقد لا يعنينا اليوم ان ننظر الى بعض موضوعات هذا التراث الضخم ، والقضايا التي تناولها من الزاوية التي كانت تشغل بال الناس يومئذ ، ولكننا مدعوون رغم ذلك الى الاهتمام بتلك الموضوعات ، والتعرف من خلال هذا الثراث جميعه علي الخيط الموصول لتطورنا الحضاري الذي نقف اليوم على آخر طرف منه . (78)

الهوامش

1 – شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي ج 172/3 ، ط 2 مطبعة الاستقامة – القاهرة .

2 – نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون ، ج 3/1 ، ط 2 . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر .

3 – يخصص بحثنا " التحقيق والمحققون في المغرب المعاصر، دراسة في التاريخ والاتجاهات والمناهج " حيزا لكل الذين اسهموا في هذا العلم بنصيب ، والمؤلفات التي انجزوها اما تحت اشراف مشرف أو خارج ذلك .

4 – يراد بالمغرب الاصطلاح القديم الذي يعني المغرب والأندلس .

5 – حققه تحت اشراف استاذنا الدكتور أمجد الطرابلسي ، ونال

به صاحبه شهادة دبلوم الدراسات العليا في الآداب من كلية الآداب بالرباط بتاريخ 2 يونيو 1969 ، والكتاب طبع طبعة اولى في مجلدين، طبعة دار الثقافة عام 1970

6 – انظر روضة التعريف ج 8/1

7 – انظر روضة التعريف ج 15/1 ها 2

8 – انظر روضة التعريف ج 34/1

9 – انظر روضة التعريف ج 1 /39

10 – انظر روضة التعريف ج 1 /40

11 – انظر روضة التعريف ج 1 /61

12 – انظر روضة التعريف ج 1 /62

13 – انظر روضة التعريف ج 1 /63 – 71

14 – انظر مقالة " اوليات منهجية لتحقيق التراث المخطوط: روضة التعريف نموذجا " ، منشورات كلية الآداب بتطوان ، ندوات رقم: 4 . ص 43 وما بعدها .

15 – انظر المرجع نفسه ص 43

16 – انظر المرجع نفسه ص 46

17 – انظر روضة التعريف ج 1 /72

18 – انظر روضة التعريف ج 1 /61 وما بعدها

19 – انظر روضة التعريف ج 1 /76

20 – انظر روضة التعريف ج 1 /384 ها 832

21 – انظر روضة التعريف ج 2 /467 ها 1009

22 – انظر روضة التعريف ج 1 /399 ها 855

23 – انظر روضة التعريف ج 2 /569 ها 1381

24 – انظر روضة التعريف ج 2/574 ها 1390

25 – انظر روضة التعريف ج 1/141 ها 180

26 – انظر روضة التعريف ج 1 /142 ها 181

27 – انظر روضة التعريف ج 1 /157 ها 205

28 – انظر روضة التعريف ج 1 /73

29 – انظر روضة التعريف ج 1 /95 ها 32

30 – انظر روضة التعريف ج 1 /95 ها 28

31 – انظر روضة التعريف ج 2/513 ها 1088

32 – انظر روضة التعريف ج 1 /399 ها 855

33 – انظر روضة التعريف ج 1 /74

34 – انظر روضة التعريف ج 1 /74

35 – انظر روضة التعريف ج 1 /96 ها 40

36 – انظر روضة التعريف ج1 /137 ها 172
37 – انظر روضة التعريف ج2 /426 ها 903
38 – انظر روضة التعريف ج2 /509 ها 1074
39 – انظر روضة التعريف ج2 /524 ها 1107
40 – انظر روضة التعريف ج2 /531 ها 1127
41 – انظر روضة التعريف ج2 /714 و 724 وما بعدها
42 – انظر روضة التعريف ج1 /90 ها 8
43 – انظر روضة التعريف ج2 /584 ها 1403
44 – انظر روضة التعريف ج2 /713
45 – انظر روضة التعريف ج1 /99 ها 50 و 101 ها 58 و 289 ها 616 .
46 – انظر روضة التعريف ج1 /75
47 – انظر روضة التعريف ج1 /187 ها 317
48 – انظر روضة التعريف ج1 /192 ها 228
49 – انظر روضة التعريف ج1 /336 ها 712
50 – انظر روضة التعريف ج1 /99 ها 50
51 – انظر روضة التعريف ج1 /347 ها 743
52 – انظر روضة التعريف ج1 /100 ها 55 و 192 ها 331 و 254 ها 516 و 261 ها 542 و 373 ها 811 و ج2/402 ها 858 و 489 ها 1044
53 – انظر روضة التعريف ج2 /707 ها 1701 و ج1/253 ها 514
54 – انظر روضة التعريف ج1 /559
55 – انظر روضة التعريف ج1 /250 ها 500
56 – انظر المصدر والصفحة والهامش
57 – انظر روضة التعريف ج2 /434 ها 924
58 – انظر روضة التعريف ج2 /468 ها 1010
59 – انظر روضة التعريف ج1 /49
60 – انظر روضة التعريف ج2 /481 ها 1029
61 – انظر روضة التعريف ج2/483 ها 1032 و 484 ها 1033
62 – انظر روضة التعريف ج1/93 ها 19
63 – انظر روضة التعريف ج1/90 ها 6
64 – انظر روضة التعريف ج1/74
65 – انظر روضة التعريف ج1/74
66 – انظر روضة التعريف ج2/713

67 – انظر روضة التعريف ج713/2
68 – انظر مقالة " اوليات منهجية لتحقيق التراث المخطوط" ص 47.
69 – انظر المقالة ص 46
70 – انظر روضة التعريف ج45/1
71 –انظر روضة التعريف ج46/1
72 – انظر روضة التعريف ج39/1
73 – انظر روضة التعريف ج39/1
74 – انظر روضة التعريف ج44/1
75 – انظر روضة التعريف ج48/1
76 – انظر روضة التعريف ج558/2 ها 1355
77 – انظر روضة التعريف ج693/2 ها 1679
78 – انظر روضة التعريف ج7/1

"روضة التعريف"
بين تحقيقي محمد الكتاني وعبد القادر أحمد عطا

محمد بنعبد الجليل
كلية الاداب - مكناس

يتضح جليا عند فحص النصين ان ذ. محمد الكتاني لم يذخر جهدا في البحث والتنقيب عن مخطوطات الكتاب .

رغم ان المطالع للنصين المحققين يدرك ان الاستاذ محمد الكتاني لم يشر الى مختصر المدينة المنورة الذي ادعى بوجودها ذ.ع احمد عطا دون ان يقدم مصدره ودون ان يقدم كذلك رقما لهذا المختصر رغم اشارته المقتضبة الى مكان وجوده مما يترك في النفس عند المقارنة شيء من حتى .

لقد جعل ذ محمد الكتاني مخطوطه اسعد افندي أما بينما جعل داحمد عطا مخطوطه المدينة المنورة اما ولقد ابان ذ محمد الكتاني عن المنهج الذي اعتمده لتحقيق النص مبرزا خوفه من المبالغات التي يرتكبها بعض المحققين عندما يتقون في إحدى النسخ ويعتبرونها اصلا لا محيد عنه .

اذ رغم كونه اطلع مباشرة او نقلا على احدى عشر نسخة من المخطوط ظلت متساويه لغياب النسخة الام وان كان بينها تفاضل كما اوضح وهنا تتضح سمات التحقيق الذي اظن من خلال قراءتي للنص انه سار فيه سيرين :

أ – افقي

ب – عمودي

افقي ويخص المتن واعادة بنائه انطلاقا من مخطوطه (أ) اي مخطوطه اسعد افندي باستطنبول مضيفا اليها كلما اقتضت الضرورة ذلك الزيادات الموجودة في باقي المخطوطات الاخرى اذا ما دل سياق النص عليها واضعين جميع الزيادات بين القوسين المعقوفين مشيرين في الحواشي الى مصدر تلك الزيادة وربما سمحت لنفسي ان نضيف الى النص بعض الزيادات التي لا تعدوالكلمة والكلمتين او الجملة القصيرة ولو لم تكن في النسخ الاخرى في حالتين .

أ - اذا كان النص في جميع النسخ لا يستقيم الا بتلك الزيادة من حرف عاطف اوجار او نحو ذلك وهذا قليل نادروقد بثهاعليه في الحاشية .

ب - اذا كان النص في جميع نسخه لا يستقيم لغير زيادة نجدها في المصادر التي يصل منها المؤلف سواء ذكرها او لم يذكرها كما جعلنا في بعض الفقرات من نقله عن (حكمة الاشراق) عن (الرسالة العشرية (بعد العارف) منازل السائرين وقد نبهنا على ذلك في الحواشي كما يتضح منهج ذ. محمد الكتاني افقيا واستخدامه لجموعة من الآليات:

تصحيح الاخطاء اللغوية والنحوية والعروضية لاعتقاده انها من اقلام النساخ ومعنى ذلك انه يبرئ صاحب النص لسان الدين ابن الخطيب عن مثل المشار اليه (دون الاشارة الى ذلك) وهذا من تواضع العلماء وعندما تاخذ بتلابيبك سلاسة بيان المنهج ونمعن النظر . في سرديته نكشف ان الاستاذ مرراحكاما دقيقة بين ملابسة الشكل الذي كان يتحدث عنه ومواقعه البناء الذي يريده فاذا اتت امام مقارنة رقت حتى كادت معالمها تتلف.

يقول ذ. محمد :

لانني اعتقد انه لاجدوى للقاريء من احالته على اخطاء النساخ كما انه لا قيمة تعود على تحقيق النص من احصاء تلك التصحيفات في حواشي التحقيق على ان بعض المحققين نهج عكس هذا المنهاج وتبع الفروق بين الاصول الخطية واحال القارئ عليها في الحواشي حتى ولو كانت قائمة على الاخطاء التي يرتكبها النساخ ... (ص 72).

وفي ظني انه لو نطقت هذه الجمل وقد انطقها اولا النسق الذي صبت فيه ، وانطقها ثانيا استعلاء مقاطعها ومخارج اصواتها عند لفظها .لو نطقت لقالت تلكم اخلاق العلماء.

وقد استخدم آلياته بحكمة اذ رجع الي مصادر النقل وقد نقل ابن الخطيب كثيرا للمقارنة (1).فكان يرجح (نص المؤلف على نص المصدر الذي نقل عنه ما دام تام الدلالة واضحا سليما مستساغا . ونرجح نص المصدر عندما يكون كلام ابن الخطيب مضطربا ..) (ص73). وهذه ميزة قلما تعثر له على مثيل في النصوص المغربية المحققة.

وبهذا استطاع ان يجعل النص الذي حققه نصا (تعاونت على تقديمه كل النسخ التي بين ايدينا وكذا المصادر التي نقل عنها المؤلف لاننا كنا نحقق النص ولم نكن ننقل عن مخطوطة بذاتها) (ص74) ومن مميزات الياته ترك الحرية للقاريء اذ لم يلزمه بقراءة معينة حتى عند حدوث اضطراب في النص او مصادر النقل (عليه ان يعود الى الحاوشي لاثبات الوجوه الراجحة لكي يختار القارئ نفسه الوجه الذي يرتضيه) (74 ص).

ولا يصدر غالبا مثل هذا الامر / النصوح الامن استاذ خبير بخافيا الانفس مجرب مدرك محاور لايريد ان يشيد بالامر بل يريد ان يجعل من كتابه مجلسا من مجالس العلماء.
انها لميزة من مميزات الاستاذ.
هذا طل من وابل ما امتاز به منهج الاستاذ عن منهج د عطا الذي احجم عن ذكر منهجه كما احجم عن تقديم الخطوات التي سار عليها اثناء التحقيق بالاضافة الى التأثير الصوفي الكبير الذي طغى على الجانب العلمي.

وختاما آمل انني قد وفقت الى تقديم المؤتلف والمختلف بين منهجين لنص واحد وحتى تكتمل الصورة لا بد من تقديم النموذج من كلا التحقيقين قراءة ذ احمد عطا (المقدمة)

اما بعد ، فانه لما ورد على هذه البلاد الاندلسية المحروسة بحدود الله حدوها الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها وصل الله عوائد صنعه الجميل لديها وابقاها دار امان الى ان يرث الله الارض ومن عليها (ديوان الصبابة) وهو الموضوع الذي اشتمل من ابطال العشاق على الكثير واستوعب من اقوالهم القديمة والحديثة كل نظم ونثر واسدى في غزل غزلهم والحسم ودل علي مصارع شهدائهم من وقف وترحم بصدق الخبر والخبر وطمث اللجة التي تعبر وتارج من مسراه المسك والعنبر وقالت العشاق عند طلوع قمره الله

اكبر.

مررت بالعشاق قد كبـروا وكانه بالقرب صبى كريم(2)
فقلت له ما بالهم قال لـي القـى للحب كتاب كـريم

لاغرو ان الحمام بهذه الافاق اسواق الاشواق وزاحم الزفرات في مسالك الاطواق واسال جواهر المدامع من بين اطباق تلك الحقاق ومنك وفتك نسيمه الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق .

حتى النسيم علينا وما تبينت عذره

فوقع للمحبة المعربة التسلم وقالت السنة الاقلام معربة عن السنة الاقاليم

سلمت لمصر في الهوى من بلد يهديه هوى لذ في استنشاقه
من ينكر دعواي فقل عنى لـــه يكفي امرأةالعزيز من عشاقه

قراءة ذ . محمد الكتاني

اما بعد ، فانه لما ورد على هذه البلاد الاندلسية المحروسة بحدود سيوف الله تعالى حدودها الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها وصل الله تعالى عوائد صنعه الجميل لديها وابقاها دار ايمان الى ان يرث الله الارض ومن عليها ديوان الصبابة وهو الموضوع الذي اشتمل من ابطال العشاق على الكثير واستوعب من اقوالهم الحديثة والقديمة كل نظم ونثر، واسدى في غزل غزلهم والحهم ودل على مصارع شهدائهم من وقف وترحم فصدق الخبرالمخبر وطمث اللجة التي لا تعبر وتأرج من مسراه المسك والعنبر وقالت العشاق عند طلوع قمره الله اكبر .

مررت بالعشاق قد كبروا وكان بالقرب صبي كريم (3)
فقلت ما بالهم قال لـــي القي للحب كتاب كـريم
لا غرو ان امام بهذه الافاق اسواق الاشواق وزاحم الزفرات في مسالك الاطواق وفتك نسيمه الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق
حتى النسيم علينا وما تبينت عـذره (4)
اذ صير الارض نجدا والخلق ابناء عذره (5)
موقع للحجة المغربة التسليم وقالت السنة الاقلام معربة عن السنة الاقاليم.

سلمت لمصر في الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواي فقل عني لـه تكفي امرأة العزيز من عشاقه

هل طبق ذ محمد الكتاني ما التزم به عند عرضه لمنهجه من بنيات وآليات ومن اهمها قوله : (لم اكلف نفسي عناء الاشارة الى كل خلاف بين النسخ او بين النسخة المعتمدة وغيرها من النسخ اذا كان الخلاف بينهما قائما على خطأ احداها وصواب اخرى ما لم يكن التاويل للفظ يقبل وجها من وجوه الدلالة السائغة في سياق النص) 72 ص.

مخطوطات الكتاب المعتمدة من لدن المحققين

*عبد القادر احمد عطا :

1 – مخطوطه المدينة المنورة عدد اوراقها 130 نسخت عام 1119هـ بالمدينة المنورة عدد سطورها 30 سطرا على يد الشيخ محمد بن مصطفى بن عمر الاسكداري ثم المدني (احد كبار العلماء بالمدينة. ص26) طبعها لنسخى عليها معيدات بخطوط محتلفة ونقول من كتب محي الدين بن عربي والشعراني .. اتخذها عطا اما لهذا الكتاب اختصار بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية .

2 – مخطوطة الظاهرية عدد اوراقها 124 نسخت سنة 855 ه على يد عمر بن عبد الله بن محمد المنظراوي خطها جيد كثيرة التحريف والسقط عدد سطورها 23 سطرا .

*الاستاذ محمد الكتاني :

اعتمد الاستاذ محمد الكتاني لتحقيق الكتاب المخطوطات التالية:

1 – مخطوطة الخزانة العامة رقم 145 ج عدد اوراقها 183 ورقه مقاسها 23 سطرا خطها مغربي انيق العناوين والتصلبات والادعيه بالوان مختلفة تآكلت بعض اطرف اوراقها .
خالية من كل توثيق بها بعض التصحيف والبياض لجهل الناسخ بقراءة الاصل الذي ينتسخ منه .
سقط منها 50 صفحة يظن الاستاذ ان ذلك متعمدا لتجنب ذكر آراء الفلاسفة وغلاة الصوفية .

2 – مخطوطة الخزانة الملكية (الحسنية) رقمها 664 عدد اوراقها 171 ورقة فلها نسخة عدد سطور كل صفحة 21 باطراد نسخت عام 977 .

ليس عليها تقييدات .

3 – نسخة اسعد افندي بتركيا من نسخ احمد بن عمر بن عبد القادر الشربيني 854 عدد اوراقها 281 مسطرتها 21 خطها نسخي جميل ليس عليها تقييدات قليلة التحريف بها سقط ، لم يشر الى ارقامها صمن المكتبات .
- نسخة سليم آغا اسطنبول . مكتبة سليم آغا رقمها 495 مكرر عدد اوراقها 104 سطور كل ص 31 سطرا باطراد خطها نسخي جميل واضح يحمل المخطوط زخرفة كتب في شريطها كتاب روضة التعريف تاريخ نسخها 908 هـ خالية من كل تمليك .
- نسخة ذ عزيمان بتطوان عدد اوراقها 156 ورقة 25 سطرا في كل صفحة باطراد كتب في القرن الثاني عشر الهجري بخط مغربي جميل غفل من اسم الناسخ وتاريخ النسخ .

نسخة ثانية بالخزانة الحسنية رقمها 789 ليست ذات فائدة كبيرة .
لا تخلو من اخطاء واسقاط من فصل غصن المحسين لما فيه من كلام غلاة الصوفية .

- نسخة المدينة المنورة (لم يطلع عليها الا بطريق غير مباشر لم يصفها الا في الحدود التي ذكرها ع احمد عطا .

مخطوطة الفقيه ابي بكر التطواني السلاوي عدد اوراقها 104 ورقها ابيض صقيل خطها مغربي واضح كتب بعناية . ناسخها العربي بن علي بن ابي طاهر بن صالح ابن الشيخ سيدي علي بن عبد الرحمن . لا تخلو من اخطاء .

مخطوطة اسعد افندي باسطنبول وهي من معتمدات ع احمد عطا اقدم مخطوطة موجودة للكتاب باعتبار تاريخ تعليقها وهي عند ذ محمد الكتاني اصلا باعتبار قربها من حياة مؤلفها الذي توفي 878 .

الهوامش

لسان الدين بن الخطيب روضة التعريف بالحب الشريف تحقيق

ذ.ع احمد عطا . نشر المطبعة انكلوساكسونية . القاهرة ج1 دون تاريخ .
لسان الدين بن الخطيب روضه التعريف . تحقيق ذ محمد الكتاني (جزآن) دار الثقافة الدار البيضاء المغرب .

* * * * * *

1) لاننا مادمنا لم نعثر على النسخة الام للكتاب فان سائر النسخ متساوية
2) رغم كون ذ ع احمد عطا بدل جهدا في تتبعه الخلاف الذي وجده بين مختلف نسخ النص الا انه فاتته هنات واضحة .
فقلت له مابالهم وبزيادة له ينكسر الوزن - منك ومثل ص 81
3) ظبي
4) غدره
5) عذرة اي من بني عذرة ومن جميل ملابسة الطبع للصنعة عذره معذرته

تحقيق النص الأدبي
لدى المدرسة المغربية بين الأصالة و الإحاطة
- روضة التعريف نموذجا -

عبد اللطيف مومن
كلية الآداب - مكناس

لعل من أهم القضايا الفكرية الملحة التي كانت وماتزال محور الفكر العربي الحديث مسألة " التراث والمعاصرة " حيث أضحت مع توالي المراحل والسنين تستقطب اهتمام المشتغلين به ، وتطلب منهم مزيدا من البحث والتأمل والاستنتاج ، داعية إياهم إلى محاولة استكشاف خبايا تراثهم العربي الإسلامي ، واستكناه قيمه ومدلولاته العميقة ، ورموزه الموحية ، مع ربط ذلك كله بروح العصر وواقعه حتى يصبح هذا التراث - وخاصة الفكري والروحي منه - منبعا ثرا متجدد التدفق والحيوية ، وليس مجرد معلومات محنطة تملأ زادنا المعرفي بما نحن في غير احتياج إليه ، ومعنى ذلك أن « بعث القديم وحده لا يكفي، وإحياء التراث كما هو شيء لا يفيد ، لذلك ألحت الحاجة إلى وجود من يبعث القديم في ضوء الجديد ، ويحيى التراث ليجعله وقودا فكريا وروحيا في مطلع عصرنا الحديث ... » (1) . بيد أن ما يجدر الاضطلاع به قبل تقديم هذا التراث الفكري والروحي الأصيل إلى أيدي الباحثين والقراء هو ضرورة توثيقه بادئ الأمر ، والاطمئنان على صحة نسبته إلى منشئيه ، وسلامته مما علق به من الشوائب وأدران الماضي ، وهذه مهمة علمية جليلة لا يقوى عليها إلا أولو العزم والحزم والفهم ، ولكنها تغدو أمانة مقدسة ورسالة نبيلة لدينا نحن المغاربة حينما يتعلق الأمر بتحقيق نص مغربي أو أندلسي أصيل لكونه يمثل-بالنسبة

إلينا خاصة - عطاء فكريا وروحيا لا ينضب معينه يمدنا كل آن بقدرات: فكرية وروحية وإبداعية متميزة . ولطالما عانى هذا التراث المغربي والأندلسي من تمييع كثير من المستشرقين إياه ، ومحاولة تهجينه بغية صبه في قوالب غريبة عنه ، أو عانى من استخفاف بعض الإخوة المشارقة به حتى أضحى لدى بعضهم مجرد بلغة يظهرون من خلالها قدرتهم على الإتيان بكل طريف غير معهود . ولذلك يظل الأمل معلقا على بحاثينا وباحثينا وذوي الغيرة والحماس منا نحن المغاربة للاضطلاع بهذه المهمة الوطنية الشريفة لأن أهل البيت أعلم بخباياه وزواياه وكنوزه الدفينة . ولعل هذه الرسالة العلمية لنبلها لايقدر على تجشم مسالكها الوعرة إلا من أوتي استعدادا فطريا وحبا صوفيا لتراثه، وقدرة على تأويل مدلولات القديم ، واستيعابا معرفيا ، هذا إلى توفر مبررات علمية موضوعية تغري الباحث بالسير قدما في هذا المضمار.(2) ويبدو ومؤكدا أن تحقيق التراث يجعل المؤلف يكتسب من خلاله تمرسا وخبرة وقدرة على النظر فيما خلفه القدامى من آثار فكرية وروحية كما يحثه على الرجوع إلى أمهات المصادر والمظان قصد إخراج الأثر المراد تحقيقه في أفضل صورة له (3) .

وبرغم أن ماتم نفض الغبار عنه ورفع أغلال الحجر والوصاية عنه من تراثنا الفكري والروحي والأدبي المغـــربي والأندلسي على أيدي محققين مغاربة لا يعد كثيرا إلا أنه جاء حافلا بصورنا صعة من ماضينا، وجعلنا نتغلغل في أعماق الشخصية المغربية والأندلسية ، ونستبطن عوالمها الدفينة ونتدبر فكرها الأصيل وذاتها المتفردة عن نظيرتها في الأمصار العربية الأخرى ، كما عكس لنا - أقصد عمل هؤلاء المحققين - مدى الجهد المبذول لفهم هذا التراث واستكناه دلالاته ورموزه الموحية ، وهذه غاية يقصر عن بلوغ مراميها ، واستيعاب ملابساتها المتعددة ، وسماتها المتميزة طوائف المستشرقين أو من لا يمت إلى المغرب العربي بوشائج الدم والقربى والتاريخ ووحدة البيئة .

وإذا ماحاولنا رصد أعلام هؤلاء المحققين ممن يمكن تصنيفهم ضمن ما نصطلح على تسميته بـ "مدرسة التحقيق الأدبي والفكري المغربية" سنجد أن جلهم تعهدوا أنفسهم بتكوين جامعي أكاديمي فضلا عن نهلهم من علوم ومعارف جامعة القرويين المجيدة أو ما يمت إليها . ومن أشهر هؤلاء الأعلام الدكتور محمد . بنشريفة الذي وقف نفسه على استخراج كنوز الأندلسيات " الدفينة ، ومنها على سبيل المثال - وليس على سبيل الحصر - آخرحلقة من سلسلة كتب التراجم الأندلسية المشهورة

ونعني بها كتاب "الذيل والتكملة " لابن عبد الملك المراكشي (ت703هـ)، والتعريف بالقاضي عياض لولده أبي الفضل ، وأمثال العوام في الأندلس لأبي يحيى عبد الله الزجالي (ت 694 هـ)، وديوان أبي الحسين سليمان بن أحمد المعروف بابن فركون (كان حيا سنة 820هـ) (4) وكذا دراسته القيمة المتعلقة بالشاعر عبد الكريم بن محمد القيسي المشهور بالبسطي [كان حيا سنة 891 هـ (5) ولعله عاصر سقوط غرناطة سنة 897 هـ] التي عني خلالها بالتعريف بشعره وإن لم يتم تحقيقه وفق ماهو معهود . وإسوة بالدكتور محمد بنشريفة يجد المهتم نفسه مع الدكتور عبد السلام الهراس الذي كشف النقاب عن ذخائر من التراث الأندلسي عسر ضبطها وتقييدها ، وصعب مركبها ، ومن أبرزها تحقيقه ديوان أبي عبد الله محمد بن الأبار البلسني (ت 658 هـ) ، وتحقيقه صحبة الأستاذ البحاثة سعيد أعراب الجزء الخامس من " أزهار الرياض" للقاضي عياض، والقسم الثالث من "صلة الصلة " لابن الزبير(ت 708هـ) ، و "درر السمط في أخبار السبط " لابن الأبار المتقدم ذكره ومن هؤلاء الأعلام كذلك : المرحوم الأستاذ محمد بنتاويت التطواني الذي حقق -من ضمن ما حقق - قسما من كتاب " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " لابن عذاري صحبة المستشرق الإسباني هويتي ميراندا والمرحوم المجاهد الشيخ محمد إبراهيم الكتاني ، وحقق ديوان أبي الربيع سليمان الموحدي صحبة محققين آخرين ، كما حقق "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار" لمحمد بن إبراهيم الأنصاري السبتي (وهو من رجال القرن الثامن الهجري) ، ومن ألمع ما حقق الشيخ البحاثة المرحوم محمد بنتاويت الطنجي "التعريف بابن خلدون شرقا وغربا" و "ترتيب المدارك " للقاضي عياض وذلك صحبة محققين آخرين ، وحقق المرحوم المجاهد الشيخ محمد ابراهيم الكتاني القسم الثالث من كتاب " أعمال الأعلام " لابن الخطيب ، كما اشترك مع المرحوم محمد بنتاويت التطواني في تحقيق قسم من "البيان المغرب " المنوه عليه قبيل قليل ، أما الأستاذ عبد القدر زمامة فقد حقق - صحبة الأستاذ سهيل زكار - " الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" (الذي يجهل مؤلفه أغلب الظن) كما حقق قسما من " البيان المغرب " وهو خاص بعصر الموحدين صحبته الدكتور محمد حجي . ومن ألمع الباحثين الدكتور عبد الهادي التازي الذي حقق " تاريخ المن بالإمامة " لابن صاحب الصلاة . وقد حقق الدكتور محمد الكتاني كتاب "روضة التعريف بالحب الشريف " (الذي سيتم التحدث عنه لاحقا) لابن الخطيب . أما الدكتور عباس الجراري فقد حقق ديوان أبي الربيع سليمان الموحدي إلا أنه لم يتم نشره حسب ما هو معلوم (6) .

ويمكن القول إن مميزات التحقيق الأدبي والتاريخي لدى المدرسة المغربية في هذا الشأن تتجلى فيما يلي :

1) ضرورة اطلاع المحقق الواسع على طبيعة موضوع المخطوط المراد تحقيقه حتى يستكنه روحه ويتغلغل في أعماق صاحبه وإذا كان هذا المخطوط يكتسي حللا قشيبة من المحسنات البديعية أو مبالغا في حشدها كل المبالغة وجب على المحقق معرفة قواعدها وأسرار توظيفها حتى يتنبه للأخطاء التي تقع للنساخ أو سوء فهمهم وجهلهم . وغير خفي أن العبرة في كل تحقيق هي بفهم موضوع المخطوط المراد تحقيقه واستيعاب مراميه وملابساته قبل اللهج باعتماد منهج أصوب من غيره، وإن كان هذا لاينفي كون عمل المحقق مرتكزا على اتباع منهج سليم وهذا واضح في قول الدكتور محمد الكتاني :

فمادة المخطوطة العلمية ، وحالتها النصية . ونسبها للمؤلف، وتعدد المخطوطات أو عدمه للكتاب ، وعلاقة بعضها بالبعض، ومستوى الناسخين الفكري أو العلمي ، وغير ذلك من المواصفات التي لكل مخطوطة حظ منها يعين على التحقيق أو يضع في سبيله كل الصعوبات والمزالق ، كل ذلك هو الذي يملي على المحقق منهجية ملائمة لطبيعة المواصفات التي توجد عليها المخطوطة . وهذا لايعني أن المحقق في جميع الأحوال قد يعفى من المعرفة المنهجية العامة للتحقيق (7) .

2) ضرورة توثيق نص المخطوطة الأصلي بصفته أول خطوة في منهج التحقيق لأنه مهما تم إغناؤه - أي التحقيق - بإضاءات متنوعة فإن الضرورة تقتضي أولا التحقق من نسبته لصاحبه الحقيقي، ثم محاولة العثور على مخطوطة أنسب وأفضل تكون مطابقة - غالبا - لنسخة صاحبها المكتوبة بخط يده أو هي عينها أو قريبة منها، والاستئناس إن أمكن بجميع نسخ المخطوطة التي يستطاع الوصول إليها .

3) محاولة تقديم المخطوط المحقق للقارئ في أفضل صورة ممكنة ، وإن وقع بعض الاختلاف في شكل هذا الإخراج إلا أن الهدف يبقى مشتركا وهو محاولة إشراك القارئ في معاناة المحقق وتصوره وحسن إدراكه لجوهر المطلوب ، ولعل أفضل موقف ينبغي اتخاذه في هذا السبيل هو الذي يصحح المتن ويصوب الخطأ ويكمل النقص وينحي الشوائب مع إثبات كل ذلك في الهوامش وذلك عملا بالقاعدة « إننا نحقق متن المؤلف ، لاكتابة الناسخ لذلك المتن » (8) .وذلك لأن المخطوط

لا يبقى على صورته الأصلية المثلى - إلا نادرا - بسبب عمل النساخ وعوادي الزمن .

4) إن الهدف من كل تحقيق هو محاولة إحياء النص الأصلي كما كتبه صاحبه أول مرة أو أملاه بحيث يأتي على صورة يعتقد أنها الصورة التي أرادها ، بيد أن هذه الغاية على نبلها ووجاهتها لاتمثل مبررات علمية صرفا تجعل المحقق يندفع اندفاعا ويجمح به قلمه جموحا وفي هذا يقول الدكتور محمد رضوان الداية :

> ولم أخرج عن هذه القاعدة من حرفية النقل ، وأمانة القراءة والرسم ، إلا حين رأيت أن تصوير ما في الكتاب لن يؤدي إلى معنى لاضطراب ناقله ، أو لالتباس الأمر عليه . وهذا لايعني التصرف في النص بما ينأى به عن الأصل ، أو يفسح أمام الرأي الشخصي في غير موضع اجتهاد . بل إنه يعني محاولة الوقوف على ما كان النص عليه مثلما وضعه مؤلفه أول مرة ، مستفيدا في ذلك مما يقتضيه أسلوب المؤلف المسجوع ، وما يستحيل على المؤلف الوقوع فيه ... (9)

وإن بلوغ هذا الهدف يتطلب معرفة بالنص وصاحبه والظروف العامة والخاصة لكتابته ، والنسخ الموجودة منه ، وعقد مقارنات ما بينها، ومعرفة المصادر التي نقل عنها شفوية كانت أم خطية . وعلى هذا نرى أن من خصائص هاته المدرسة محاولة إخراج نص سليم وهذا يقتضي أن يبقى على الأصوب ويشار في الهوامش للألفاظ أو الجمل غير المناسبة التي تم العدول عنها إلى ما هو أصوب وأسلم وهذا ما يراه المحقق المشرقي عبد الستار أحمد فراج حينما يقول في هذا الشأن :

> والمحقق يقف حائرا أما الكلمة ، أهي صحيحة أم محرفة وما معناها في حال صحتها ؟ وإذا كانت محرفة فما هو أقرب رسم حرفت عنه ؟ ولايجوز أن يغير شيئا إلا اعتمادا على نص أو قرينة أدبية ، وعلى أي حال لابد أن يثبت في الهامش ما كان في الأصل ، فلعل لمحقق سواه رأيا يخالف ما أبداه ، أو فهما أصوب مما تبادر إلى ذهنه ... (10).

ومن تمام الإحسان أن المحقق يجد نفسه - أحيانا - مضطرا إلى تحقيق النص الكامل لخطوط ما بعد أن كان يزمع الاقتصار على تحقيق جزء منه فقط وذلك لتعم فائدته بأشملها ، وهذا ما واجه المرحوم المجاهد الشيخ محمد إبراهيم الكتاني أثناء محاولته - صحبة الدكتور أحمد مختار العبادي - تحقيق القسم الثالث من "أعمال الأعلام" لابن

الخطيب وهذا واضح في قوله :

كانت النية متجهة في بادئ الأمر إلى الاكتفاء بنشر هذا الجزء الأخير من القسم الثالث ، ولكن نظرا لأن الجزء الخاص بإفريقيا وصقلية ليس في تناول يد القراء لندرته وقدمه ، فقد رأينا حرصا على وحدة الموضوع والفكرة إضافته إلى الجزء الخاص بالمغرب الأقصى بعد مقابلته على النسخ الخطية التي لدينا كي يصبح الكتاب بذلك شاملا لتاريخ المغرب العربي الكبير (11) .

5) اعتماد بعض التحقيقات على نسخة وحيدة للمخطوطة وذلك لأن آلاف المخطوطات المغربية أو الأندلسية أتت عليها عوادي الدهر ونوائبه أو هي في حكم المفقودة لكونها تقبع في زوايا الإهمال والنسيان ، أو أن الأوصياءعليها يضنون بها عن جهل أو سوء عمد، ومن شأن هذا أن يجعل عمل المحقق بالغ العسر والمشقة لأن "نشر نص عن أصل مخطوط واحد ، من المهمات الصعبة ، الوعرة المسلك ، التي يخشاها المحقق ، تفاديا لسهو الناسخ وتصحيفه ، ووقوع خرم في النسخة ، أو خروم . وعلى الجملة فإن النسخة الوحيدة ذات إشكالات كثيرة تتطلب حذرا وعناية" (12) .

ومن المحققين المغاربة الذين واجهتهم هذه الصعاب الدكتور عبد السلام الهراس حين تحقيقه ديوان ابن الأبار إلا أنه استطاع أن يذلل أكثرها ويقدم للقارئ ديوان شاعر أندلسي فذ طوحت به الأيام وظلمته نفسه وإخوته في الدين والقربى والمنزع ، وقبل ذلك جنى عليه طموحه الذي كان أكبر من واقعه ، وقد نبه الأستاذ في المقدمة التي قدم بها هذا الديوان لهذا المسلك الوعر حين قال :

هذا ولست في حاجة إلى تنبيه القارئ والباحث إلى الطريق الصعب الذي سلكته بالاعتماد فقط على نسخة وحيدة وإلى ما يصادف هذا النوع من التحقيق من صعوبات وعراقل ، وقد وفقت - والحمد لله - إلى تذليل كثير من تلك الصعوبات غير أني لم أستطع التغلب عليها جميعها . ولا تزال هناك مشاكل لايمكن حلها إلا بالعثور على نسخة أخرى من الديوان . (13)

6) ومن مميزات هذه المدرسة أنها لا تجعل غايتها مقصورة على مجرد تخريج النص وضبطه وتوثيقه اعتمادا على النسخ المتوفرة مع عقد مقارنات بينها ، وتنقيتها مما علق بها من الشوائب وأخطاء

النساخ، والتنبيه على كل زيادة أو نقصان كما هو دأب المستشرقين في ذلك بل تعنى - إضافة إلى ذلك - بتسليط أكثر ما يمكن من الأضواء على الأثر المحقق بتقديم العصر الذي ألف فيه المؤلف الذي يراد تحقيقه وإعطاء نبذة عن جميع أحواله وملابساته السياسية والاجتماعية والثقافية ، وكذا لمحات عن حياة صاحبه الشخصية وأهم مؤلفاته مع التثبت من عناوينها ووصف أحوالها ومخطوطاتها ومطبوعاتها ومحققيها والتنبيه على كل خطأ أو التباس في هذا الشأن ، وهي تهتم في هذا المجال بوصف منهج المؤلف في الأثر المحقق والحديث عن مصادره الخطية والشفوية ومزاياه المتعددة وهذا واضح - على سبيل المثال وليس الحصر - في القسم الثالث من " صلة الصلة " لابن الزبير (ت 708 هـ) الذي صدر مؤخرا بتحقيق الدكتور عبد السلام الهراس والأستاذ سعيد أعراب (15) . كما تعنى أيضا بشرح غريب المتن ومصطلحاته وتخريج شواهده الشعرية والنثرية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال ووضع فهارس متنوعة (16) . تكون بمثابة مفاتيح تعين على فهم مغالقه وسبر أغواره حتى لكأن روح صاحبه حاضرة فيه ومن شأن هذا أن يجعل القارئ على وعي تام بهذا الأثر ومطمئنا كل الإطمئنان إلى أن المحقق قد بذل ما في وسعه للوصول إلى هذا المسعى .

ومن نماذج هذا المنهج ما فعله المرحوم المجاهد الشيخ محمد إبراهيم الكتاني - صحبة الدكتور أحمد مختار العبادي - حين تحقيقه القسم الثالث من " أعمال الأعلام " لابن الخطيب المنوه عليه سابقا، وفي ذلك يقول :

هذا ولقد رأينا أن الاقتصار على نشر النص وحده قد لا يسد الفراغ الذي يشعر بعض إخواننا في العروبة نحو التعرف على هذه البلاد المغربية الشقيقة التي حال الاستعمار بينهم وبينها منذ زمن طويل . ولهذا آثرنا أن نقوم بعمل هذه التعليقات والشروح المطولة التي حاولنا فيها كتابة تعريف لكل مدينة أو بلدة مغربية وردت في النص . كما حاولنا أيضا التعريف بالشخصيات والقبائل والأحداث الهامة التي أوردها المؤلف بدون تعريف (17) .

وهذه نفس الطريقة التي وجدناها لدى المحقق المنقب الدكتور محمد بنشريفة حين تحقيقه ، كتاب " أمثال العوام في الأندلس" لأبي يحيى عبد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (ت 694 هـ) حيث أن المتن

لم يكن يمثل إلا بضعة أسطر من كل صفحة من صفحات التحقيق .(18) كما أنه نحا هذا النحو نفسه حين تحقيقه السفر الثامن من كتاب "الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي (ت 703 هـ)، ويصح تسمية المنهج الذي اتبعه في هذا المجال بالمنهج التوثيقي المتكامل حيث طغى حجم المقدمة مع التخريجات والشروح والهوامش والفهارس على حجم المتن نفسه ، وهذا دليل على مدى الإيمان العميق بقيمة هذا المنهج في خدمة تراثنا الثقافي عامة والأدبي خاصة (19) . ولعل هذا المنهج يذكرنا بما فعله الدكتور إحسان عباس حين تحقيقه كتاب الذخيرة لابن بسام وفي هذا يقول :

فقد صححت عددا غير قليل من أخطاء القراءة وعرفت بالأعلام والأماكن حيث كان ذلك ضروريا ، وشرحت الألفاظ التي تتطلب شرحا وخاصة بعض المصطلحات الأندلسية ... كما وفقت إلى تخريج كثير من الشواهد الشعرية ... واتبعت نهجا مختلفا في تمييز الأصيل من الدخيل في نص الكتاب ، وراجعت النص على المصادر التي استمدت من الذخيرة ، وعلى سائر المصادر الأندلسية التي طبعت بعد صدور ما طبع منها (20) .

ويظهر أن هذا هو نفس النهج الذي نهجه الدكتور محمد رضوان الداية حين تحقيقه كتاب "إحكام صنعة الكلام " لأبي القاسم الكلاعي(21)، أما مؤرخ الأندلس المعاصر المرحوم محمد عبد الله عنان فنراه يلح إلحاحا شديدا على ترسم خطى هذه الطريقة في تحقيق التراث الأدبي والفكري الأندلسي خاصة وأن شخصية الأندلسيين ومزاجهم كانا متميزين - في كثير من الجوانب - عن نظيريهما في المشرق ، ومن شأن إضاءة النص الأندلسي المحقق ووضع هوامش متنوعة حوله أن تساعد القارئ - وخاصة المشرقي - على فهم مدلولاته ومصطلحاته وأفكاره أحسن فهم ، وهذا واضح في قوله أثناء المقدمة التي وضعها لتحقيق كتاب " الإحاطة " لابن الخطيب :

ونعتبرها (أي هوامش التحقيق) من أهم العناصر في منهج التحقيق الذي سلكناه لاسيما وأن ابن الخطيب يلجأ في أحيان كثيرة ، من الناحية التاريخية ، إلى الإشارة والتلميح ويورد من الناحية الجغرافية ، كثيرا من الأعلام والأماكن الأندلسية والمغربية التي لايحيط بها سوى أهل التخصص في هذا الميدان، وقد عنينا في سائر الأحوال أن نلقي على هذه الإشارات ، وهذه الأعلام من الضياء ، ما يكفي لإحاطة القارئ بها إحاطة تامة (22).

7) إن أغلب كتب التراث الأدبي والفكري والديني التي تم تحقيقها على يدي أعلام هذه المدرسة المغربية تتميز بكون محققيها كانوا ينشدون غايات نبيلة من وراء فيامهم بتحقيق مخطوطات بعينها دون سواها ، وهي غايات تعكس فوائد ومزايا وثائقية وتاريخية وأدبية وعلمية وفكرية عامة من شأنها إفادة القارئ وإطلاعه على تراث مغربي أندلسي أصيل ، وهذا ماقصده الدكتور محمد بنشريفة حين قال في مقدمة تحقيقه ديوان الشاعر الأندلسي المتأخر أبي الحسين بن فركون:« إن لديوان أبي الحسين بن فركون قيمتين كبيرتين ، أولاهما أدبية تشهد أن الشعر الأندلسي حافظ على فخامته التي كان يظن أنها انتهت بانتهاء عصر ابن الخطيب وابن زمرك ، والقيمة الثانية تاريخية ووثائقية ، وقد تكون أهم من الأولى » (23) . وإذا ما أمعنا النظر في المقدمة التي وضعها الدكتور عبد السلام الهراس حين تحقيقه - صحبة الأستاذ سعيد أعراب - القسم الثالث من كتاب "صلة الصلة " لابن الزبير نجدها تجعل من أهداف هذا التحقيق إبراز مزايا وفوائد جلى تتضح فيما يلي :

أ) كونه - يعني هذا الكتاب - يمثل حلقة من سلسلة كتب التراجم الأندلسية المتسلسلة والتي يأخذ بعضها برقاب بعض بدءا من "تاريخ علماء الأندلس " لابن الفرضي (ت 403 هـ) وانتهاء بـ "الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي (ت 703 هـ) .

ب) طغيان المعارف الدينية الإسلامية من الروايات المتعلقة بالقراءات إلى علوم الحديث وإلى ما تعلق بغيرها .

ج) تصويره للحركة الثقافية والاجتماعية بالغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع للهجرة .

د) رفعه أنساب بعض المترجم لهم إلى أجدادهم الأعلين الداخلين إلى الاندلس أو حتى إلى أجدادهم الذين كانوا معاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم .

هـ) نقده العلمي (24)

وقد ألح الدكتور عبد السلام الهراس على كونه توخى هذا المبدأ - يعني إحاطة القارئ علما بالفوائد والمزايا التي تستفاد من تحقيق نص ما - حين تحقيقه ديوان ابن الآبار وفي ذلك يقول:

لأننا باستخراج هذا الديوان وتقديمه لميدان البحث الاندلسي والمغربي، نكون قد كشفنا جانبا أصيلا من جوانب شخصية ابن الابار واعتمادا على إنتاج ضخم نسبيا ، ومتنوع إلى جانب ما يعكسه بصدق ودقة من الموضوعات المتداولة والخصائص

الفنية السائدة في هذا العصر بل الجوانب التاريخية والشخصية (25)

ولعل من أفضل النماذج على ما أنجرته هذه المدرسة المغربية من تحقيقات قيمة ذات أبعاد روحية وفكرية وأدبية ولغوية عميقة كتاب "روضة التعريف بالحب الشريف" لابن الخطيب السلماني الاندلسي (ت 776 هـ) ويعود الفضل في تحقيقه تحقيقا علميا رصينا وليس مجرد نشر للدكتور محمد الكتاني الذي خاض هذا العمل الفكري الصعب قصد نيل درجة علمية عليا به ، ومعنى هذا أنه يكتسي طابعا أكاديميا صرفا ، وقد اقتضى منه ذلك أن يتبنى منهجا توثيقيا متكاملا يعكس بدقة وشفافية طريقة المدرسة المغربية المعاصرة في تحقيق التراث الأدبي والفكري ، وقد تجلت مميزات هذه الطريقة فيما يلي :

1 - البحث عن جميع مخطوطا ت "روضة التعريف" المعروفة والتي يستطاع الوصول إليها .

2 - الاطلاع عليها جميعها وقد بلغت تسع مخطوطات توزعت انتماءاتها المكانية ما بين المغرب والمدينة المنورة وتركيا وسوريا(26).

3 - الاعتقاد بعدم وجود علائق بين هذه النسخ ومعنى هذا عدم اتحادها في النقل من نسخة بعينها (27) .

4 - اعتماد نسخة تركية أساسا لكونها أسلم النسخ حفاظا على روح النص وبنيته ، ولكونها نسخت سنة 854 هـ أي أن الزمن الذي يفصلها عن وفاة بن الخطيب صاحب النص الاصلي هو حوالي ثمانين سنة ليس غير .

5 - تقديم النص للقارئ ، وقد ثم التأكيد خلاله على أننا لا نستطيع استيعاب مضمون كتاب " روضة التعريف " وتمثل ثقافة صاحبه والتمرس بمصطلحاته ما لم نكن على اطلاع كاف بالتراث الصوفي والديني والأدبي واللغوي العربي الإسلامي وكذا بفلسفة اليونان وعلوم الطبيعة وروح العصر والبيئة الاندلسية وقتذاك ، وهي أهداف حرص الاستاذ محمد الكتاني على محاولة تحقيقها فأغنى القارئ بذلك عن استنفاد وقت طويل بحثا عن المخطوطات والمطبوعات المناسبة (28) .

6 - عدم الاقتصار على مجرد تخريج المتن وتوثيقه بل تم إغناؤه بالضبط السليم ووضع علامات الترقيم حتى يفهم النص على وجهه الافضل، وأضيئ بعدة إضائات تم خلالها شرح غريب اللغة والمصطلحات الفلسفية والصوفية وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآشعار والأقوال المأثورة والترجمة لمشاهير

الأعلام ، وإيراد التعليقات المتنوعة وغيرها كثير (29).

7 - تقديم ملخص للكتاب بحيث تم خلاله استعراض اهم محتويات أقسامه كي تعين القارئ للمتن على استيعاب مضامينه وأفكاره ومدلولاته .

8 - التنبيه على المصادر المكتوبة التي اعتمد عليها ابن الخطيب عليها في تأليف هذا سواء ما ذكر منها في المتن أو المشار إليها من طرف خفي أو التي لم يشر إليها بتاتا ، مع تذكير القارئ بأهم هذه المصادر مما ييسر عليه فهم المضمون ووضعه في سياقه العام والتوسع في معرفته - عن طريق الاطلاع على هذه المصادر ذاتها - لمن أراد ذلك من طالبي المعرفة .

9 - التركيز على تبيين قيمة الكتاب ومزاياه ، وخلاله تم التأكيد علي أن هذه الفوائد جمة فهو يكشف لنا عن ابن الخطيب العارف بالتصوف وعن أسلوبه الأدبي الرائع وعن ثقافته الموسوعية ، وعن اطلاعه الواسع على الشعر العربي ، وعن أشعار نظمها هو شخصيا في ثنايا الكتاب مما يمكن اعتباره معها ديوانا جديدا للشعر الصوفي والحكمي . كما يعكس لنا ثقافة العصر وقيمه الفكرية والروحية حيث نستشف منها أن الطابع الديني والصوفي كان مسيطرا على فكر الاندلسيين وروحهم آنئذ وأخيرا هناك قيمة فنية تبرز في هذا الكتاب وهي قدرة ابن الخطيب على صهر الفكر الفلسفي والصوفي مع التعبير الأدبي في أحسن إخراج وشكل فنيين .

10 - بسط الحديث عن تصوف ابن الخطيب حيث إن نفيه بالمغرب -أول مرة - مدة سنتين ، والتقاءه بشيخ متصوفة سلا آنداك أحمد بن عاشر ، وموت زوجته له أثناء ذلك جعله يعزف عن التهافة على مناصب الدنيا المغرية ومطالبها التي لاتنتهي ، وكان يأمل ألا يعود إلى الأندلس وراءها وأن يستقر بسلا لمراجعة ذاته محاولا التشبه بعيش الصوفية إلا أن سلطانه محمد الخامس الغني بالله استدعاه للعودة إلى غرناطة (30) وقد رأى الدكتور محمد الكتاني أن اتهام خصوم ابن الخطيب إياه بكونه ينحو منحى "الحلولية" في "روضة التعريف" ليس هو السبب في نكبته ومصيبته لأن ما ورد فيه تصوف سني اشعري خالص ويبدو أن السبب الحقيقي راجع إلى كونه ذا نزعة استبدادية خلال ممارسته الحكم ، كما كان يكثر من محاسبة مناوئيه وحساده مما جعلهم يتألبون عليه ويتهمونه بتهم مغرضة سياسية ودينية دفعت سلطانه الغني بالله إلى أن يقلب له ظهر المجن .(31)

1 1 - تذييل النص المحقق بفهارس متنوعة للموضوعات والأحاديث النبوية والأعلام ومصطلحات العلوم والفنون ومصطلحات التصوف والامكنة والافلاك والآثار والمقدسات والمذاهب والطوائف والامم والأنساب وفهرس للكتب والرسائل الواردة في المتن ، ومراجع التحقيق والتعليق ، وهذه الفهارس بمثابة مفاتيح تعين القارئ على تفهم جوهر المطلوب واقتصاد الزمن كما تعكس المجهود العلمي المبذول لأجل تحقيق غاية نبيلة تسعى إلى اقناع المهتمين والقراء بالقيمة الروحية والفكرية والأدبية لتراث أندلسي مغربي عريق وتلك هي الغاية المثلى التي تنشد مدرسة التحقيق الأدبي والفكري بلوغ أسمى مراتبها

الهوامش :

1) من كتاب "ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة" لجلال العشري ص 13 - نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - المطبعة الثقافية - القاهرة 1971 .

2) تنظر في هذا الشأن المقدمة التي كتبها الدكتور محمد الكتاني حين تحقيقه " روضة التعريف بالحب الشريف" لابن الخطيب : 1/9 - نشر دار الثقافة بالدار البيضاء - الطبعة الأولى - بيروت 1970

3) تنظر في هذا الشأن المقدمة المشار إليها في الاحالة رقم 2 ص 1/8

4) تنظر في هذا الشأن المقدمة التي وضعها الدكتور محمد بنشريفة في صدر تحقيقه ديوان ابن فركون ص 18-17 نشر أكاديمية المملكة المغربية - طبع دار النجاح الجديدة بالدار البيضاء - الطبعة الأولى سنة 1987

5) ينظر في هذا الشأن كتابه هذا وهو بعنوان " البسطي آخر شعراء الأندلس " ص 183 نشر وطبع دار الغرب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى سنة 1985 :

6) ينظر مؤلفه " الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي : عصره حياته وشعره " ص 5 نشر دار الثقافة - الدارالبيضاء الطبعة الأولى سنة 1974

7) من مقال له نشر بمجلة كلية الآداب بتطوان تحت عنوان "أوليات منهجية لتحقيق التراث المخطوط : روضة التعريف نموذجا " ص 43 - 44عدد خاص ب " التراث المغربي والاندلسي : التوثيق

والقراءة - منشورات الكلية - ندوات أبريل 1991 .
8) نفس المقال السابق مباشرة ص 45 .
9) من المقدمة التي وضعها لتحقيق كتاب "نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان " للأمير إسماعيل بن يوسف ابن محمد بن الأحمر (ت 807 هـ) ص 209 نشر وطبع دار الثقافة بيروت سنة 1967 ثم انظر مقال الدكتور محمد الكتاني المشار إليه في الاحالة رقم 7 - ص46 .
10) من مقدمة تحقيقه كتاب " طبقات الشعراء لابن المعتز ص 6 - نشر دار المعارف بمصر - سلسلة ذخائر العرب الطبعة 2 سنة 1968.
11) من مقدمة تحقيقهما الكتاب السابق ذكره في المتن وقد نشراه تحت عنوان " تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : القسم الثالث من كتاب " أعمال الاعلام للوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب صفحة : د نشر وتوزيع دار الكتاب - الدارالبيضاء سنة 1964.
12) تنظر المقدمة التي وضعها الدكتور محمد رضوان الداية حين تحقيقه كتاب "نثير فرائد الجمان ..." تنظر الإحالة رقم 9 .
13) تنظر هذه المقدمة : ص 27 في ديوان ابن الأبار : أبي عبد الله محمد بن الابار القضاعي البلنسي (658 هـ) نشر الدار التونسية للنشر - سنة 1985 .
14) تنظر مقال الدكتور محمد الكتاني ص : 45 المشار إليه في الإحالة رقم 7 .
15) تنظر المقدمة التي وضعها لهذا التحقيق من ص1 إلى ص15 وهو من منشورات وزارة الأوقاف - مطبعة فضالة بالمحمدية سنة 1993.
16) تنظر في هذا المجال طريقة الدكتور محمد رضوان الداية في تحقيقه لـ" نثير فرائد الجمان " ص211 المشار إليه في الإحالة رقم 9 وطريقة الدكتورين عبد السلام الهراس ومحمد بنشريفة في بعض تحقيقاتهما المشار إليها آنفا ولاحقا .
17) تنظر المقدمة التي وضعاها لهذا الكتاب ص : هـ المشار إليها في الإحالة رقم 11 .
18) ينظر هذا الكتاب (وهو بنفس العنوان أعلاه) وهومن منشورات وزارة الشؤون الثقافية بالمغرب - مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية سنة 1971 .
19) تنظر مقدمة المحقق في هذا الكتاب ، وكذا نماذج من تراجم

المؤلف على سبيل الاستئناس ، وهو من منشورات أكاديمية المملكة المغربية سنة 1984 - مطبعة المعارف الجديدة - الرباط .

20) تنظر مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب القسم 1 المجلد 1 ص 7-6 نشر الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس 1975 .

21) تنظر مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب ص 18 و 19طبع ونشر دار الثقافة - بيروت - لبنان سنة 1966 .

22) من المقدمة المشار إليها أعلاه ص 71-70 نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة - طبع الشركة المصرية للطباعة والنشر - الطبعة الثانية - سنة 1973 .

23) من مقدمة تحقيقه لهذا الديوان ص 9 .

24) تنظر صفحة 11 إلى 13 من هذه المقدمة المشار اليها في الإحالة رقم 15 .

25) من المقدمة التي وضعها حين تحقيقه هذا الديوان ص 27 المشار إليه في الإحالة رقم 13 .

26) تنظر المقدمة التي كتبها لهذا التحقيق ص 61 - 62 .

27) تنظر المقدمة التي كتبها لهذا التحقيق ص 62 .

28) تنظر المقدمة التي كتبها لهذا التحقيق ص 50 - 51.

29) تنظر المقدمة التي كتبها لهذا التحقيق ص 54 - 55 .

30) تنظر المقدمة التي كتبها لهذا التحقيق ص 52 - 54 .

31) تنظر المقدمة التي كتبها لهذا التحقيق ص 56 - 60 .

منهج الدكتور محمد الكتاني في كتابه "الصراع بين القديم والجديد في الأدب الحديث"

أحمد الدويري
كلية الآداب - مكناس

لعل من أكبر الصعوبات التي تعترض الباحث في أي حقل من الحقول المعرفية ، تحديد المجال الذي يبحث فيه ، والكتاب الذي بين أيدينا دراسة أدبية بالمعنى الواسع للدراسة الأدبية التي تشتمل أجناسا أدبية وصفية ثلاثة هي تاريخ الادب والنقد والدراسة الادبية .

ودرس الادب ليس جديدا على العرب ولكن الصدورعن مناهج تستمد تصورها وخطواتها من مناهج العلوم هو الجديد على ساحتنا الأدبية ، ولهذا شغل أمر المنهج في الدرس الأدبي مفكرينا منذ نهاية القرن الماضي حتى وقتا الحاضر .

فما المنهج في كتاب (الصراع) أو بالتحديد ما المنهج الغالب فيه؟ وهل أخلص المؤلف في الجانب التطبيقي لتصوراته النظرية التي انطلق منها ، بما أن المنهج تصور وتصديق ؟ وما جوانب القوة في المنهج المتبع ؟ وما الجوانب التي أغفلها ؟ .

إن الحديث عن المنهج في كتاب (الصراع) يجرنا حتما إلى البحث عن إطار المنهج ومحتواه ، ذلك بأن الدرس الأدبي ، مشرقا ومغربا كما أسلفنا ، يتكون من ثلاثة أجناس ، قد تتداخل في بعض أسسها ووظائفها ، ولكنها مع ذلك التداخل تبقى واضحة المعالم ، بارزة الحدود .

والإطار هنا ليس إلا جنس الدرس الأدبي الذي اختاره المؤلف

للبحث ، والمحتوى هو المادة الأدبية والفكرية التي يؤطرها الجنس المذكور ، ويهتدي في إبراز ملامحها الفنية وخلفياتها الفكرية المنهج الذي يرتضيه الباحث أو يفرض نفسه عليه .

والواقع أن هذه الجوانب كلها ذات صلة بما يسمى حديثا الوعي المنهجي . فما هو بالضبط في كتاب (الصراع) ؟ وهل يحصل عليه القارئ دونما عنت ومشقة أم أنه لأبد له فيه من جهد وتدقيق؟ .

وفيما يخص جانب التصور يطالعنا الدكتور محمد الكتاني في مدخل الجزء الأول من الكتاب بهذه الحقيقة ، حين حديثه عن منهج البحث قائلا :

من أوليات العمل المنهجي في هذا البحث أن نفرق بين نوعين من الدراسات الأدبية وهما دراسة الأثر الأدبي ودراسة الحدث الأدبي . فدراسة الآثار الأدبية تتناول الأعمال التي يبدعها الكتاب والشعراء ، أما دراسة الأحداث أو الظواهر الأدبية فتتناول الحركات والاتجاهات . ومن طبيعة الآثار الأدبية أنها فردية أما الأحداث الأدبية فجماعية ، وتستطيع أن تتصور هذا الفرق في دراسة شعر الأخطل مثلا وفي دراسة فن النقائض في الشعرالأموي ... والحدث الأدبي يتصف بالاستمرار والتعاقب لأن له نشأة وتطورا واكتمالا ، ولأنه يتاح لأكثر من أديب واحد أن يشارك فيه بإبداعه ، أما الأثر الأدبي فلا يتصف بهذا الاستمرار، ولو أنه من الجائز أن يكون الأديب أنجزه في زمن ممتد لأن العبرة هنا هي أنه صدر عن صاحبه عملا متكاملا (1) .

ومما نلاحظه من خلال هذا التصور المنهجي أن الباحث يفرق بدقة بين تاريخ الأدب والنقد الأدبي ، من حيث موضوع كل واحد منهما والمجالات التي ينبغي الإلمام بها في كل واحد على حدة .

ثم إن المؤلف اختار اطارا منهجيا محددا هو تاريخ الأدب لأن الموضوع الذي يبحثه وهو الصراع ، ظاهرة أدبية معقدة لاتتعلق بشخص أو مجموعة أدباء وإنما بحدث أدبي يشبه إلى حد ما الأحداث الاجتماعية والتاريخية المعقدة التي يجب فيها بحث الأسباب والمعطيات والامتدادات .

واختيار تاريخ الأدب لبحث الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث يعد امتدادا لتقليد في درس الأدب العربي نشط منذ

نهاية القرن الماضي ، وازدهر في الربع الأول من القرن العشرين ، وتراجع قليلا ، بعد ذلك ، أمام النقد والدراسة الأدبية ، دون أن يتلاشى أو ينقرض ، على أن بقاءه، مع ذلك ، قد فرض على المشتغلين به أن يغيروا من الوجهة التي اتخذها في بداية القرن ؛ ولا أدل على هذا من أن الدكتور شوقي ضيف وهو يؤرخ للأدب العربي ، بعد منتصف هذا القرن بعقد من الزمن ، يوضح أنه وإن اختار قسمة الأدب العربي الى عصور زمنية فإنه سيفيد من مناهج العلوم الأخرى كعلم النفس وعلم السلالات وما إلى ذلك (2) ، ولا أدل على هذا التعديل في التاريخ الادبي أيضا من أن الدكتور محمد الكتاني نفسه لا يأخذ بتلك القسمة الزمنية التي هيمنت على كتاب الاسكندري وزيدان والزيات وتوفيق العدل قبل ذلك ويأخذ بجانب فقط من منهج التقسيم إلى فنون كما في الجزء الاول مثلا حين حديثه عن الكلاسيكية والبيانية في الشعر والنثر(3) ويجعل للبيئة الجغرافية والفكرية والعقدية أثرا في اختلاف الأدب ، بل وتوجيه حركة الصراع فيه ، كما هو الحال بين البيئة السورية والبيئة المصرية ، ولكن مع هذا فإن المؤلف لم يعط لمنهج من تلك التي أشرنا إليها كل الصلاحية ولا هو أنصت إليها ، دون غيرها ؛ وإنما وظفها بقدر ما يحتمله المنهج العام الذي اهتدى به في الدراسة .

ويمكن أن نذهب ، من الآن ، إلى أن المنهج الذي اتبعه د . الكتاني في كتاب الصراع منهج " علمي " من ناحيتين :
الأولى : أنه يهتم أكثر بتبيان الدوافع الأساسية والحوافز الكبرى إلى الصراع الأدبي . ومهما تنوعت تلك الدوافع والحوافز في الظاهر ، فإنه يردها مجتمعة إلى مؤثر فاعل هو المؤثر الايديولوجي .
والزاوية الثانية : أنه يربط الاشكال والأجناس والحركات الادبية كلها إلى الوعي الايديولوجي لدى أصحابها .

ومن المعلوم أن الانطلاق من الظاهر في أي حركة أدبية وانسانية والارتداد إلى الأصول والمنابع والدوافع المحركة فيها تعتبر عملا علميا من الطراز الرفيع ، إذ إن مثل هذا العمل كفيل بإبعادنا عن مجرد الوصف السطحي للظاهر ؛ ويجعلنا أيضا نربط ، في علاقة فاعلة بين المظهر والجوهر في كل النشاطات الانسانية ، ونرجع كل الشتات والتناقض في الظاهر إلى الوحدة والتآلف ، بل والبساطة في الباطن.

على أن المؤلف وإن وقف لتمييز تاريخ الأدب عن النقد الأدبي

فإنه ، تصورا لم يستطع أن يفصل بين النقد الأدبي والدراسة الادبية أو الدراسة المتخصصة والأدب . والحقيقة أن هذا الامر بمسير المثال عند جمهور الدارسين للأدب عربا أم أجانب إلا قليلا ممن أنجوا منهم .

فإذا كان النقد الأدبي يغلب عليه الحكم على الأعمال الأدبية المفردة ويطبعه التسرع في إصدار الاحكام لك أو عليك ، فإن الدراسة الادبية تعني مجموع انتاج الأديب ، وتفسر وتعلل أكثر مما تصدر من الاحكام . وهذه التفرقة هي التي يشير اليك ستانلي هايمن حين يقول :

> لم تكن العلاقات بين الدراسة المتخصصة والنقد في الادب طيبة كثيرا في أيامنا ذلك لان الدارس المتخصص ليس في نظر الناقد الا إمرءا جامعيا أفنى عليه الدهر وقصارى همه من الشعر العظيم أن يعد ما فيه من شولات وفواصل ، كما أن الناقد في نظر الدارس ليس الا امرا طائشا يجمع في أحكامه الجارفة عن الأدب بين عناصر متساوية من الجهالة والسلاطة . ومن سوء حظ العلاقات بين هذين الميدانين أن تكون هاتان المهمتان صحيحتين في أساسهما ، فإن الجامعات مكتظة حقا بمن أفنى عليهم الدهر والمجلات حافلة بالطائشين ، وأكثر دارسينا المتخصصين يفتقرون كثيرا إلى المعرفة ؛ وقليل هم النقاد المعاصرون الذين حرموا على الجمع مثل عزرابوند بين التطبيق في مجالهم السليط وبين الدراسة التخصصية الاصلية، وقليل هم الدارسون المتخصصون الذين حرصوا على أن لايسهموا في النقد بقسط من الخيال الاصيل(4)

لذلك عندما يمثل د . الكتاني للتفرقة بين دراسة الحدث الادبي ودراسة الأثر الادبي بالاخطل وشعره ، فإنه لا يقيم حدودا فاصلة بين جنسين في الدرس الادبي تحددت معالمها في الادب الغربي والعربي الحديث في بداية هذا القرن .

وللتوضيح أكثر نشير إلى أن الدراسة عرفت سيطرة منهجين فيها : منهج السيرة الادبية بما أن " أوضح اسباب وجود العمل الفني هو وجود صاحبه المؤلف . ولذلك كان ايضاح العمل من خلال شخصية الكاتب وحياته من أقدم مناهج الدراسة الادبية وأقواها" (5)؛ والمنهج الاكاديمي .

ولقد اصبحت السيرة ، ظاهرة وباطنة ، مفتاح ا لدراسات الادبية

التي ازدهرت بالمشرق العربي خاصة عند من ربطوا الادب بحياة الاديب الخاصة والعامة كما فعل "طه حسين في رسالته عن أبي العلاء سنة 1918، أو الذين ربطوا الادب بحياة الاديب الباطنية النفسية" أمثال العقاد والنويهي وآخرين من المتأثرين بعلم النفس ، خارج أسوار الجامعة . أما داخل الجامعة فقد عرفت الدراسة الأدبية منهجا واحدا غالبا هو المنهج الموضوعي والاكاديمي الذي يعنى فيه صاحبه اضافة الى ما سبق في منهج السيرة ، بشرح النصوص والشواهد وتخريج الاقوال والترجمة للأعلام والاماكن والبلدان ووضع فهارس خاصة في نهاية البحث دون إغفال عملية تحقيق النصوص وتوثيقها بالزيادة والحذف .

واذا كان الأمر كذلك فيما يخص الشق التصوري في المنهج العلمي للتاريخ الأدبي الذي اختاره الدكتور محمد الكتاني فإنه يحسن بنا الان أن نقارب هذه العلمية في المنهج بالنظر في الشق الثاني منه أعني العمل في حد ذاته أو الإنجاز ومحتويات الكتاب . عندما ننظر في الكتاب بجزئيه نجد الاقسام والمحتويات التالية :

الجزء الاول :

الباب الأول : البيئة والعصر ص 33 - 216 : السياسة والاجتماع ، الثقافة والفكر .

الباب الثاني : التقاء القديم والجديد في الأدب : الانبعاث في الشعر ، في النثر، الالتقاء في الابداع ، في النقد - عصر النهضة (التركيز على المدرسة الكلاسيكية في الشعر والبيانية في النثر ص 535) .

الجزء الثاني :

الباب الثالث : مستويات تصور الصراع :المفهوم ،القديم والجديد في الأدب الحديث (في ضوء الوعي الديني ، الأدبي ، القومي ، الوضعي ؛ الاجتماعي) محاور الصراع : العامية والفصحى ، الاساليب الادبية ؛ البلاغة العربية ، قضايا الشعر ، مناهج الدراسة وتقويم التراث ص 1155.

هذا ، إضافة إلى المقدمة والمدخل المنهجي والخاتمة التقويمية .

ومن الملاحظات على هذه الاقسام ما يلي :

1 - أن الجزء الثاني (الباب الثالث) هو الذي تجلى فيه الصراع بين القديم الجديد ، وعلى أكثر من مستوى ؛ ومعنى هذا أن الجزء الأول ببابيه ليس إلا تمهيدا أو رصدا لبداية الصراع أو الالتقاء بين عناصره فيكون الجزء الثاني بهذا نتيجة أدبية لسبب أو أسباب

دينية وقومية واجتماعية .

2 - أن الجزء الأول هو أيضا ، ينقسم إلى قسمين أو بابين : سبب ونتيجة أما السبب فهو الحديث عن البيئة والعصر في أكثر من مائتي صفحة (السياسة والاجتماع والثقافة والفكر) ، بينما يبقى الباب الثاني مظهرا أو نتيجة لتلك المعطيات والمؤثرات البيئية والثقافية والعقدية .

ومعنى هذا أن البيئة والعصر أو السياسة والاجتماع والثقافة والفكر يكون لها أثر مباشر في الأدب من جهة ، وفي توجيه الصراع فيه من جهة ثانية في شكل تعايش بين القديم والجديد في عصر الانبعاث وفي شكل صراع محتدم وتناحر قوي في عصر النهضة ومعنى هذا أيضا أن الصراع اكتسى طابعين مختلفين باختلاف البواعث .

ومهما يكن من أمر فإن التعايش والتصادم يرجعان إلى الاحوال السياسية والعقدية والاجتماعية للأدباء والمفكرين .

إن هذا التعليل وجيه ما في ذلك شك في أي بيئة أدبية ولكنه في الأدب العربي أكثر صحة لأن البيئة تمور بالصراعات المذهبية والعقدية اضافة إلى الصراعات الفكرية يقول :

ونحب أن نؤكد مرة أخرى هنا أن البارودي لم ينهض وحده بحركة البعث الشعري ، بل شاركته طائفة من الشعراء عاصروه وبذلك لم يكن هذا البعث الشعري مصادفة واتفاقا يفسر بالنبوغ وحده ، وإنما كان نتيجة من نتائج حركة الانبعاث القومي والديني كما فسرنا ، ونتيجة أيضا من نتائج الحياة العامة التي كان يحياها العرب في النصف الثاني من القرن الماضي ، وهي حياة رأينا صورتها السياسية والاجتماعية والفكرية في التأطير التاريخي لهذا البحث (6) .

والمؤلف ، من هذه الناحية لايختلف مع التصور الذي أفصح عنه في الكتاب ؛ بل إنه يتتبع كل عوامل الصراع المختلفة في كثير من فصول الكتاب ، وقبل الحديث عن قضية أدبية أو لغوية أثارت نقاشا بين هذا الطرف أو ذاك .

وإذا كان قد وفق في اطلاق الحدث الادبي le littéraire وهو لفظ معاصر على الظاهرة التي يدرسها في مقابل الحدث الاجتماعي Le

social (7) فإنه وفق أيما توفيق في رصده الصراع ، وفي التركيز على ضرورة ترتيب تلك العوامل في سلم الفاعلية والتأثير. يقول:

وتعليل انبعاث الشعر العربي بحركة الانبعاث الديني والقومي وما صاحبها من حركة إحياء القديم هو التعليل الشامل والاكثر انطباقا على واقع ذلك الانبعاث في مقوماته الأساسية ، بغض النظر عن أي تعليل آخر يمكن أن يندرج تحته أو يمثل وجها من وجوهه المتعددة ... وهكذا يجب أن تحفظ المراتب في التعليل ، لا يلقي بها جزافا بحيث تقع كما يتفق لها أن تقع بين السببية أو المسببة (8) .

ولم يكن هذا التركيز مجانيا بل إن الباحث ذهب به إلى مداه ، فبالاضافة إلى ضوروة حضور إعطاء صورة تراتبية عن المؤثرات كما مربنا ، أعطى صورة تراتبية عن النتائج ، وهي الانتاجات الأدبية ، في الشعر والنثر يقول :

وكان تواجد الانماط المتقابلة هو طابع الانبعاث ، فكان الشعر التقليدي يقابل العصري ويوازيه ، وكانت القصة والمقالة القصصية توازي المقامة وتقاربها . وكانت المقالة الصحفية المتحررة تقابل المقالة المسجعة وكان النقد الموضوعي أو الذاتي يقابل النقد اللغوي . كانت هذه الانماط تتزامن و لا تتعايش . فكان لكل نمط أنصاره والمقبلون عليه . ولكنه تزامن منذر بالصراع والتناقض العميق الذي يرمز إلى انشطار الحياة الفكرية بين تيارين كل تيار يعبر عن حضارة وثقافة وذوق ومن وراء كل منهما نمط حياة منفصل تمام الانفصال عن النمط الآخر . ومن المؤكد أن شواهد هذين التيارين الحضاريين والنمطين الإجتماعيين ما تزال قائمة في المدن العربية الكبرى العتيقة كالقاهرة ودمشق وفاس وبغداد (9).

إن هذه التراتبية في العوامل الفاعلة في الأدب هي التي جعلت المؤلف يصدر عن منهج من مناهج التاريخ الأدبي ، هو منهج التقسيم إلى مدارس أدبية فيتحدث عن المدرسة الكلاسيكية في الشعر والبيانية في النثر . ولقد كان الدكتور طه حسين جرب هذا المنهج في كتابه (في الادب الجاهلي) (105) ثم تابعه فيه الدكتور شوقي ضيف في كتابيه عن الشعر والنثر؛ ومما يبين صدور الباحث عن هذا المنهج صدورا طبيعيا ما يلي :

1) أن الاحاطة بالاسباب في الكتاب - وهي أسباب متنوعة ومتكاملة - قضت بضرورة الاحاطة بالنتائج ، فكانت دراسة فني الأدب

2) أن الحديث عن مراتب الاسباب ساق إلى الحديث عن مراتب المسببات . وفيما يخص الامرالأول نجد الباحث ، قبل عرضه الكلاسية في الشعر والبيانية في النثر يعطي صورة عن بنية الأدب في مرحلة الانبعاث في مصر والشام ، وهي بنية يشكلها النثر والشعر وتدخل تحت كل فن فيها أنواع وأشكال مختلفة يفهم منها أن النثر كان أكثر سيطرة .يقول بصدد المرصفي : "وأما صناعة الشعر فهي عنده أعقد من صناعة الانشاء "(12) . وبخصوص الامر الثاني ، لايقف الباحث عند الوصف للواقع الادبي من حيث المكونات فقط ، وإنما يرتبها في خريطة الادب وقتئذ فيبين مثلا من خلال أقوال المفكرين والأدباء أن النثر :كان يتقدم فنون الكتابة ، يأتي بعده الشعر لأنه صعب المراس .

ففي الشعر نجد الاغراض ذات الارتباط بتلك البواعث التي نجدها في البداية ، وهي التي تستجيب للوعي الديني والفردي والذاتي، كالحماسة والفروسية والفخر عند البارودي ممثل العصر، والرقة في موضوعات معينة عند اسماعيل صبري أي الطابع الحضري، وفي النثر نجد النزعة البيانية عند عبد الله فكري تنسخ الكتابة المقامية قبل أن يتحرر النثر على يد محمد عبده فيعبر عن المحيط الفكري والاجتماعي آنئذ .

إن تحديد مكونات البنية الأدبية في أي فترة مدروسة وتبيان مراتبها فيها خطوة ضرورية قبل الاقدام على تتبع مدرسة أو اتجاه أدبي معين مثلها في ذلك وفي نفس الاتجاه ، مثل تحقيق النص وتوثيقه، كما هو الشأن بالنسبة إلى ما قام به الدكتور طه حسين، وهو يتحقق من صحه الشعر المنسوب إلى الجاهليين ليقوم بعد ذلك برصد مدرستين في الشعر الجاهلي هما المدرسة الاوسية والمضرية والمدرسة المقابلة التي يتزعمها الشماخ وحسان والمنخل اليشكري (13) . ولذلك يقول رونيه ويليك وأوستين وآرين في هذا الصدد :

> من غير الممكن أن ننكر وجود كيان جوهري « لبنية » بقيت على ما هي خلال العصور ، هذه البنية مهما كانت ، ديناميكية: تتغير من خلال عملية التاريخ أثناء مرورها عبر عقول قرائها ونقادها الفنانين الآخرين .(14)

وأهم من ذلك الامرين النفاذ إلى طبيعة الحركة في الانسانيات وفي

الأدب بوجه خاص وهي طبيعة لا تقول بالطفرة ، بل بالتدرج : "فعصر الانبعاث الذي نتحدث عنه هو عصر التقاء القديم والجديد التقاء تزامن، وتعاصر ، لا التقاء صراع ، إذ كان القديم ما يزال له روعته في أعين معظم المثقفين بل كان القديم هو الذي ينشر على الناس ، وتستعادصورته القوية الناصعة في النفوس . وتستلهم أمثلته ، وتحتذي قوالبه وصوره؛ أما الجديد فهو التحرر من أثقال الكتابة المصنعة واطراحها في مجال الصحافة ، وهو الموضوعات المبتكرة في الشعر ، وهو اقتباس الأفكار والقوالب من الأداب الأوربية . وكل ذلك كان يتم في تؤدة وأناة عند طائفة وفي اندفاع عند طائفة أخرى فلم يكن الجديد ليقوى قوة القديم أو يبلغ حد منازعة البقاء . ثم بدأت أصوات النقد تهاجم التقليد ولا تهاجم القديم ثم تحولت مهاجمة التقليد إلى مهاجمة القديم باعتباره مناط التقليد . وبهذا التدرج نشأ الصراع بين القديم والجديد في البيئة الأدبية التي نتحدث عنها " (15).

ولو ذهبنا نستعرض المزايا المنهجية في الكتاب لضاقت بذلك هذه الصفحات لهذا لا مفر من الإشارة إليها بايجاز ، وهي :

* أن المؤلف لم يقف عند حدود بحث البواعث على الصراع ، بل رصد أيضا حركة الأدب وأثره في القراء . يقول :

> وفي ضوء هذه المواقف نرى أن أساليب الكتابة كانت تتنازعها تيارات المحافظة والتجديد على أساس ايديولوجي من ناحية - وهنا يحدد البواعث - وحسب متطلبات الجمهور القارئ الذي يخاطبه أولئك الكتاب من ناحية أخرى (16) .

وهنا يبرز أهمية القارئ في رصد حركة الصراع .

والجمهور القارئ قضى بالحديث عن الصحافة ودورها في الصراع وتغذيته وتوجيه مساره ، وهي « العامل الاساسي في احداث هذا الخلاف » (17)

وهذه المقارنات وما أثارته من نقاش وحوار أدبي على صفحات المجلات والصحف في مستهل هذا القرن كانت أوقفت الشعراء على حقيقة ما يطلب منهم من تجديد مع ما صاحب هذا الاتجاه من شعور بضرورة نشدان التحرر في الحياة الأدبية وفي ابداع الشعر خاصة» (18)

ومن المؤكد ان وضع المؤلف اليد على أثر القراء والصحافة في التاريخ للأدب ذو أثر خطير يعرفنا بقيمة ما قامت به جماعة بوردو بزعامة روبير اسكاربيت : R . escarpet في هذا المنحى الاجتماعي

للأدب بالتركيز على وسائل إذاعته بين القراء .
* أرجع المؤلف الحركة في النصوص الأدبية إلى تغير في الذوق العام ، وهذا بدوره راجع ، في نظره ، إلى الايديولوجيا ، وهذا تفسير علمي لتاريخ الأدب : فيالنصوص ليس لها صفة الجمال المطلق -ماعدا النص القرآني والحديثي - ولكن مقاييس قبولها أورفضها متغيرة يفرزها الذوق العام المتغير ، والايديولجيا التي يسير في ركابها .
* ثراء النصوص التي انطلق منها كما وكيفا ، فقد تكون حديثا صحافيا أو مقالة أو كتابا أو قصيدة أو رأيا نقديا .

على أن بعض تلك المحاسن ، حين ندقق فيها نجد أنها تحمل أيضا جوانب نقص أو قصور ، من ذلك مثلا أن التفسير العلمي لظاهرة الصراع يصبح ، أحيانا ، بعيدا عن العلمية ، وذلك حين يرد كل شيء إلى الايديولوجيا ؛ والواقع أن هذه الكلمة ذات مدلول فضفاض فبقدرما تشير الى النزعة العلمية في معالجة القضايا ، بقدر ما تفصح عن ضيق أصحابها ، بالموضوعية وإطلاق الأحكام تبعا للهوى والتعصب ، أي أنها حينا تعنى مجموعة القيم التي يعتنقها الناس عقيدة ، وحينا آخر تطلق على تأويل الطبيعة تأويلا خاطئا لاعلمية فيه . (19) ولانقصد بهذا أن التحليل في الكتاب مبني على تأويل خاطئ أي ايديولوجي، وإنما نعني جانبا من ذلك التحليل الذي يجعل ، مثلا ، الوعي الديني عند جماعة من الأدباء والمفكرين ايديولوجيا دينية !! وغني عن البيان أن ارجاع كل شيء الى الايديولوجيا ايديولوجيا أي تفسير غير علمي للظاهرة الأدبية .

ومن تلك القضايا التي لايمكن أن يتفق بشأنها الاعتقاد الراسخ بنظرية الانعكاس المرآوي للايديولوجيا أو الفكر أو المجتمع في الأدب، والواقع أن العلاقة أشد تعقيدا من هذا ، وقد علمتنا المناهج الحديثة وبالضبط تلك التي انطلقت من الجدل في معالجة القضايا الفنية كمنهج لوكاتش الاجتماعي وگولدمان البنيوي التوليدي أن العلاقة بين أشكال الوعي والفنون ليست علاقة انعكاس آلي ، وانما هي أكبر من ذلك .

ويعطي لوكاتش نموذجا مناقضا لهذا الانعكاس الآلي بأعمال بلزاك الروائية التي وأن انطلقت من بورجوازي فإنها تفضح تصرف البرجوازية الجشعة (20) .

والعجيب في الأمر أن الدكتور محمد الكتاني يكاد يلمس هذه

الحقيقة حين يتحدث عن كتاب مزجوا بين الطريقة المقامية في النثر والطريقة المرسلة ، فذكر مثلا أنهم كانوا يحاولون إرضاء الأذواق بالكتابة بهذا اللون في هذه المناسبة ، وبغيره في أخرى ، كما هو الشأن بالنسبة إلى محمد عبده ؛ يقول المؤلف عنه :

كان قادرا على تخطي ذلك التأثير أو التأثر بالكتابة المصنعة . ولهذا نراه يعلن في رسالة بعث بها إلى معاصره الكاتب الشاعر حفني ناصف أنه تاب عن السجع حتى ولو ساق إليه الطبع (21) .

وإذن فالعلاقة غير ميكانيكية ، بل هي معقدة ، وقد شعر الباحث بذلك ، يقول على سبيل المثال في الخاتمة وهي تقويم للبحث وللدرس الأدبي عموما :

لذلك لم نقبل الموقف القائل بأن بأن الفكر هو مجرد انعكاس للحياة المادية وظروفها الاجتماعية (22).

وهنا نصل إلى أهم نقص في الكتاب أدى إليه الانسياق مع الايديولوجيا وهو عدم رصد الصراع في مناهج الدرس ، في تاريخ الأدب العربي .

لقد تتبع الدكتور محمد الكتاني الصراع في مناهج الدراسة وتقويم التراث في قضية الشك في الشعر الجاهلي ، من خلال ما أورده د . طه حسين في كتاب (في الشعر الجاهلي) وجذور الموضوع في العصر الحديث (د ، أحمد ضيف) ، وردود الرافعي والغمراوي ولطفي جمعة ومحمد الخضر حسين والبهبيتي عليه . وبعد تبيان الخلفية الايديولوجية «المنهج الشك » يعرض رؤيتين في تقويم الشعر الجاهلي : احداهما قومية عند أحمد أمين (جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي)

وردود زكي مبارك عليها (جناية أحمد أمين على الأدب العربي الحديث) والثانية اقليمية عند أمين الخولي وما استتبعته من نقاش وردود . من ص 1044إلى ص 1155 .

إن الرؤية الاقليمية والقومية ، وهما من بعض الاوجه متفقتان في الإيمان بضرورة الانسلاخ عن التراث ، وكذا موقف الشك من الشعر الجاهلي كل ذلك كان له خطره في مجال الدرس الأدبي عموما ، وفي قضية الصراع المنهجي في الأدب العربي الحديث من خلال ما أثارته من كتابات مؤيدة ومعارضة ولكن الاقتصار عليها ، وفي مسألة الصراع بين

المناهج في دراسة الأدب يعتبر عملا غير كاف ؛ ذلك بأن الصراع في الأدب العربي في هذا المضمار كان أسبق من هذا الوقت بما يزيد على عقد من السنين ، وبالتحديد ، انطلقت شرارته الإولى بعد سنة 1911 ، إثر صدور الجزء الأول من كتاب جرجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) ولإبراز أهمية الصراع هنا نشير إلى أن الخلاف لم يكن بين منهج وآخر ضمن الجنس الأدبي الواحد ، وهو هنا جنس تاريخ الأدب ، ولا بين جنس من أجناس دراسة الأدب وجنس لآخر ، بين تاريخ الأدب والنقد الأدبي مثلا فحسب ، وإنما أيضا بين تاريخ الأدب بالمفهوم الحديث وما كان يشبهه في التراث العربي في مجال الدراسة ككتب التراجم والطبقات . فإن الذين أرخوا للأدب في بداية العقد الثاني من هذا القرن إنما اختاروا تاريخ الأدب دون غيره من أجناس الدراسة الأدبية لأنه في الربع الأول من القرن العشرين ، عموما ، وفي العقد الأول والثاني من القرن تحديدا كان تاريخ الأدب أكثر تمثيلا لاهتمامات الدارسين وأشد قوة وتأثيرا من النقد والدراسة المتخصصة في الأدب لأسباب تعليمية (التعليم النظامي) وقومية نصالية ضد المستعمر : (معرفة التراث ومحاربته بمناهجه) ؛ حتى إذا ما انتهى الربع الأول من هذا القرن تصدى لتاريخ الأدب طه حسين وجنح بالدرس الأدبي من العناية بالإطار التاريخي والاجتماعي إلى ضرورة العناية بالنص الأدبي ، في غمرة الانشغال العالمي بالنص من أجلى مظاهره المنهج الشكلي في روسيا والبنيوي في غرب أوروبا .

ولم يكن الأمر سهلا في جعل كفة الاشتغال بالنص في النقد والدراسة الأدبية راجحة وإنما كان ذلك من خلال معارك برزت في كتاب (في الشعر الجاهلي) وفي (حديث الأربعاء) وكثير من كتب الأدب في تلك الفترة . يقول طه حسين :

> بين أيدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى الحق ... فنتساءل أهناك شعر جاهلي ؟ فإن كان ... فما السبيل إلى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز عن غيره ؟ (23) .

ومثل هذه التساؤلات هي التي قادت عميد الأدب العربي إلى العزوف عن المقياس العلمي يقصد العلم الموضوعي بل الوضعي ، الذي طبقه في كتابه الأول عن أبي العلاء قبل هذا الوقت ، وكذا عدم الاقتصار على المقياس الفني وحده أو الذوقي (24) .

ولعل الصراع بين مناهج تاريخ الأدب عندنا كانت محصورة في

منهجين هما منهج التقسيم إلى عصور زمنية ، وصدر عنه زيدان والزيات لاحقا ، ومنهج التقسيم إلى بحوث أو علوم أو فنون ويتزعمه الرافعي في (تاريخ آداب العرب) بأجزائه الثلاثة ، ودافع عنه كما يدافع عن العقيدة الدينية في كتابه (تحت راية القرآن) ، ومما يؤكد الصراع بين مناهج تاريخ الأدب قول طه حسين في منهج التقسيم إلى عصور وهو الذي طغى أكثر من غيره :

> لاينبغي أن تخدعك هذه الألفاظ المستحدثة في الأدب ولا هذا النحو من التأليف الذي يقسم التاريخ الأدبي إلى عصور ويحاول أن يدخل فيه شيئا من الترتيب والتنظيم ، فذلك كله عناية بالقشور والأشكال لايمس اللباب ولا الموضوع (25) .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فإن هؤلاء المؤرخين ، رغم اختلاف مناهجهم ، وخلافهم مع غيرهم من المؤرخين ، قد فتحوا جبهة أخرى، وإن كانت أخف حدة من سابقتها ، مع القدماء وانصارهم ممن كان يظن أن تاريخ الأدب بالشكل الذي اصطنعوه إنما كان امتدادا لكتب التراجم القديمة . يقول زيدان مثلا ، أن كتب التراجم " لايصح أن تسمى تاريخا لآداب اللغة العربية بالمعنى المراد للتاريخ اليوم " (26)، وبين الزيات ذلك بقوله " إنها أخبار مفردة غير مرتبطة لاتظهر ما بين الشعراء والكتاب من علاقة في الصناعة والغرض والأسلوب ولا تذكر ماعرا النظم والنثر من تحول وتقلب" (27)؛ ويقول طه حسين بشيء من التواضع :"فتاريخ الأدب الذي نريد أن نستحدثه الآن ليس إنشاء ولا اختراعا وإنما هو تجديد واصلاح لما ترك القدماء، لا أقل ولا أكثر" (28).

كما أن المؤرخين للأدب وقفوا ضد من ينعت عملهم بأنه اسقاط لمناهج المستشرقين على المادة الأدبية وأنه "جهل" و "عقم" و "ثياب متداعية كلما خيطت من ناحية تهتكت من ناحية" على حد تعبير الرافعي (29) .

ومعلوم أن الجامعة المصرية القديمة كانت قد استقدمت أساتذة مستشرقين درسوا فيها وأصدروا كتبا في تاريخ الأدب ، بالإضافة الى غيرهم ممن شغله التأليف في هذا المجال ، ونذكر من هؤلاء : بروكلمان وجيب ونالينو ونيكلسون وهوار (30) . يقول زيدان :

> ... فهذا التقسيم - يعنى تقسيم الأدب العربي الى عصور زمنية كما جرت أو غلبت العادة يومئذ- وإن

كان الأستاذ بروكلمان انتهجه في كتابه ، ولكننا خالفناه في طريقته بحيث أصبح أكثره خاصا بكتابنا (31) .

وهكذا يتجلى أن هذا الصراع المنهجي المتشعب كان أحق به أن يتناوله كتاب موسوعي هام ككتاب الدكتور محمد الكتاني .

لقد انشد المؤلف في بحثه ظاهرة الصراع بين القديم والجديد ، إلى المشرق العربي وما ظهر فيه من أعمال أدبية منذ نهاية القرن الماضي إلى منتصف هذا القرن ؛ ثم إن الخلفية الفكرية والثقافية بالمغرب كان لها أثرها في الكتاب ولو بطريق غير مباشر ، ومفادها أن الباحثين اشتغلوا بالدراسة الأدبية الأكاديمية وبتاريخ الأدب وفق ماسطرته الدراسات الرائدة في هذا المجال ككتاب (النبوغ) الذي ألم فيه ذ. عبد گنون بالشعر والنثر على مر العصور التي عرفتها العربية ببلاد المغرب الاقصى إلى كتاب الدكتور عباس الجراري (الأدب المغربي ظواهره وقضاياه) وكتاب (الوافي) للمرحوم محمد بن تاويت .

كما أن الباحث في الصراع كان منشدا إلى الصراع المنهجي بين اتجاهات النقد الأدبي بالمغرب بعد نهاية سنوات الستين من هذا القرن، وهي مناهج حديثة ، بنيوية صارعت نماذج النقد النهضوي المشرقي الذي أطل علينا منذ فترة ما بين الحربين ، وتحديدا بعد ظهور الصحافة الوطنية في العقد الثالث من هذا القرن ، كما تصارع جناحا البنيوية الشكلي والتوليدي في غمرة الدراسات الجامعية وضمن أعداد مجلة أقلام والثقافة الجديدة وملاحق العلم والمحرر بالخصوص. كل هذه العوامل كان الباحث ينصت اليها .

إن نظرة سريعة الى كتاب (الصراع) تبين أن تاريخ الأدب غلب على البحث ، ومعناه أن أجناسا أخرى في الدرس الأدبي تتلبس التاريخ أو تسير في جوقته ، من ذلك مثلا أن المؤلف أورد نصوصا من كتب عارضت مقولة النحل في الشعر الجاهلي ، يمكن اعتبارها مع الاحالات الكثيرة في الكتاب ومع الفهارس المختلفة والمتنوعة في نهايته أدخل في الدراسة المتخصصة في الأدب بالمنهج الأكاديمي الذي أشرنا اليه ؛ وانتقاء النصوص الدالة على موقف أو رأي ، وتوجيهها لخدمة هذه القضية أو تلك ، وكذا الموقف العام من ظاهرة الصراع ، والحكم بأن الوعي الايديولوجي يوجهها ، والحكم على كثير من المحاولات التجديدية في الشعر والنثر من أنها تخدم أهدافا ايديولوجية قومية

أو لادينية ، هو في المقام الأول نوع من النقد . وهذه مسألة تحتاج الى دراسة خاصة .

الهوامش :

1) د. محمد الكتاني ، الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث جـ 1 ص 14 - 15 .
2) د. شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي، المقدمة .
3) د. الكتاني ، الصراع ، جـ 1 ، ص 349 - 377 .
4) ستانلي هايمن ، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ص 1 - ص 286 .
5) رونيه ويليك واوستين وارين ، نظرية الأدب - ص 93 .
6) الصراع ، جـ 1 ، ص 255 .
7) R. Escorarpit, le littéraire et le social, Flamarion, 1970.
8) الصراع جـ 1 ، ص 247 - 248 .
9) نفسه ، ص 289 .
10) وطه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص 291 .
11) د . شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي (بيروت - الأندلس) 1943 والفن ومذاهبه في النثر العربي ، 1960 (القاهرة - دار المعارف) .
12) الصراع ، جـ 1 ، ص 305 .
13) في الأدب الجاهلي ص 291 .
14) نظرية الأدب ، ص 202 .
15) الصراع .. جـ 1 ص 293 .
16) نفسه جـ 2 ص 836 .
17) نفسه ص 840 .
18) نفسه ص 937 .
19) حسين الواد ، في تاريخ الادب ، مفاهيم ومناهج ، ص : 12 هامش 17 .
20) G. Lukacs: Balzac et le réalisme français, Maspéro, 1973.
و L. Goldmann : Pour une sociologie du roman ; Gallémard 1964.
21) الصراع ، ص 283 وانظر هامش 16 من جـ 1 ص 282 .
22) الصراع جـ 2 ص 1171 ، 1172 .
23) في الادب الجاهلي ، ص 64-62 .

24) نفسه ص 33
25) نفسه ص 63
26) زيدان تاريخ آداب اللغة العربية جـ ص 8 .
27) الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 4 . وانظر حسين الواد ص 82-81
28) طه حسين ، الادب الجاهلي ، ص 36
29) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، جـ 1، ص 21 و ص 14
30) حسين الواد ، ص 93
31) نفسه ص 83 هامش 20 .

جوانب من الشخصية الفكرية للكتاني
من خلال بعض كتاباته

إبراهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب - مكناس

من العسير على الباحث أن يرصد كل الجوانب الفكرية التي تلتئمها شخصية الأستاذ محمد الكتاني ، انطلاقا من قراءة تشمل جل كتاباته المختلفة المشارب ، المتعددة المناهل . ففضلا عن غزارتها وتنوع مصادرها المعرفية ، تنحو بك فضاءات فكره نحو عالم رحب يصعب رسم حدوده أو تلمس معالمه الأساسية .لذلك ارتأينا في هذه الورقة المتواضعة أن نضع الاصبع على عينة من إنتاجاته المتميزة ، من مقالات وأبحاث نشرها في مجلة كلية الآداب بتطوان . لماذا آثرنا اختيار هذه المجلة بالذات كحقل لرصد بعض معالم الفكر الكتاني الذي نروم النبش فيه؟

ثمة أسباب موضوعية جعلتنا نبحر في رحاب هذا الفكر الشاسع، منها ان هذه المجلة تمثل المنبر الفكري لكلية سخر زهرة عمره في خدمة ثقافتها رإشعاعها ، وهو مديرها المسؤول . كما أنها تحوي بين ثنايا صفحاتها أبحاثه التي أفرغ فيهاعصارة جهده تحقيقا وإبداعا وفكرا، ناهيك عن مقدمات المجلة التي عبر فيها عن رؤيته العميقة للثقافة المغربية ، وكل مناحي المعرفة الإنسانية ، وقبض فيها على الخيوط التي تشكل وفق منظوره أدوات قمينة بإثراء الفكر المغربي.

ومما يبرر هذا الإختيار كذلك ، أن الأعمال المنشورة في المجلات والدوريات عموما ، قلما تلفت إليها أنظارالقراء وجمهرة النقاد لقلة تداولها ، وهو ما يفسر انصباب الاهتمام على مؤلفات الكتاني ، في

الوقت الذي لم تحظ فيه مقالاته المنشورة بالمجلة المذكورة، بما تستحقه من عناية كاملة إذا ما قارناها بالاهتمام الذي حظيت به كتبه الأخرى، مع أن الأستاذ الكتاني نفسه اعتبر هذه المجلة لبنة متواضعة ، في بناء الصرح الجديد للمغرب المعاصر ومجلة للبحث العلمي ، (1) بل يعزى إليه الفضل في كونه أول من فكر في تأسيسها وجعلها منبرا علميا للحوار والتراكم المعرفي (2)، فضلا عن أن ما نشره فيها من أبحاث تشكل تجارب غنية من ممارساته وخبرته العميقة لخصها وركزها في هذه المجلة : ولاغرو فإنه لايكاد عدد أعدادها الصادرة يخلو من بحث أو مقال أو تقديم ألقى فيه بإشراقة قلمه ما أضاء الجوانب المعتمة في الفكر المغربي والتراث الأندلسي.

والجدير بالملاحظة أن قارئ هذه المقالات والأبحاث التي أظهر فيها أستاذنا علو كعب وطول باع ، يضطر لإعادة قراءتها وتكرارها مرارا حتى يتمكن من استيعاب ما هو ظاهر ممكن الاستيعاب بعد التدقيق والتفحص ، وماهو كامن لايدرك إلا بمراجعات وإحالات تستلزم الكثير من الوقت والجهد المضني.

ما يثير ملاحظة القارئ كذلك ، وهو بصدد دراسة مقالات الأستاذ الكتاني ، هو الاطلاع الواسع لصاحبها فهو في كتاباته صوفي عارف، وفيلسوف بارع ، ومجادل محنك ، وأديب لايشق له غبار ، ومحقق ثبت يحفر في التراث حفرا ليلتقط جزئياته ويلم شتاته ، ويغوص ليستخرج الشذرات الجديدة ويعالجها بأوثق المناهج الأصيلة إلى جانب آخر صيحات المناهج المعاصرة.

ملاحظة ثالثة حول هذه الأبحاث ، وتكمن فيما يلمسه القارئ من حرص الأستاذ الكتاني على التميز بالهوية الحضارية الإسلامية، والوطنية المغربية الصادقة، مع الانفتاح على الثقافات الأخرى، والدعوة لحوار الحضارات.

وكتطبيق للملاحظات السالفة الذكر ، نحاول جمع الخطوط العريضة لكتابات الأستاذ الكتاني في مجلة آداب تطوان لنستخرج منها ثلاث معالم فكرية كما تراءت لنا وهي:

1) الكتاني مفكر صاحب مشروع علمي جامعي،
2) الكتاني مؤرخ ذو حس وطني،
3) الكتاني باحث ومحقق في التراث الاندلسي.

1) الكتاني مفكر صاحب مشروع علمي جامعي.

إن قراءة التقديمات التي قدم بها الاستاذ محمد الكتاني لأعداد مجلة آداب تطوان ، قمينة بإبراز رؤيته للعلاقة بين البحث والجامعة، فرسالة الجامعة في منظوره ينبغي الا تقتصر على التدريس الأكاديمي البحث ، بل يجب أن تتحول لتصبح الجامعة "مركزا للإشعاع العلمي، وملتقى للحوار الفكري ، وقبلة للباحثين والدارسين من مختلف الجامعات في الداخل والخارج(3) . ويعبر في موضع آخر عن هذا الهاجس العلمي الداعي إلى تجاوز التلقين المعرفي للجامعة بقوله:"نريد تجاوز التلقين المعرفي والتوجيه التربوي إلى التعبير العلني عن الهواجس الفكرية ، والمشاغل العلمية والإسهام في الحوار الفكري" (4).

أما عن مرتكزات مشروعه العلمي، فيمكن تلمس تجلياتها من خلال نفس التقديمات التي صدر بها المجلة ، فهو يرى أن المشروع العلمي ينبغي أن يبدأ من تكسير جدار الصمت بتأسيس صوت يكون له حضور في ساحة البحث العلمي ، وما هذا الصوت إلا مجلة الكلية التي تعد منبرا تتفاعل فيه الأفكار ، وتتلاقح في جدلية متفتحة بيد أنه يرى بفكره الثاقب أن جملة من الصعوبات تعتور أي مشروع علمي ، لذلك يصبح العمل هو الأداة الوحيدة التي تؤمن نجاحه وتحميه مما يمكن أن يعترضه من الفشل والإخفاقات . لذلك يضيف شرطا آخر لإنجاح المشروع، وهو ضرورة التأني والهدوء ، والإلتزام بالوعي والرزانة في البداية والمنطلق . وفي هذا السياق يطرح تساؤلا مركزيا ذا دلالة عميقة: "هل يعد المشروع مجازفة ؟ " ويضيف : "إن الشعور بالمسؤولية وعدم ترك الأمور على عوانها للصدفة هو الكفيل بصنع الجواب" (5) .

علاوة على ذلك ، يركز الأستاذ الكتاني في مشروعه العلمي على جدلية الأخذ والعطاء، والتبادل الحر للفكر، دون تعصب أو تشنج (6). وفي الوقت ذاته يصر على ضرورة الانفتاح على المناهج المعاصرة لإثراء أصالتنا وإعطائها دم الإستمرارية ، وهو مايتأكد من القناعة التي عبر عنها بضرورة الاتصال بالمناهج المتفاعلة مع الفكر المعاصر في "عالم سقطت فيه الحدود بين العقول والحضارات من أجل البقاء والاستمرار والتجدد" (7) لذلك يدعو بمنظور المفكر المحنكك إلى ضرورة الجمع بين الخصوصية الوطنية ، والشمولية الحضارية والفكرية ، وموضعة الفكر المغربي بين الشرق والغرب (8) . وفي الوقت نفسه يدعو في مشروعه

الطموح إلى مراجعة المسلمات ، وكل ما اعتبر من ثوابث الفكر، والانتقال إلى طرح التساؤلات التي من شأنها توضيح الرؤية ، وتحديد البحث في منعطفات الفكر.

بيد أنه يحذر من الوقوع في مزالق الايديولوجيات والتوجه الدوغمائي ، والانسياق وراء العواطف والانفعالات التي يتمخض عنها الانفلات من الطريق السوي والسقوط في متاهات المذهبية . ويرى ضرورة الاحتكام للبحث المتسلح بالمنهج العلمي بديلا . وهذا الحياد العلمي - كما يذهب - ليس الا التزاما بواقع التاريخ المغربي (9) .

والملاحظ أن الأستاذ الكتاني يقرن مشروعه العلمي بالعمق الفكري الذي يربطه بالاساتذة الباحثين . فهو يعد - بحق - أب الدعاة إلى عقد الملتقيات والندوات العلمية التي تستقطب الدارسين من مختلف الجامعات العالمية (10) ، لما لذلك من أهمية في خلق مناخ للحوار البناء ، وتبادل الخبرات ووسائل المعرفة . وما عقد العديد من الملتقيات في آداب تطوان ، ومساهمته الشخصية فيها ضمن صفوف الأساتذة الباحثين ، إلا قرينة على صحة هذا التوجه .

وبذلك يمكن القول أن المشروع الكتاني مشروع متكامل، يجعل من الجامعة منطلقا للإشعاع العلمي ، ويعتمد على العمل المتأني أسلوبا، وتعميم المعرفة غاية ، والتلاقح والانفتاح على الآخر أداة ، والجمع بين المحلية والشمولية الحضارية منهجا ، والتخطيط الهادف وعدم الاحتكام للصدفة منطلقا ، والعمل والاستمرارية والنفس الطويل مرتكزا وأساسا.

2) الكتاني المؤرخ الوطني.

إن هاجس التاريخ يشكل خانة هامة في فضاء الفكر الكتاني ، فهو إلى جانب اهتمامه بالادب ، يطرح دائما ضرورة الاهتمام بالارضية التاريخية التي ولدت من رحمها . ولاغروة فإنه تمكن في إطار تحقيقه لروضة التعريف أن يلامس حيثيات عصر ابن الخطيب ، والتيارات السائدة فيه ، وتنافس القوى السياسية، والتقلبات والاضطرابات التي جرت بقرنها في طول بلاد الأندلس وعرضها، واستحضر الأحداث التي جرت تحت سمع وبصر بن الخطيب ، إلى غير ذلك من التفاصيل الدقيقة التي جعلته يحيط بالقرن 8 هـ /(14م) إحاطة تاريخية شاملة

إلى درجة يمكن القول ، أنه أصبح مرجعا تاريخيا لامحيد عنه لكل من يروم دراسة التيارات الفكرية في هذا القرن. وهو يوظف في ذلك أدوات المؤرخ ، فيستند في استنباط تلك التيارات على العلماء والمؤرخين الذين عاصروا الفترة مدار البحث كابن خلدون والشاطبي وابن الخطيب نفسه . ويدافع عن وجهة نظره من خلال النصوص دون لي الحقائق ، ويتتبع ظاهرة التصوف تتبعا كرونولوجيا انطلاقا من المحاسبي إلى القشيري ثم الغزالي وصولا إلى ابن الخطيب وغيره من أعلام التصوف في القرن 8 هـ ويستند على المتخصصين (11) . كما أنه يوظف الأدوات والمناهج التي يستعملها المؤرخ الحصيف، مثل المنهج المقارن عند سرده للمذاهب ، والمنهج التحليلي عهد تحليله لمضمون كتاب "الروضة" ، إذ يقف على الغاية من تأليفه ومنهج المؤلف وأسلوبه، ليخلص إلى أن موضوع الكتاب هو الحب الإلهي بأوسع معانيه (12)، مؤكدا أن ابن الخطيب ذهب في كتابه مذهبا غريبا حين جعل موضوع المحبة صورة خيالية تمثلها شجرة ، والنفس الانسانية أرضا لها . ويستخرج من خلال التحليل التيارات السائدة عصرئذ، واهمها التيار الفقهي المحافظ ، والتيار الصوفي بفرعيه السني والعرفاني ، ثم التيار الفلسفي بمذاهبه الكبرى الافلاطوني والأرسطي والإشراقي (13) .

وعلى غرار المؤرخ ، يستعمل الكتاني الاجتهاد والافتراض الذي يتلاءم مع الواقع والمنطق التاريخي ، فهو يرجح أن يكون ابن الخطيب قد استوحى فكرة تمثيل المحبة بالشجرة ، من كتابات سابقة في التصوف ، لاسيما في كتابات ابن قيم الجوزية ، لكنه يدعم افتراضاته بالحجج القوية والمنطقية ، وهو ما يتجلى في مثال المنحى التصوفي لابن الخطيب في أخريات حياته . (14) يضاف الى ذلك أن الأستاذ الكتاني لايعتمد على القراءة الواحدة ، بل القراءات المتعددة (15) ويعطى القرائن كما يفعل المؤرخ انطلاقا من النصوص العديدة .

ولعل ما يعكس اهتمامه وهوسه بالتاريخ ما عبر عنه بقوله :

لايمكن أن تقتصر هذه الكلية على نشر المعرفة وتكوين الطلبة، وإنما يجب أن تتطلع إلى ماطوي من ذلك التاريخ ، والتعريف بما غمره النسيان من مساهمة هذا الإقليم - تطوان - برجالاته وأبنائه في حقول الحضارة والإبداع ... وإن الوقوف على تراث الماضي وتمثله وتحليله في ضوء مناهجنا المعاصرة لهو الشرط الأول لمعرفة الهوية القومية (16).

ويبرز في موضع آخر اهتمامه بالتاريخ المغربي ومعرفته العميقة به خاصة في القرن 8 هـ الذي شكل ميدان أبحاثه الأكاديمية. وهو يحرص على التراث الماضي الوحدوي ، ويرى أن مسؤولية البحث العلمي في نطاق التراث الحضاري الإسلامي المغاربي والأندلسي تفرض علينا اليوم الرجوع إلى ذلك التاريخ المشترك لتحليله في ضوء مناهج جديدة ، ومن منظور جديد لإبراز وشائج القربى ومقومات الوحدة بين هذه الأقطار. (17)

ولم يكن اهتمامه بالتاريخ المغربي على الخصوص سوى نجل لوطنيته وغيرته على تاريخ أمته . فكثيرة هي المواضع التي ركز فيها على الخصوصية الوطنية ، (18) وأبان بصدق الوطني الغيور عن اهتمامه بمدينة سبتة السليبة ، فهو يدافع عن إسلاميتها وعروبتها وأصالتها بقوله :

وتلك الهوية الحقيقية ، لن ينال منها ما عرفته المدينة من احتلال وطمس معالمها المادية " . وبذلك يمكن القول أن الأستاذ الكتاني جمع بين الوطنية والتاريخ إلى جانب ميدانه الأدبي. وهي صفات لاتجتمع إلا للنادر من رجالات العلم والمعرفة.

3) الكتاني الباحث والمحقق للتراث الأندلسي .

لا يختلف اثنان في أن الأستاذ الكتاني يعد أحد مؤسسي مدرسة تحقيق التراث الأندلسي . فتحقيق هذا التراث في منظوره رسالة والتزام علمي . وفي هذا المنحى يقول : " إن قراءة هذا التراث وتحقيقه ومدارسته تصبح في إطار هذا التوجه الحضاري واجبا علميا نحقق من خلاله الاطلاع على مكونات ثقافتنا الوطنية ، القائمة على الحوار بين الحضارات والعقول " (19) لذلك لاجرم أن يكون من أكبر المتحمسين للاهتمام بأعلام الأندلس ، وفي مقدمتهم ابن الخطيب الذي أمضى جزءا غير يسير من حياته العلمية ، منكبا على تحليل إحدى آثاره الأدبية بكفاءة الدارس المخلص ، والمحقق الأمين الذي يجعل خطا أحمر بين التحقيق العلمي الذي يدعو اليه ، والقائم على قواعد وشروط علمية سناتي على ذكرها ، والتحقييق المتعجل الذي يضرب في فراغ (20) .

ومما يؤكد ولع الأستاذ الكتاني بالثراث الأندلسي كذلك حرصه

على عقد حلقات الملتقى المغربي - الأندلسي كل سنتين برحاب كلية الآداب بتطوان ، إذ عقدت منها لحد الآن خمس حلقات حرص على المشاركة في أعمالها شخصيا ، وقدم لها كل العناية والتشجيع والرعاية ، ووعد بنشر أعمالها فما قصر في وعده ولايزال يحرص دون كلل على استمرار عقد هذه الحلقات الأندلسية التي تند فوائدها عن الحصر، فهي بكل نزاهة ثمرة من ثمار مجهوداته إذ آلى على نفسه إلا أن يبعث التراث الأندلسي ويجعل من مدينة تطوان مركزا للدراسات الأندلسية، وموقع التقاء فكر العدوتين ، ونواة حضارة الغرب الإسلامي.

وفي مجال التحقيق، يمثل الأستاذ الكتاني -دون مدافع - مدرسة لها قواعدها فهو يعرض في إحدى مقالاته تجربته العلمية في تحقيق التراث من خلال دراسة ميدانية هي كتاب " روضة التعريف بالحب الشريف" للسان الدين بن الخطيب . ويمكن رصد تلك التجربة من خلال قواعد التحقيق التي يدعو لها ، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- عدم انجراف المحقق وراء التنظير رغم ما لهذا الأخير من إغراء.
- الهدف من التحقيق هو تحقيق النص عن طريق التوثيق العلمي.
- الجانب العملي في التحقيق هو الأساس الأول في عمل المحقق.
- موضوع التحقيق هو الذي يفرض شروط العمل ومنهجه.(21)
- ينبغي أن يطمح المحقق إلى العثور على النسخة الأم التي يعتبرها صاحبها صحيحة ومجازة .

ويضع الأستاذ الكتاني شروطا أساسية للتحقيق العلمي :

- أولها : قراءة موضوعية للنص ، لا تزيد ولا تنقص ، فتكون أقرب إلى إملاء المؤلف نفسه .
- أما الثاني فهو ضبط النص وتأسيسه من خلال المقارنات المتقدمة والمتأخرة . (22) وهو يدعو إلى تصحيح المتن الذي يراه المحقق خطئا، ويكمل ما يشوب الجملة من نقص ، سواء تعلق الأمر بحرف أو كلمة مع التنبيه على ذلك في الحاشية . وتبريره لهذا المنهج ينطلق من القاعدة القائلة " بأننا نحقق متن المؤلف ، لا كتابة الناسخ لذلك المتن" (23).

ويفاضل بين منهج تأسيس النص ومنهج نقل النص فيستحسن الأول لأن التحقيق في نظره يستهدف تحقيق متن المؤلف ، وما يعلم بالحجج المتعددة أنه غاية المؤلف ومسعاه ، لأنه لايجوز للمحقق الاندفاع وراء تحقيق الهدف ، حتى ولو أدى به الأمر إلى التصرف بلا مبرر .

ثالث هذه الشروط حسب وجهة نظر الكتاني يكمن في ضرورة معرفة الأساليب والمضامين للعلم الذي يندرج فيه المتن كالسجع إذا تعلق الأمر بنص مسجوع ، (24) فضلا عن ضرورة الاستعانة بالمصنفات وكل المظان التي نقل منها صاحب النص المراد تحقيقه .

وقد لخص الأستاذ الكتاني أوليات المنهجية المتبعة في التحقيق في طريقتين :

- الطريقة الأولى وتتمثل في إعادة قراءة النص في مخطوطاته المتوفرة ، مع الاجتهاد في تقصيها والاطلاع عليها وتطهيرها من أخطاء وتصحيفات الناسخ . لكنه انتقد هذه الطريقة التي نهجها المستشرقون وبعض من لف لفهم من المحققين العرب ، لأن الحواشي تندر فيها، بل تنعدم أحيانا باعتبار أن النص جرى تحقيقه في المتن.
- أما الطريقة الثانية ، فعلاوة على ما تتطلبه الأولى ، تزيد عنها في تذييل الصفحات بالمقارنات بين ما اختلفت فيه المخطوطات، واستخراج فهارس عامة . (25)

ويرى الأستاذ الكتاني أن الطريقة المطلوبة تختلف حسب نوعية النص ، ويخلص إلى القول أنه يتعين على المحقق وضع النص المراد تحقيقه في سياقه ، ومعايشة هذا السياق مدة من الزمن قبل الإقدام على قراءته كما لو كان هذا النص كائنا له "ذاكرته " التي يستقي منها(26) .

وفي تجربته الميدانية حول "روضة التعريف " يقدم تطبيقا للقواعد السالفة الذكر ، إذ نجده يضيف الزيادة من المخطوطات الأخرى التي لاتوجد في النسخة الرئيسية التي اعتمدها (النسخة الأم حسب تعبيره) واضعا إياها بين معقوفتين ، مع إبرازها في الحواشي ، ولم يكن يقدم على الزيادة إلا إذا لاحظ ان النص في جميع النسخ لايستقيم سوى بتلك الزيادة من حرف أو كلمة أو جملة ، أو إذا كان في جميع نسخه لا يستقيم بغير زيادة توجد في المصادر التي نقل منها المؤلف سواء ذكرها او لم يذكرها ، وكان يرجع الى المصادر الفلسفية والتصوفية التي نقل منها المؤلف دون أن يضع في الاعتبار أن هذا الأخير قد نقل حرفيا من تلك المصادر .

كما عمد إلى ضبط الأعلام الواردة في نص ابن الخطيب وتصحيحها ، وإعطاء ترجمة ذاتية لأصحابها ، باستثناء المشهورين

منهم . وفي الوقت ذاته اهتم بتخريج الأحاديث النبوية وبيان صحتها أو ضعفها ، مع تبيان رقم كل آية من السور الواردة في المتن .

وحسب منظوره فإن الإكثار من التعليقات يعوق القارئ عن تتبع النص ، لذلك تحاشى الإكثار منها ، وعمد إلى نسبة الأبيات الشعرية لأصحابها ، وتنقيح النص وملء ثغراته بإرجاع الآراء المسقطة في بعض النسخ ، خاصة آراء الفلاسفة وغلاة المتصوفة ، ثم تنقيطه بالطريقة المعاصرة (27) .

ولتعميم الفائدة من تجارب الآخرين، لم يبخل الاستاذ الكتاني للإحالة على تجارب أخرى في التحقيق للإستفادة من خبرة أصحابها ممن يشار إليهم بالبنان في هذا المجال كعبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر وغيرهما من فطاحلة المحققين (28) .

تلك هي قواعد التحقيق التي اكتسبها الأستاذ الكتاني من تجربته الميدانية والتي تشكل اليوم معلمة هامة في مسار مدرسة التحقيق المغربية .

وبعد ، فتلك بعض من مكونات الشخصية الفكرية للأستاذ محمد الكتاني التي حاولنا ملامستها من خلال أبحاثه التي كتبها في مجلة كلية الآداب بتطوان ، وهي مكونات تتراوح بين الأستاذ والمفكر والجامعي والأديب والمؤرخ والمحقق والناقد والمسلم الوطني الغيور، وما ذلك إلا نقطة من بحر شخصية فكرية يمكن الغوص فيها أكثر لاستجلاء معالم أخرى .

الهوامش :

1) انظر تقديمه لأول عدد من مجلة كلية الآداب بتطوان .
2) نفسه ص 8 .
3) كلية الآداب بتطوان ، العدد 2 خاص ندوة ابن الخطيب مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1987 ، ص 10.
4) نفسه عدد 1 ، ص 7 .
5) نفس المرجع والصفحة .
6) نفسه ص 9 .
7) نفس المرجع والصفحة .

8) نفس المرجع والصفحة .
9) نفسه ص 9 .
10) التراث المغربي الاندلسي : التوثيق والقراءة منشورات كلية آداب تطوان ندوات 4 مطبعة النجاح الدار البيضاء ص 9 وكذلك العدد الاول من المجلة ص 9 .
11) العدد الثاني من مجلة كلية الآداب بتطوان ص 23 .
12) نفسه ص 24 .
13) نفسه ص 26 .
14) نفسه ص 28 .
15) نفسه ص 29 .
16) نفسه ص 10 .
17) العدد الثالث من مجلة كلية آداب تطوان عدد خاص من ندوة سبتة : التاريخ والتراث مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1987 ص 18
18) العدد الأول ص 9 .
19) العدد الرابع ص 10 (التوثيق والقراءة) .
20) نفسه ص 57 .
21) نفسه ص 43 .
22) نفسه ص 44 .
23) نفسه ص 45 .
24) نفسه ص 46 .
25) نفسه ص 47-46 .
26) نفسه ص 51 .
27) انظر التفاصيل في نفس المرجع ص 55 .
28) نفس المرجع ص 44 .

قراءة في كتاب
"محمد إقبال مفكرا إسلاميا "
لمؤلفه الدكتور محمد الكتاني

عبد العزيز العماري
كلية الآداب - مكناس

بسم الله الرحمـن الرحيـم

نعتبر هذا العرض مساهمة متواضعة في تكريم أستاذنا الجليل الدكتور محمد الكتاني . وقد اخترنا من المجالات المعرفية التي أبدع فيها أستاذنا مجال الفكر الاسلامي الحديث .

ولما كان هذا المجال نفسه شاسعا ، حيث إن أستاذنا ألف فيه كتبا وقدم عنه محاضرات وشارك في ندوات كثيرة تهمه ، فإننا ارتأينا أن نقتصر على كتاب واحد ألفه في اواخر سنوات السبعين (1978) وتأثرنا بأفكاره تأثرا جعلنا نسعد بهذه المناسبة ، لأنها ستمكننا من قراءة هذا الكتاب القيم من جديد .

عنوان الكتـــاب هو : **محمد إقبال مفكرا اسلاميا** (1)، وسنستغل هذه القراءة لإبراز القيم الفكرية والمنهجية التي يتميز بها. وقد حاولنا أن نخضع هذه القراءة للكشف عما يلي :

1 - أهداف تأليف هذا الكتاب .
2 - القضايا الاسلامية المطروحة للدرس .
3 - منهجية المعالجة .

1 - الاهـداف :

لاحظنا أن التقديم الذي قدم استاذنا من خلاله عمله أحسن معبر عن الاهداف المتوخاة من هذا التأليف ، لذلك استحسنا أن نقتبس منه بعض المقاطع .

يقول الاستاذ :

والقصد من نشرها اليوم (أي المحاضرات التي كان يلقيها في مجال الفكر الإسلامي الحديث بكلية الآداب بفاس) (.) هو التقريب بين عقول شبيبتنا وبين نفائس ثقافتهم الاسلامية وتراث فكرهم الاسلامي مما أبدعته عقول أعلام المفكرين المسلمين في القديم والحديث ، وذلك في الوقت الذي باعدت اساليب التثقيف المغرضة بينهم وبين هذه الثقافة وذلك الفكر (ص 5) .

ويقول أيضا :

إن منطق الكشف عن الحقيقة الاسلامية ومنهج البحث عنها يختلفان عن منهج استرداد هذه الحقيقة نفسها، لأنها مجلوة في تراثنا الد يني والحضاري . فهذا التراث لايحتاج اليوم لأكثر من نفض الغبار عنه ودراسته بالروح العلمية نفسها ، لأن الاسلام كان أول من أعلن للعالم "أن الحكمة ضالة المومن " (ص5).

ويقول أيضا :

لقد عمدت إلى تقديم هذه الصورة من الجهاد الفكري في حياة إقبال ، و هي صورة قد لاتكون خالية من الشوائب ، بل قد لاتكون خالية من التناقض أحيانا ، ولكنها في كل الاحوال مخلصة لدينها ، مبرأة من الهوى بقدر ما يستطيعه إنسان في متقاذف الموج وأغواء الفكر وصراع الأضداد (ص 6) .

وسنوضح في النقطتين 2 و 3 كيف تحققت هذه الاهداف .

2 - القضايا الاسلامية المطروحة للدرس :

يمكن أن نقسم القضايا المطروحةللدرس في هذا الكتاب إلى قسمين :

- قضايا إسلامية كبرى نختصرها في القضيتين التاليتين :

أ - أسباب تخلف المسلمين .
ب - تجديد الفكر الديني وتطويره .
- قضايا إسالمية متفرعة عن القضيتين الأوليين مثل الصلاة والتصوف والنبوة والبعث والغيب والعقل والأخلاق الخ ...

وسوف نرى أن كل هذه القضايا ، الكبرى والمتفرعة عنها ، متداخلة ومتفاعلة .

فيما يخص أسباب تخلف المسلمين لاحظ الأستاذ أن إقبال يعتقد :

أن المسلمين يملكون قوة معطلة وطاقة مهدورة كامنتين في الاسلام ، فالاسلام دين عمل وقوة وتنظيم ، ولكن المسلم المتخلف لايستفيد من دينه شيئا من ذلك ، لأنه يسيئ فهم الدين ، أو لأن هذا الدين قد تحول عبر عصور الظلام إلى أخلاق سلبية ومعتقدات خرافية وتصوف يشل حركة الحياة (ص 15).

نرى أن هذه الفكرة كافية لاختصار أسباب تخلف المسلمين .

فيما يخص التجديد الديني وتطويره ، يرى الأستاذ أن إقبال حاول التوفيق بين الدين والمعطيات الفلسفية ، يقول :

التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الانسانية المعاصرة مع الحفاظ على ذاتيتة وجوهر معطياته ليس ضربا من التلفيق الذي ينهض به مفكر فقدت رؤياه الدينية توازنها بين جاذبية الماضي وثقل الحاضر ، بل هو محاولة للحفاظ على التوازن بين قوة الحدس وقوة العقل (ص 33) .

وقد لاحظ الأستاذ أن ما دفع إقبال إلى إلى أن يدعو الى التجديد الديني ذو بعد سياسي وديني أما البعد السياسي فيتمثل في السيطرة الأمبريالية على بلاد المسلمين . ويتمثل البعد الديني في التناقض بين واقع المسلمين وبين حقيقة دينهم (ص 34) .

ولاحظ الاستاذ أن إقبال سعى جاهدا إلى "ملء الفراغ الفكري الذي يجده الشباب المسلم في ظل هيمنة الفكر الغربي عليه" والذي خلفه توقف علم الكلام الاسلامي عن التطور والنمو (ص 37) . ولاحظ أن إقبال اراد بذلك أن يحارب الإلحاد وأن يحول الدين "من مجرد معارف نظرية وطقوس مادية إلى معرفة متطابقة مع

الخبـرة الدينية نفسها على غرار ما حاول "الغزالي " " (ص 37 - 38) .

وفي ارتباط مع هذه الفكرة لاحظ الأستاذ أن إقبال مقتنع بأن اصول التشريع الاسلامي تساعد على التجديد وهي « أبعد ما تكون عن سد الطريق أمام التفكير في تطوير التشريع الاسلامي » (ص 96) .

ولاحظ الأستاذ أن إقبال ، رغم المجهودات التي بذلها ، « لم يستطع التغلب على ما في المنهج الفلسفي من شك وتمرد وحرية لاتعرف الحدود » (ص 40) ، ولذلك نجده يختار أن « يحتفظ بالحقيقة متدينا شاعرا على أن يضيعها باحثا شاكا متفلسفا » (ص 40) .

ويرى الأستاذ أن إقبال يعتمد في سعيه نحو التجديد على أصول الاسلام ومبادئه ، فهو مقتنع بأن « النصوص القرآنية منهج المعرفة في الاسلام » (ص 50) .

وتفرعت عن هذه القضايا الاسلامية الكبرى قضايا اسلامية أخرى تداخلت وتشابكت فيما بينها . يرى الأستاذ أن إقبال << لم يكن أكثر من "غزالي" جديد في اتجاهه الديني ، فقد استغل المنطق الفلسفي والمذهب العقلي لمهاجمة العقل نفسه ، ولكن بأسلوب ناعم لايخدش كرامة المذهب العقلي (.) >> (ص 52-51).

ويرى أستاذنا أن إقبال يلح « على اعطاء التجربة الدينية نفس القيمة الموضوعية التي للتجربة العلمية » (ص 52)

لكن إقبال يميز بين طبيعة التجربتين : « العالم أمام الطبيعة منفصل عن علومه » ، « أما الصوفي فهو منصهر في تجربته وموضوعه » (ص 53)

ويرى استاذنا أن إقبال يهدف إلى إثبات أن « وسائل المعرفة هي العقل والقلب أي الفكر والحدس » وأن « كل معرفة في الاسلام لاتنتهي إلى الاقرار بوجود الله معرفة جزئية ومخفقة ومضللة »» (.) (ص54) .

ويرى الأستاذ أن إقبال يلح ، بالنسبة لوجود الله ، « على ابراز ما تنطوي عليه التجربة الدينية من إمكان اكتشاف الحقيقة الكلية لهذا

العالم » (ص64)

ويلاحظ الأستاذ أن إقبال يعتبر أن "الصلاة هي مجال التجربة الدينية المتاحة لكل مسلم والمفروضة عليه لتنظيم علاقته بالله" إلا أن (قيمة) هذه الصلاة متفاوتة "بتفاوت الوعي الذي تحققه في مجال الاتصال بالله " (ص 67) .

ويلاحظ أن إقبال يعتبر "النبوة ظاهرة طبيعية أملتها المراحل التطورية للبشرية " (ص72) وأنها في الإسلام " تبلغ كما لها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها " لأن الإنسان "يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو " (ص 73) .

ويلاحظ الأستاذ أن إقبال اهتم بإبراز الأخلاق الايجابية في الاسلام . من هذه الاخلاق :
- أن الاسلام اصطفى الانسان وكرمه (ص 81) ،
- أن القرآن أكد أن الانسان خليفة الله في أرضه بالرغم من أخطائه (ص 81) ،
- أن القرآن أمن الانسان على شخصيته ، فهو حر ، لكنه يبقى معرضا أيضا لحكم القضاء ، والقدر (ص 85) .

ويلاحظ أن إقبال يعتبر البعث كمالا لحركة الحياة في داخل النفس (ص 88) ، وأن الإنسان مطالب بأن "يكسب الخلود بعمله وسعيه" (ص 88) .

واستخلص الأستاذ بعد هذه الجولة الدراسية في فكر إقبال ما يلي :
- إن إقبال كان "يخاطب بفلسفته وشعره شباب العالم الإسلامي المتشبع بالثقافة الغربية المخدوع بحضارة الغرب الجاهل لتراثه الشرقي " (ص 133) .
- إنه حاول " التوفيق بين الإسلام وحقيقة التطور الذي يعرفه العالم " (ص 114) .
- إنه بقى مثاليا ، بالرغم من أن فلسفته وشعره جاءا بالحماس والاخلاص والنقد والتوجيه وغير ذلك (ص 119) ، ربما لأنه بطبيعة نزعته الفلسفية " آثر النظر إلى الواقع من خلال الفكر" (ص 122).

3 - منهجية المعالجة :

وقد نجح أستاذنا في مناقشة كل القضايا الإسلامية الشائكة التي أثارها إقبال في فلسفته وشعره معتمدا في تحقيق ذلك على منهجية فعالة :

- يعرض موقف إقبال ،
- يناقشة ،
- غالبا ما ينهي مناقشته بوضع السؤال ،
- يجيب عنه بموقف أو مناقشة ،
- غالبا ما يكون مفسرا وقد يتحول إلى ناقد .

وقد اعتمد في هذه المنهجية على عنصري الوضوح والتشويق ، ولايخفى أن اجتماعهما في موضوع غير أدبي ، كما هو الشأن بهذا المؤلف ، يغري القارئ بممارسة قراءة متأنية وجادة .

الهوامش

1) سلسلة : مواقف الفكر الإسلامي الحديث ، دار الثقافة - الطبعة الأولى .

تكريم الأستاذ الدكتور

محمد الكتاني

كلمة الدكتور عباس الجراري

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخامرني وإياكم أدنى شك في أن للأدب والبحث فيه دورا ذا أهمية قصوى في الحياة ، على عكس ما يتوهم الكثيرون وهو اليوم يزيد قيمة ويعظم أثرا في سياق الوضع الراهن الذي نعيشه على صعيد الأمة العربية جمعاء ، ونحن نرى ، ليس الأدب وحده ولا الفكر وحده، ولكن نرى الثقافة في عمومها ، بكل مكوناتها ومختلف مقتضياتها، وعلى كثرة مؤسساتها وتعدد أجهزتها ، تعاني اندحارا إحباطيا يمس معطياتها العقلية ومقوماتها الإبداعية وقيمها السلوكية ؛ وينتهي بها إلى التخلف عن رسالتها التنموية التطويرية ، وقبل ذلك عن مسؤوليتها التنويرية التحريرية التي حملت مشعلها على امتداد الرقعة الإنسانية وفي شتى حقبها المترامية .

من هنا ، كانت سعادتي بهذه الندوة العلمية التي تنظمها شعبة اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في هذه الحاضرة الاسماعيلية ، والتي تقيمها مخلصة فيها صادقة ، همامة بها ساعية إلى لم ثلة من الباحثين المرموقين قصد تناول موضوع البحث الادبي الحديث، وتدارس قضية ملحة فيه ترتبط بمدى تأصيله والتحديث .

وإن شعوري بهذه السعادة ليكبر أضعافا والندوة تخصص حيزا بارزا منها لتكريم أحد الذين أغنوا هذا البحث ، وساهموا بأعمالهم وشتى ممارساتهم العلمية في بلورة هذه القضية وايجاد حل لمعادلتها المستعصية .

وإني بعد أن أقدم للإخوة الأعزاء أساتذة شعبة اللغة العربية وآدابها ، وجميع الناهضين بالكلية - قيدوما ومدرسين وإداريين - باقة شكر جزيل ، مفعمة بأريج التهنئة والتنويه والتبجيل أن وفقوا

العقد هذا الملتقى الجليل ، لأود أن أهدي المحتفى به نشر هذه الباقة الفواح تطييبا وتعطيرا ، عبر كلمة آمل ان تكون - على اختصارها - مسعفة في الإعراب عن المشاعر التي أكنها له محبة وإعزازا وتقديرا . وإني لأرجو من حضراتكم أن تأذنوا لي في أن أفضي إليه بهذه الأحاسيس في خطاب مباشر، لعلي بهذا الخطاب أن أكون معه على اتصال لا نرى نعدل عنه باختيار إلى الانفصال .

أخي الكريم السي محمد ،
لن نحتاج - أنا وأنت - إلى نبش في الذاكرة عميق ، لنستحضر أن لقاءنا لأول مرة كان عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، وفي مستهل شهر أكتوبر على وجه التدقيق ؛ وأنه تم في رحاب كلية الآداب بفاس ، حيث تم تعييننا معا للتدريس .

كان أول عمل قمنا به هو إجراء امتحانات الدورة الثانية التي كانت العادة تقضي أن تنظم في هذا الشهر .

وبمجرد الانتهاء منها عدت إلى الرباط ، فسألني والدي طيب الله ثراه عن جو الكلية وظروفها والزملاء . وأذكر جيدا أني ما كدت أنطق باسمك حتى أبدى ابتسامة انشراح ، أحسست وكأنه يعرب بها عن اطمئنانه علي في عملي الجديد وما يغمره من ارتياح ، ثم لم يلبث أن أخبرني بأنك كنت منخرطا في سلك التعليم بمدارس البنات المسلمات التي كان يشرف عليها قبل أزمة سنة ثلاث وخمسين بصفته مفتشا للتعليم العربي في المغرب .

ولا أكتمك أني أخذني إذ ذاك استغراب خفي من أن تكون مدرسا في أوائل الخمسين ، وأنت لم تراهق يومئذ طور الشباب الأول الطري ؛ لاسيما وأنه لم يكن يقبل في التدريس بتلك المؤسسات إلا بمباراة كانت تنظم برعاية القصر الملكي ، لم يكن يجتازها إلا من كان ذا كفاءة تربوية ومستوى علمي متين ،

ولكن سرعان ما زال ماكان بي من استغراب ، بعد أن أثنى عليك - رحمه الله - بإطناب ، مشيدا بعصاميتك وجدك واجتهادك ، ومنوها بإخلاصك ، وضبطك ونظامك ، وحامدا لك التوفيق الذي كان يحالفك على صغر سنك ، والصمود الذي كنت- أنت ومن في وضعك من الشباب الناهض - تواجهون به ظرف تلك الفترة الحالك ، وقد أغلقتت دونكم

الأبواب وانسدت المسالك .

زميلي العزيز ،
قد لايكون المجال فسيحا لاستدعاء كل ما هو من هذه الذكريات مختزن مجموع ، وحسبي أن أنطلق منها لأسر إليك ، بصوت مرتفع مسموع ، أن تلك الصفات التي قدمك بها الوالد كانت تبدو لي فيك ، على امتداد سنوات عشرتنا الطويلة ، تتأكد وتظهر ، بل كانت تنمو وتزيد وتتعمق وتتجذر .

ولم لا تكون كذلك ، وأنت - لكريم محتدك وشريف أرومتك ، ولا قتدائك بالأماجد من أسلافك - جدير بالفضل حقيق ، وحري بالمحامد خليق تحفزك همة تتعلق بنيل المعالي والمفاخر، وإدراك المساعي والمآثر ، فتسموإليها ببسوق وارتقاء ، وتتسور ذراها في سموق واعتلاء .

لقد بدأت تعلمك في المدارس الحرة العربية ، ثم درست في الجامعة العريقة القروية . لتكمل بعد ذلك بقية مراحل تكوينك بجامعة محمد الخامس العصرية . وعملت معلما ومربيا فتخرجت بك وعلى يديك أفواج من المتعلمين وأجيال من الشبان المستنيرين ؛ نالوا حظا من علمك وأدبك ، وقسطا من منهجك وسلوكك ، سواء منهم من اختلف إلى محاضراتك في الكلية ، أو من درج عندك قبل ذلك في المدارس الابتدائية والثانوية .

كنت قوي الإيمان بهدفك ، فلم تمل طول الطريق الموصل إلى إدراكه، ولم تضق بمتاعبه ومصاعبه ، وعوائق مساره ومكامن عثاره ؛ وتابعته في صدق وإخلاص وتقوى ، وبعد عن الهوى والدعوى، فنلت مالم ينله الكثيرون من أقرانك وأندادك ؛ إذ حفزتك همتك العالية إلى الاستزادة من التعلم وطلب المعرفة ، فصرفت لبلوغ مسعاك أقصى عنايتك وجهد استطاعتك ، حتى سهل لك ما للآخرين تصعب وتوعر ، وتهيأ لك ما لغيرك تمنع وتعذر.

علمت نفسك وتعلمت على غيرك ، فكان ما أفدته من ذاتك أضعاف ما تلقيته عن أساتذتك . وتضلعت من الآداب والمعارف العربية الإسلامية ، ووسعت مداركك بالإطلاع والبحث في مختلف الميادين العلمية ، وكنت في ذلك قادرا على الهضم والتمثل ، ماسكا بزمام

البلوغ والتوصل .

وهذه كتبك التي نشرتها شاهدا على علو كعبك في التأليف ورفعة شأنك ، فقد أودعتها خلاصة علمك وزبدة فكرك ، ولب بحثك وغاية تدقيقك . ولا أريد أن أتحدث عن المقررات المدرسيةالتي أنجزتها ، على مالك بها من مساهمة كبيرة في الكتابة التعليمية التربوية ، وعيا منك بأهميتها ونهوضا بمهمتها، فإن الوقت لن يتسع للنظر فيها . وهو لن يسمح كذلك بالوقوف عند منشوراتك العلمية الرصينة ، بدءا من تحقيقك الضافي لكتاب "روضة التعريف بالحب الشريف" لابن الخطيب، إلى أطروحتك الوافية عن "الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث" ، مع مزيد عنايتك بالدراسات الإسلامية ، على نحو ما أصدرت عن "محمد إقبال مفكرا إسلاميا" و "المسلمون وإشكالية الوحدة"، و "من المنظور الإسلامي" . وهي كلها مجالات تنميها باستمرار في أحاديثك الإذاعية ومشاركتك في الندوات التلفزية .

لوشئت - أيها الصديق الحميم - أن ألخص ما أنت به متفرد في هذه الميادين وغيرها مما تضمه دائرة نشاطك المتنوع والمتعدد ، لقلت إنك عالم بكل ما يقتضيه العلم من درس عميق ودقة متناهية ، ولقلت كذلك بأنك أديب بجميع ما يشمله الأدب من منازع ذوقية إبداعية ومكارم خلقية سلوكية ؛ ولأضفت إلى هذا وذاك أنك من القلائل الذين وفقوا إلى الجمع بين علمهم وعملهم . فمشاغل الإدارة التي توليتها نائب قيدوم كلية الآداب بفاس ، وقيدوما مؤسسا لكلية تطوان ، لم تحل دون متابعتك البحث والتأليف والمحاضرة ، تهتم بها جميعا في غير إهمال أو إخلال ، وبدون أي كلل ولاملال ؛ تحفل بالعلم تأخذ به أهبتك ، وتعنى بعملك تحشد له عدتك ؛ فجاء بذلك علمك عدل عملك او عملك عدل علمك .

وإذا كانت هذه المزايا التي أنعم الله بها عليك وبها حباك ، تحتاج إلى شئ غير يسير من إفاضة القول ، فلا أقل في الجانب الذي يرتبط بالبحث العلمي من أن أشير إلى أنك تتميز بالوقوف الطويل والمتأني على المصادر ، وبقدرة الإفادة منها ؛ في استكناه أسرار العلوم وأغوارها ، واستخراج ما تروم منها إثارته وإثباته . تبحث وتنقب في دؤوب وصبر ، وتبذل ما تطيقه من جد وجهد لتدرك مسعاك والقصد . تسلك إلى بلوغ مرادك أوضح محجة ، وتدلي للإقناع برأيك أقوى حجة، ساعيا دائما إلى تقويم التحريفات ورد الترهات تتمسك بكل تليد ،

وتوسع فكري لكل جديد . وماذاك إلا لأنك محافظ على القديم شديد التحمس له وثيق الارتباط به مع تفتح على مستحدثات المعارف والمناهج ، تقتبس منها بوعي ونقد ، وتمييز بين ما هو جيد أصيل ، وما هو زائف دخيل . مادار حديث بيننا إلا وجدتك مهموما بواقع المغرب والأمة العربية الإسلامية ، في سياستها واقتصادها وفكرها وآدابها ومختلف متعلقات حياتها ، مأخوذا بمسيس الحاجة إلى النهوض بها في خط التطور النافع ، مرفوعا إلى البحث عن متطلبات التغيير وكيفية الخروج من هذا الواقع.

وإن ماحبرته من كتابات ليشهد لك بهذا التوجه الغيور، في الوقت الذي يدل على أهليتك لمتابعته ، بما لك من ذهن ثاقب ونظر بعيد ، وبما نلت من حظ وافرفي العربية وعلومها والعقيدة وقضاياها ، وبما تيسرلك من سهولة التناول ودقة المنهج ووضوح التعبير، هذا التعبير الذي ياتي عندك مرسلا نابعا من الطبع لاتكلف فيه ولاتعقيد، منقادا لك بأسلوب سلس مرهف سديد .

وإذا كنت قبل أسطر قد قلت إن علمك جاء عدل عملك ، فإني أرجع إلى هذه القولة لأكملها . بأن عملك جاء عدل سلوكك . فإلى تبريزك في المعرفة وقدرتك على حسن تدبير الأمور الملقاة عليك ، أضفت صفات نبيلة تحليك وشيما كريمة تعليك . فما عرفتك وعرفك غيري إلا عفيف الجنان، لطيف المزاج نزيه اللسان ، وثيق الذمة وفيا للعهد مصافيا للخلان ، في محيا طلق وقلب سمح وسريرة نقية ، وفي فرط تواضع وسعة صدر ونفس أبية . تحسن الحديث والإصغاء والمعاملة ، مثلما تحسن الدفاع والإقناع والمجادلة ، في غيرة شديدة يزينها أدب غض، وفي استعداد للإقدام والإقبال ، مع أناة وتثبت وتعقل ، وبعد عن كل تهور أو ارتجال ؛ ومع الميل إلى تأمل الوقائع والفكر ، وسعي إلى استخراج الحكم والعبر . تثابر وتواكب ، وتداوم وتواظب ، تقوي همتك وتؤكد نيتك ، وتنجز ما تتحمل من أعباء بمضاء حزم ونفاذ عزم في ثقة بذاتك واعتداد بمؤهلاتك .

وبهذا التأم لك الأمر واستقام ، واستتب في اتساق وانتظام ، وغدا لك كله سهل المرام . ذاع صيتك وانتشر علمك ، واستفاضت شهرتك ، فحظيت بطيب الذكر وحسن الأحدوثة وجميل الأثر ، بين أساتذتك وزملائك وطلابك وجميع الذين عاشروك وعرفوك ، وأحظاك مولانا أمير المومنين بعضوية أكاديمية المملكة المغربية ، بعد أن أسعدك

بعضوية المجلس العلمي لإقليم فاس ، وشرفك باعتلاء كرسي الدروس الحسنية .

أيها الخل الحبيب :

هذه خلاصة لسيرتك وفق ما أراها وأحياها معك بالعقل والقلب ، أزفها إليك في يوم تكريمك ، يغمرني كما يغمرك البهج والحبور، ويتملكني كما يتملكك الجذل والسرور . فلتتقبلها مني باغتباط واستبشار، مشفوعة برجائي أن تبلغ مسرتك وتنال مبرتك ؛ ومقرونة بدعائي إلى العلي القدير أن يبقيك ميمون السعد حظي الجد ، وأن يديم عليك سوابغ نعمه ومنن كرمه ، وأن يجعلها لك موصولة السوابق باللواحق ، موفورة الفوائد والعوائد ، وأن يحفظك والأهل في عافية كاملة وسعادة شاملة ، آمين آمين أعيدها مرات ، وسلام الله عليكم ورحمته تعالى والبركات .

كلمة السيد عبد الوهاب التازي سعود
عميد جامعة القرويين

السادة العمداء، سيادة باشا مدينة مكناس السادة القيدومين،السادة الزملاء،اخي و صديقي و زميلي العزيز الاستاذ الدكتور محمد الكتاني .

انها لحميدة هذه العادة التي اصبحت تقليدا لدى الجامعيين أن تهب طائفة من الزملاء و الاصدقاء والطلبة والمريدين لتكريم احد اخوانهم و اساتذتهم وابراز محاسنه واجلاء وايضاح ما ساهم به في تطور الثقافة و العلم ببلادنا.و كذلك أن نجلو ما قام به من جهود وكفاح و نضال من اجل الشؤون العلمية و من اجل أن تكون لنا ثقافة حية ومتطورة و مستنيرة . والاستاذ الدكتور محمد الكتاني هو كما تعلمون من العلماء الاكفاء والمثقفين المستنيرين الذين اصبح يشارلهم بالبنان لما ساهموا به من عمل في إغناء الفكرالمغربي والعربي على العموم . إنه من المجاهدين في ميدان العلم والادب واللغة والثقافة العربية الاسلامية المتجددة ، المتطورة. و الناظر في مؤلفاته واعماله التي اغنى بها المكتبة العربية الاسلامية يلاحظ تنوع موضوعاتها بين الادب واللغة والفكرالاسلامي مع اعتبار ملحوظ لطرق التفسير ومناهج البحث في مختلف مجالات الثقافة العربية والدراسات الاسلامية القديمة والمعاصرة و هو ما جعله ذا منزلة مرموقة في جميع هذه المجالات وفي المجالات الجامعية على الخصوص . فحضوره دائم في الندوات واللقاءات العلمية داخل المغرب وخارجه، وعمله يهدف الى تطويرالبحث العلمي والادبي والاسلامي وبلورة القيم والاسس والمبادئ التي تقوم عليها الثقافة العربية الاسلامية .

عند الحديث عن اعمال الدكتور محمد الكتاني يمكن التحدث عن المنهج الاسلامي الحقيقي ، و نستطيع أن نقول إنه يعد مؤسس مدرسة فريدة في المنهج الاسلامي والفكر العربي، و نمطا فريدا يقتدى به في السلوك الفكري والدعوة الخيرة الذكية العالمة العملية الى خدمة الرسالة الوطنية و الاسلامية.

بحوثه العلمية جادة وهادفة تنطلق من الانتماء للدعوة الاسلامية في عالم تتماوج فيه الايديولوجيات العديدة الهدامة . يمكن القول كذلك عند الحديث عن علمه وبحثه و مناهجه إنها دائما محاولة تجاوز المعطيات التاريخية لابداع الجديد في الفكر والمنهج ؛ فهي كلها عملية ابداعية تسير نحو الامام . إنها محاولة ضبط ثوابت و متغيرات التراث للاستفادة منه بالقدرالمعقول الذي لا يعرف الافراط و لا التفريط .إنها محاولة للابداع في ضوءالتحولات الدينية والفكرية والاجتماعية ، ومحاولة تحديث البحث العلمي في الادب واللغة والفكر في بلادنا ، عمادها واساسها في التجديد والتغيرالمنهج وابداع المنهج الجديد.

مناهجه تتجدد باستمرار في ضوء تجدد وعينا لحقائق الحياة كما يقول فنحن في رأينا لوقائع الحياة نتقلب و نسير دائما الى الامام في عملية ابداع متحركة لا تقف ولا تعرف الملل.

خصائصه كثيرة : الحذرالعلمي والبحث والاستقراء واستنباط الآراء و النتائج ورفض الآراء الجاهزة. و هذه كلها خصائص الفكرالحديث ذي الاصول المتأصلة في تراثنا و تاريخنا، ولكنها دائما في محاولة تجاوز و تجديد بالابداع الذي يسير دائما نحو الامام . إنه تطور متوازن يتبع دائما احسن الطرق وأجدها في البحث والتحليل وذلك ما يجعل في آرائه خصوبة وما يجعلها غنية يجد فيها كل باحث ما يريده من حركة ومن تنوع و من تجديد .

صديقي العزيز ،
إن عملك ، كعملنا ، شاق و مضن ، دروبه طويلة وافقه واسع وعريض و لكنه ممتع لما فيه من كفاح ونضال وجهاد ثقافيين ومعرفة مستمرة لا تعرف الكلل اوالملل. اهتماماتنا اليوم جميعا ما هي ؟ هي محاولة الابداع والسير الى الامام و تصحيح الاوضاع ، و صديقنا بصفته كاتبا اسلاميا يشار اليه بالبنان يعمل ليصحح الشبهات ضد الدين التي تمتلئ بها عقول بعض الناس و تعشش في اذهان كثير من الاجانب عنا و عن الدين الاسلامي. هناك ايضا الاشاعات والاغاليط ضد الثقافة والحضارة والفكر في مجال الاسلام يجب العمل على تصحيحها وازالتها بل و محوها .
إننا نعيش الان في تبعية مخلة يكاد يكون فيها الابداع شيئا نادرا

و مشاركتنا في مسيرة الحضارة الحديثة ما زالت لم تعرف السرعة التي يجب أن تتم بها .وهذه احدى امراضنا الكبرى، هذه هي الاهتمامات التي يجب أن يهتم بها كل باحث مبدع لا يريد أن يقف عند ما قال و ماقيل و لا يتهيب أن يكون له رأيه الخاص واخونا الدكتور محمد الكتاني من هؤلاء.

إننا نشاهد الكثيرين منا يقفون مع الغربيين في مدارسهم الفلسفية و الفكرية: فطائفة تتحدث عن الوجودية والبرغماتية، واخرى تتبنى الرومنسية واللسانيات التوليدية والبنيوية، و هذه كلها علوم حديثة و مناهج مستجدة لا يمكن تجاهلها في الوقت الراهن، ولكن علينا مع ذلك أن نأخذها بالبحث الرصين لمحاولة تجاوزها ليكون لنا فيها رأي، لتكون لنا مدرسة واسماء تذكر كاولئك الذين ندرس آراءهم . فدعوة الاستاذ محمد الكتاني في مجملها هي تجاوز هذا النقص الذي يعوق عن التقدم الى الامام .

ليست هناك مذاهب خاصة ، وهذا يجب أن نقوله، رأت النور عندنا و تجاوزت حدودنا و تعدت محليتنا الى العالمية ليتبناها غيرنا و ينظر فيها باعتبارها افكارا جديدة مرتكزة على آراء علمية و اسس فكرية نابعة من محيطنا . فحينما اتحدث عن ابداع في عمل اخينا الاستاذ محمد الكتاني ، فإني اتحدث عن محاولة من المحاولات لاجتياز هذه الحدود ولهدم هذه الجدران التي تجعل الكثيرين منا في احسن الاحوال طلبة مجدين يحفظون الدرس و يلقنوه لغيرهم ولكنهم يقفون دون الابداع ، ويقفون دون الانجازات الجديدة .

إن من جملة ما نشكو منه ايضا الازدواجية الثقافية . فنحن لم نعرف حتى الان كيف نوفق بين تراثنا الحي و بين المناهج الوافدة من المدن والمؤسسات والافكار. و مبدعونا هم الذين يحسنون هذا و يمدون ايديهم و يتابعون البحث لمحاولة تجاوز هذا الحصار الذي يفرض على العقول .

إننا نشكو من التشتت الثقافي و هو تعدد الجهات المتبوعة وتعدد المصادر والمراجع. لقد رأينا مساجلات في الشرق بين علماء لهم مكانتهم في الادب العربي والثقافة العربية : هذا يدعو الى الثقافة الفرنسية و يفضلها على الثقافة الانجليزية، و ذاك يفعل العكس، ولكن الذين يبدعون ثقافة ثالثة تقف في صف هاتين الثقافتين قليلون و من

جملتهم اخونا الاستاذ محمد الكتاني.

هذه اخي العزيز افكار عنت لي و انا احاول أن اسجل بعض هذه الكلمات التي اريد أن اقولها في عيدك هذا . إنني ارى امامي جماعة من ذوي الفضل والثقافة الحقيقية، الذين ابوا الا أن يكرموا احد شيوخهم ، و قد هرعت انا ايضا لاشاركهم في هذا التكريم ، لاقول لهم إنني عملت معه و سعدت بهذا العمل خلال سنوات طويلة. و قد عملنا معا منذ سنة 1966. و إني و إن كنت في موقف الادارة و موقف الرئيس فإن ذلك لم يجعلني افقد صداقة الاخوان و على رأسهم الاستاذمحمد الكتاني. و هو عمل كبير اعتز به و اقوله لانني استطعت رغم الاتصالات الادارية بما لها و ما عليها أن تبقى لي صداقتهم التي اعتز بها كثيرا واني اذكرها دائما لان صداقة الانسان هي اعز ما يذكر في هذه الحياة و ما يتبجح به الانسان إن جاز التعبير .

الاستاذ محمد الكتاني كما قلت مكافح، مناضل، مجاهد في ميدان لا ينتهي فيه الكفاح لانه يمس مقوماتنا و يتناول اسس هويتنا في اللغة والدين ، في الماضي و الحاضر والمستقبل. و همومه ، همومنا جميعا لا تعرف الوقوف ، وهممنا ،امام همومنا، لا تعرف الكلل .

إننا سائرون على الدرب جميعا لنجعل لهذا الوطن منزلة ولهذه اللغة ذكرا ولهذا الادب روادا في انحاء العالم ، بما ينتج فيه من ادب عالمي و من افكار تتجاوزالحدود، و من افكار تبني مجتمعنا المستقبلي الذي نراه إن شاء الله في احسن صورة لان الهمم دائما تتابع عملها ليكون كما تريد.

التهنئة و التنويه لاخينا محمد الكتاني و لاخوتنا الذين قاموا بهذا التكريم، ففيه اعتراف بعمله واعتراف بفضله و فيه تنويه لما قام به من عمل و تشجيع له و لغيره ، و فيه ايضا أن الاجيال الثقافية المثقفة في هذا الوطن تعترف لبعضها البعض بالفضل، ولا تقطع الصلة مع بعضها البعض لان قطع الصلة هو اقبح ما يمكن أن تتألم منه هذه الاجيال و ما يمكن أن يسئ الى هذا الوطن في حاضره ومستقبله. ونحن جميعا متحابون متراصو الصفوف نسيرالى الامام ليكون لنا ابداع ولتكون لنا اسماء تسطع في السماء كالنجوم كاسم اخينا العزيز الدكتور محمد الكتاني الذي ارجو له مستقبلا مليئا بالعمل والابداع والعافية والسلام عليكم .

كلمة الدكتور أحمد الطريسي أعراب

في مثل هذه اللحظات التي يقف فيها الطلبة أمام أساتذتهم، يقدمون لهم فيها هدايا صغيرة ، هي ضمات من أحاسيسهم السامية، وباقات من مشاعرهم النبيلة، عربونا على الوفاء والامتنان ورد بعض الجميل ..

في مثل هذه اللحظات الخالية ، يغتنم الطلبة فيها فرصة السفر في أعماق ذواتهم ، بحثا عن حزمات من الأضواء ، يقيمون بها أعمدة الأنوار بمناسبة الحفل . كل حزمة بألف فتيل، ترى فيها كل واحدة تسابق أختها في نشر النور الندي على جنبات المقام، فيزداد الحفل ضياء فوق ضياء ... إنهم يغتنمون فرصة السفر في أعماق الأرواح ، بحثا عن أجمل الرموز والأحلام التي تكشف عن العلاقة المقدسة ، الرابطة بينهم وبين من أشعل مصابيع المعرفة في غاباتها المجهولة !.

في مثل هذه اللحظات الخالدة ، يسمو الحس الإنساني ويعلو ، ويتعمق الإدراك المعرفي ويصفو ، وتكتسي الأشياء في الحياة ألوانها الجديدة . ويكبر الحرف ، وتزداد قامته علوا، ليعانق أسطورة الوفاء في أفقها الخالد !.

إن الاحتفاء بالأساتذة ورجالات العلم والثقافة ظاهرة حضارية . وهي لسيت وليدة اليوم ، فقد عرفتها الأمم المتحضرة منذ القديم .

ولكن الاحتفاء هنا - في مدينة مكناس - وفي كلية الآداب بالذات، لايعني - في تظري - التكريس لهذه الظاهرة الحضارية ، بل إنه يكتسي صبغة أخرى ، يتجاوز بها التكريس إلى التأسيس .

إنني أتيت إلى هذا الحفل لأشيد معنى ، وأنسج له صورة من عناصر مغروسة في الذاكرة ، منذ ربع قرن من الزمان . هذه العناصر التي جمعت بين قيم المحبة والوفاء والامتنان فقد ظلت متناثرة في عمق القلب ، تحفظها - رغم مرور السنين - شيم الوفاء وفوران وحرارة الدماء .

أتيت اليوم إذن لأجمع بين هذه العناصر وأبني لها معنى واللغة في بناء هذا المعنى تأبى أن تكون واسطة بيني وبين من فجر ينابيع الحرف وترفض أن تكون أداة لنقل الفكر أو الاحساس، أو العاطفة ، فهي الفكر نفسه ، وهي العاطفة ذاتها، وهي الإحساس كله ! إنها ترفض أن يفرق بين النبع والمجرى ، أو يميز بين الصورة وعناصرها ... هكذا وجدت نفسي مع اللغة ، كل كلمة فيها تفجر معناها من طبيعة وماهية كينونتها ، من غير أن تتجزأ صورتها إلى مبنى ومعنى ... إنها الشلال الذي يكمن سحره في سر تدفقه وانسيابه وانتشارموجاته . وبهذه الصورة تنسج اللغة خيوطها ، وتبني رمزها الخالد لشخصية أستاذ أحببناه واسكناه في عروق قلوبنا. وبهذه الصورة أيضا تخلق للظاهرة معناها متجاوزة مغزاها .

إنني لا أرى في المناسبة مغزى ، ولكنني أرى فيها معنى ، فعلى ضفافها السحرية نستريح قليلا ، نأخذ نفسنا قبل أن نأخذ طريقنا من جديد إلى أفق المعرفة ... إنني أرى في هذه الاستراحة القصيرة مناسبة ، تعود فيها الفروع إلى الأصول ، وتلتئم أجزاء الصورة التي تناثرت على مساحات الذاكرة والنفس والعقل على مدى ربع قرن من الزمان ، تلتئم الأجزاء ، لتعود إلى وحدتها في إيقاع ، تنسجم في صورته عناصر حبنا للمعرفة بعناصر وفائنا لمن غرس هذا الحب في نفوسنا .

إنني أرى فيها المحطة التي يلتقي فيها الأساتذة مع جزء من ذواتهم وعقولهم وأحلامهم الهاربة في ذوات وعقول وأحلام الآخرين، ويقفون على نتائج البذر والغرس في حقول التربية والثقافة والعلوم.

علمتمونا أيها الأساتذة كيف نأخذ طريقنا في غابة المعرفة التي لاحدود لها ، علمتمونا كيف نحافظ على الحرف النقي الذي يصنع قدر الأجيال في روح من التفاني وخضم من المعاناة

والصبر ، علمتمونا كيف نطرح الأسئلة الصعبة ، ونبحث عن أجوبة لها في غير ملل أو كلل .

إن الأصوات الهادئة والهادفة ، المنبعثة من بين قاعات ومدرجات كليتي الرباط وفاس . ما زال صداها يملأ عوالم نفوسنا، وأن الأفكار والآراء والرؤى والتصورات ما زالت ترسم خطوطها الثابتة في مشاريع أبحاثنا وأعمالنا .

علمتمونا أيها الاساتذة ، كيف نتأمل ونفكر وكيف نبحث عن معاني الظواهر والأشياء ، ومن أجل ذلك أحببناكم ، وأصبحتم بالنسبة لنا رموزا وأحلاما جميلة ، نحب الحياة من أجلها ، ونعشق البحث في أسرارها طلبا للحقيقة وللحقيقة وحدها ! .

واليوم ومكناسة الزيتون ، يشتعل زيتها مرة أخرى بنور يضاف إلى الأنوار التي سبقت ، تبني من ألقه صرح حضارة للفكر والثقافة والعلم . وتقيم لأهل الكلمة التقية عرسا لا تنطفئ أنواره مدى الدهر .

إنها مكناسة الزيتون التي تمد يدها اليوم ، تصافح جبل زلاغ في فاس ، وجبل درسة في تطوان ، وعلى شفاهها ابتسامة في لون ابتسامة الشعر في قصيدة رائعة .

كلمة الأستاذ أحمد اليبوري

أخي الفاضل الدكتور محمد الكتاني
أخواتي إخواني :

في هذه اللحظات التي يحضر فيها معنى التكريم كحالة وجدانية يمتزج فيها الوفاء بالمودة ، وكموقف عقلاني يقيم الموازين بالقسط ، ويحدد موقعا متميزا داخل التراتبية الأخلاقية والعلمية إن في هذه اللحظات يغيب الاختلاف ويتنامى الائتلاف ، تتداعى أو هام ، لتترسخ على أنقاضها أعمال إنسانية تم تشييدها بصبر وأناة ، وبحزم ونكران ذات .

كم يبدو التكريم جميلا وجليلا في عصر انفرطت فيه القيود ، وأصبح شعاره : "يا أصدقائي تذكروا أن ليس هناك أصدقاء" خاصة عندما يصدر ، بتلقائية ، عن مجموعة من المثقفين الذين يرفضون الانصياع لإرغامات قانون الضرورة ، ويعملون ، بوعي وإصرار ، من أجل تأكيد ضرورة القانون كتجل لإعادة دورة القيم الأصيلة التي يعتبر الاعتراف بالفضل لذويه من أبرز مظاهرها .

أخي محمد ، كم تبدو أيام التدريس ، بكلية الآداب بفاس ، في الستينيات ، قصيرة في حساب الزمن ، بعيدة بقياس الذاكرة ، لتراكم الاحداث ، وتسارع التحولات ، قريبة في نفس الآن ، من قلوبنا لأنها جزء من تاريخ صغير صنعناه وسط الأهوال والضغوط ، وساهمنا جميعا ، بمشاركة أساتذة فضلاء من المغرب والمشرق في تكوين طلبة كرام بررة ، من بينهم هؤلاء الذين يشاركوننا اليوم في تكريمكم ، وقد ساهمتم ، من قبل ، في تكريمهم بغزير علمكم وسديد توجيهكم .

أخي محمد ،
عرفتك دائما معتدلا ، صبورا متحملا ، تحسب لعلاقاتك بالآخرين أدق

الحساب ، حتى لاتصدم أحدا ولا تخدش إحساسا ولاتجرح كرامة ، وتلك لعمري معادلة صعبة ، في فكر تتحكم فيها الحساسيات وردود الفعل ؛ ولكنك ، رغم ذلك اعتذال ، كنت تغامر في المجال الثقافي ؛ وما مبادرتك لتدريس الفكر الإسلامي الحديث بكلية الآداب بفاس في نهاية الستينات الا دليل على ذلك ، خاصة إذا عرفنا أن الصراع الايديولوجي كان آنذك محتدما بين الاتجاهات القومية والماركسية بمختلف تشعباتها ، وكأنك كنت تستبق الاحداث وتستشرف المستقبل وتمهد لفضاء الفكر الإسلامي السني الصحيح ، بعيدا عن كل مظاهر التطرف.

وفي هذا الإطار أريد أن أضئ بإيجاز شديد جانبا من تفسير توجهكم نحو التحقيق بأنه ليس مجرد صدفة أو هدية مضنون بها على غير أهلها . إن تحقيق (روضة التعريف بالحب الشريف) ليس مجرد وسيلة لاكتساب مهارات لغوية وبلاغية ومعارف تاريخية وفلسفية . لقد كنت في كل ذلك ، كما اشرت نستجيب لنزعة داخلية عميقة لم يزدها الانسحاب من الحقل السياسي الارسوخا ، إنها التجربة الأولى في رياض . المجمع العلمي، وبداية التمرس بالعلم الشريف ، بمنأى عن إشكالات الواقع وإحباطاته .

لكم أخي محمد ، إسهامات متعددة في مجال التأليف في الفكر الإسلامي ، منذ صدور محمد إقبال مفكرا إسلاميا ، لكن ما يلاحظ هوأن الأسئلة التي يطرحها الفكر الإسلامي المعاصر ، والواقع الإسلامي المعاصر ، بمختلف تياراته ، أكثر جذرية وأشد صرامة من جدل العقل والنقل ، فهل سيعود أخونا محمد الكتاني ، إلى الواقع ، عبر جسر الفكر الإسلامي ، بعد أن احتمى فترة من الزمن بروضة الحب الشريف؟.

أخي الدكتور محمد الكتاني ، اسمحوا لي أن أعبر لكم بصدق عن تقديري لشمائلكم النبيلة ، وعن اعتزازي بإنجازا تكم العلمية ، وعن أملي في أن يستمر عطاؤكم الفكري غزيرا خصبا لصالح ثقافتنا العربية الإسلامية .

والسلام

كلمة الدكتور محمد السرغيني

انها لسنة حسنة أن يكرم النابهون من أبناء هذه الأمة وهم على قيد الحياة ؛ لأنه لاشيء أحب إلى المرءمن أن يرى صنيعه الذي كافح من أجله في هؤلاء الذين نذر حياته من أجلهم ، هي إذن سنة حسنة نرجو أن تستمر .

والكلمتان اللتان استمعنا إليهما لم تتركا قالة لقائل في شأن الثناء المستحق على الاعمال التي قدمها ، ولازال يقدمها زميلنا وأخونا الاستاذ الدكتور محمد توفيق الكتاني ، وهي اعمال مبرهن عليها بالملموس ، وفعلا ذكر جميع ما قام به الدكتورمحمد توفيق الكتاني من اجتهادات تصب في نطاق الدراسات الأدبية والصوفية والإسلامية .

اذن لم يبق لي إلا شيء هو أن أنبش في الذاكرة التي ترجع بي إلى سنوات الخمسين من هذا القرن ، ذلك أن المحتفى به المكرم تجمعني به أشياء منها الجغرافي لأنه ابن الحي الذي ولدت فيه ، وهو رأس الجنان بمدينة فاس ، ومنها اننا نهلنا العلم من جامعة واحدة هي جامعة القرويين ، ومنها وهذا هو المهم أن النابهين من طلبة القرويين وهو منهم كانوا يجتمعون في دار الأستاذ جعفر الكتاني وكنت أنا من بينهم. وابتداء من ذلك الوقت ونحن على فتائل من سننا ، ولانزال كذلك على فتائل من سننا ، كنا نقرأ في كتاب (هكذا تكلم زرادشت) وكنا نعقد الجلسات تلو الجلسات لمناقشة ما جاء فيه من الأفكار ، ويبدو أن ذلك اكبر من سننا ، ولكن أؤكد لكم أن سنناالشاب لم يكن ليقف أمام ما ورد في هذا الكتاب من الأفكار التي كنا نأخذها مطعمة بما حصلنا عليه من قراءتنا لأدب المهجر ، شعره ونثره ، وكانت خلاصة هذه المناقشات انها جعلتنا نتخذ موقفنا من الكون كما يقال .

كان الأستاذ الكتاني إلى جانب ما امتاز به من سخاء ذهن و اتساع معرفة وفي ذلك الوقت المبكر رساما ، وهذا شيء لا يعرفه إلا الراسخون ... لكي تبلور هذه الأفكار رسم صورة الراكب فيها مركوب ،

كأنه تنبأ بأنه سيأتي على الناس زمن يصبح فيه الراكب مركوبا . وفي وقت بعيد جدا لم نكن نقبل الأشياء على عواهنها بل كنا نفكر فيما نقرأ ، نأخذ منه ما نأخذ ونطرح منه ما نطرح ، من ذلك مثلا أن الآراء التي وردت لدى جبران والتي عبرعنها وجمعها خاصة في كتابه (النبي) كنا نعمل فيها النظر .. ونقول إنه ليس من الممكن أن يوجد عالم زاخر بما فيه من الحيوات ، بما فيه من المواد ، وبما فيه من الأشياء يمكن أن يتحد وأن يكون بعضه صورة لبعضه الآخر . من ذلك أيضا أننا كنا نأخذ افكار ميخائيل نعيمة في (الغربال) خاصة مأخذ الجد ؛ لأنها وضعت أيدينا على كثير من الحقائق التي كان يجب أن تعم الساحة الأدبية والنقدية في الآن عينه .

هذا المنزل الذي كنا نجتمع فيه يوجد في حي مجمع الدولة بأقصى هضبة من حومة أو حي رأس الجنان ، أيضا كنا نلتقي بعد الانتهاء من دروسنا في القرويين في هذا المكان وفي غيره ، وكان أن دعونا إلى تأسيس جماعة أدبية همها البحث الأدبي واستدعينا لذلك ثلة من الإخوان الذين صار بعضهم إلى ما صار عليه حين تفرقت بنا السبل ، هذه الجماعة وفي هذا الوقت المبكر قد استطاعت أن تنبئ عن أن افرادها جميعا وبدون استثناء وعلى رأسهم اخونا وزميلنا الدكتور محمد توفيق الكتاني كانت ذات طموح كبير جدا ، هذا الطموح هو الذي ترجم فيما بعد الى خدمة الثقافة العربية الوطنية المغربية ، والذي تجلى في المؤلفات التي نعرفها جميعا لزميلنا الأستاذالدكتور محمد الكتاني .

في القرويين لم نكن نتقاعس أمام واجب المعرفة ، كنا ندرس الفقهيات والمنطق والأدبيات واللغة بشكل دقيق جدا ، ومع أننا كنا نتأفف من الأسلوب الذي كانت تلقى به هذه الدروس نتيجة لتكويننا السابق الذي ألمحت إليه ، فإننا كنا على رأس اللائحة بين أناس لايهتمون بهذه المواد إلا بصيغتها التقليدية ، تجلى ذلك عند زميلنا وصديقنا الدكتور محمد توفيق الكتاني ، في الكتابة الرصينة التي عهدناها ممن هي فيه ، تجلى ذلك أيضا في التريث والاتزان أمام البدع المنهاجية التي أشير اليها سابقا ، وهذا التروي وهذا الاتزان ولد فكرة مفادها أنه علينا أن نبحث إزاء هذا الركام من الأفكار والمناهج على منهج ينطلق منا ويبقى فينا .

قطعنا أشواطا لابأس بها من الدراسة في القرويين . وتشاء

الصدف أن تتفرق بنا السبل . أن يمضي هو إلى الدار البيضاء ، مدرسا بعد أن نجح في مباراة التدريس وتشاء الصدف أن أبقى في فاس للتدريس أيضا ، ولكن الصلة الروحية لم تنقطع ، كان يقرأنا وكنا نقرأه وحين تتاح لنا الفرصة نتناقش في كل ذلك وكان عريس المناقشة وسيدها بلا منازع هو المكرم المحتفى به الدكتور محمد توفيق الكتاني .

بعد أن رجعنا إلى كلية الآداب بفاس وجدناه هناك مدرسا يشار إليه بالبنان كما جاء سابقا ، وهنا دفع بنا الحنين إلى أن نعيد تلك الأيام الزاهرة التي بدأناها ونحن طلبة ، وهكذا كنا على اتصال دائم ، وعلى استشارة غير منقطعة إلى أن أصبح نائب عميد هذه الكلية ، ومع ذلك لم يتغير سلوكه ازاء جميع الذين عرفوه عن بعد أو عن قرب ، وكان نفس السلوك وكان نفس المعاملة التي يلقاك بها باشا ، إذن لم تستطع هذه التطورات التي حصلت في حياته على القضاء على معدنه الأصيل . إن كثيرا من الناس تتغير أحوالهم نتيجة تغير ظروفهم ، أما هو فبقي حيث كان من السلوك وحيث كان من التطور .

ازدادت هذه الأواصر متانة حين اشتغلنا سوية في التصوف من حسن الصدف أن كتاب ابن الخطيب الذي سبقت الإشارة اليه فيه كثير من الإشارات إلى الشخص الذي ارتضيت أن أكتب عنه وهو ابن سبعين . وانظروا كيف تلعب الصدف دورها في لم الشعث الذي سبق وأن ... وانظروا أيضا كيف يجب على الانسان أن يحمد لهذه الصدف الحميدة التي تجمع بين صديقين حميمين هذا النوع من الاجتماع ، معنى ذلك اننا كنا على او اثناء اعداد رسالتينا يستشير بعضنا الآخر ، ويستفيد بعضنا من الآخر .

ومن عجيب الصدف ايضا ان التصوف لم يكن بيننا إلا منطلقا لبحث آخر بعيد كل البعد عن التصوف، ذلك أن هوانا معا كان مع الأدب الحديث ولذلك انجز الضيف المكرم المحتفى به الأستاذ الدكتور محمد توفيق الكتاني رسالة رائعة عن الأدب الحديث ، ولعل موضوع الندوة يشير إلى ذلك .

أما أنا فقد تابعت الكتابة في التصوف من أجل شيء واحد، هو ان يخرج الشعر العربي المعاصر من الباب المسدود الذي وجد نفسه فيه على الأخص من حيث الخيال ومن حيث المعجم اللغوي ولكني رجعت الى رشدي فانتميت الى الأدب الحديث مثل انتمائه دراسة وإبداعا .

ماذا يمكن أن يقول الإنسان في نهاية هذه المداخلة ؟ اعتقد انه من الواجب على زميل مثلي إزاء زميل له من مثل المكرم المحتفى به الدكتور محمد الكتاني أن أدعو له أولا ، ولي ثانيا بطول العمر ، وتجدد النشاط ، والمثابرة على ذلك الشي ء الذي انتدب نفسه له منذ البداية، كما أتمنى له مزيدا من الإنتاج ، مزيدا من العمل الدؤوب من أجل الدفع بالثقافة الوطنية المغربية إلى الأمام .

وشكرا

كلمة السيد محمد العميري
قيدوم كلية الاداب وجدة

زملائي الأساتذة ، إخواني الطلبة ، أيها الحضور الكريم .

أجدني بصراحة عاجزا عن اضافة شيء بعد الكلمات التي استمعنا اليها ، و بعد البيان و حسن القول الذي سمعناه من أساتذتنا الأجلاء، اساتذة اللغة العربية و فقهاء النحو والبيان. و مع ذلك فهي كلمة وفاء لابد من تقديمها لزميلي واستاذي سيدي محمد الكتاني .

اذن تحية قلبية صادقة الى هذا الجمع المبارك الكريم الذي سعى سعيا مشكورا ليلتحم في هذا العرس الحضاري ، العلمي والاكاديمي ليقول كلمة حق في قطب من اقطاب البحث العلمي في جامعتنا ، واحد أعمدة الفكر في مغربنا الحديث . وهنا لا بد من كلمة اشادة وتنويه بشعبة اللغة العربية و بكلية الاداب بمكناس التي كان لها السبق على مثيلاتها في هاته الالتفاتة وهذا التكريم الذي يفرضه الواجب و تفرضه اخلاقيات الجامعة فهنيئا لشعبة اللغة العربية و هنيئا لكلية الآداب وهنيئا لمكناسة الزيتون .

إن جمعنا هذا ايها السادة ، جمع اعتراف و امتنان لما قام به استاذنا الجليل من اجل العلم والفكر في بلادنا. وإذا كانت جلستنا هاته تحمل عنوان " شهادات " فإنني ساقدم بكل تواضع شهادة حق في هذاالرجل الصرح . لقد تحدث قبلي اهل الفصاحة والبلاغة من اعمدة الفكرو البلاغة و من الاخوان الاساتذة الباحثين الذين حاولوا سبر اغوارفكر استاذنا الجليل. و كانت كلماتهم شهادات حق في الرجل، غيرأن كلمتي ستتركز على جوانب اخرى من شخصيةاستاذنا. و في هذا الصدد اقول : انني تشرفت بالتتلمذ على استاذنا الجليل في تسيير مؤسسة جامعية بصفتي نائبا له بكلية الاداب بتطوان. واقولها من هذا المنبر إنني معتزو فخور بعملي الى جانبه، بل كنت محظوظا

ايما حظ بانني تعلمت من الرجل ما لا يدرس في الجامعات ولا يلقن في المدرجات . لقد تحدث زملائي الاساتذة الباحاثون بالامس و هذا الصباح عن المدرسة الكتانية في التحقيق والنقد، و يمكنني أن اتحدث عن مدرسة محمد الكتاني في التسيير التربوي داخل جامعتنا هاته . هاته المدرسة التي قوامها الجد و الاخلاص المشفوعين بالصدق و الاخلاق الاسلامية السمحاء .الى جانب العمل الاداري الجاد والتاطيرالتربوي الهادف، كان شعاره في التعامل الصدق والاخلاق قبل كل شيء . لقد تعلمت من جملة ما تعلمت من استاذي أن التسيير الاداري هو تعامل انساني قبل أن يكون تعاملا مع ملفات و قرارات، و مذكرات و قوانين. وكان استاذي يؤكد على التعامل الاخلاقي والخلقي في التسيير. فكان تعامله مع الهيئة التربوية يطبعه حب الاستاذية والغيرة على كرامة الاستاذ . فكان دائما يقول - و اشهد بهذا - انا لا ارضى أن يكون الاستاذ كذا او أن يلحق الاستاذ كذا . وكان دائما في صف الاساتذة مدافعا من موقع مسؤوليته عنهم وعما هو في صالحهم، و كان يترجم تفانيه في عمله الى تفان في خدمة الاستاذ و مصلحته و كان يغلب الجانب الاخلاقي التربوي على الجانب الاداري المحض . فكان استاذا و هو يدرس في المدرج و بقي استاذا و هو مسؤول اداري على مؤسسة جامعية .

اما مع طلبته وهذه المرة ليس من منبر المدرج ، بل من موقع المسؤولية كرئيس مؤسسة ، نجد نفس الروح ، و نفس التعامل و نفس الاخلاق . و بكونه قيدوما للمؤسسة كان يستقبل الطلبة ليس بصفته قيدوما بل كان يرى نفسه اولا و قبل كل شيء ابا و مربيا يصر على أن يبقى قدوة و مثالا لطلبته ، اذ انه و بعد كل حوار (والطلبة يعرفون الحوار) كنا نجلس و كان دائما يؤكد رغبته في أن يربي هؤلاء الشباب، لان يكون قدوة لهم . فحرم على نفسه الكذب اوالمناورة ، فكان دائما صادقا معهم ، ما كان يقوله امامهم كان يكرره لي بعدما يذهبون. وكان يقول دائما ، يجب أن يتعلم ابناؤنا الصدق ، اذ لا يمكننا أن نربي جيل الغد على المناورة والكذب . و هكذا نجد وطنيته حاضرة في تعامله الاداري اليومي .

و خلاصة القول : إن السي محمد الكتاني القيدوم والاداري ، كان بالنسبة الي مدرسة في السماحة و التعفف و الترفع عن الجزئيات المعرقلة للعمل الاداري ، غيورا على بلاده و مصلحتها ، محبا للأساتذة والطلبة . و بالمناسبة ، عرفت الرجل و جالسته مرات عديدة و ساسمح

لنفسي ، و اتمنى الا افشي سرا اذا تحدثت عن الاساتذة والطلبة فاروي ما وقع مرة و نحن في اطار العمل .

في احدى المناسبات سافرنا معا في مهمة الى بريطانيا ، وكان ذلك السفرالى لندن ، كنا في حاجة الى النزول عند بعض المغاربة ، وكنت اعرف عائلة هناك ، و طبعا كان معي الاستاذ العلامة المحدث والفقيه الذي يحضر الدروس الحسنية ، و كنت استاذ الانجليزية ، كان علي أن ارافقه دائما . و شاءت الظروف أن ننزل عند عائلة وكان تخوفي من كيف سيكون اللقاء بين هذا العالم الكبير وبين عائلة بسيطة امية بحيث كنت اتوجس خوفا من انعدام التواصل .و كنا سنجلس مع تلك العائلة بضعة ايام . و كم كانت المفاجأة : لقد تعرفت على رجل آخر ، جلس مع الناس و حدثهم بلغتهم و تشبثوا به جميعا ولازالوا الى الآن يسألون عنه ، و يرغبون في الاتصال به فقد وجدوا فيه ما لم يجدوه في اشباه المثقفين الذين زاروهم من قبل ، لقد كان متواضعا معهم و حدثهم بلغتهم و دخل في قلوبهم بشكل ملفت للانتباه .هذا الانسان المحتفى به اليوم المكرم اليوم ، هو هذا الرجل الذي احدثكم عنه في مناسبة بسيطة عشتها معه .

للرجل ايضا اشياء لابد من قولها ولو بعجالة . بعض الاخوان قبلي قالوا بانه فنان ، و فعلا انه فنان وعاشق للبحر، فهو يعشق البحر كثيرا ، وكثيرا ما حدثني عن ذلك ، وبعض الهاماته كانت تاتي وهو امام البحر في كتاباته الكثيرة . و هو صاحب ذوق رفيع ، وهذا ظهر حتى في المؤسسة التي يديرها حيث كان احيانا يسهر بنفسه على ان يكون كل شيء ذا طابع فني . و كان دائما يبعد ما هو خشن حتى في العمل الاداري اليومي . كان فنه يشع وكان اشعاع فنه يشع على كليته و على عمله اليومي الاداري .

و طبعا هناك الجانب الاخر ذلك الذي يتعلق بالمسرح طبعا وقد تحدث احد الزملاء عن محمد الكتاني المسرحي، واقول هنا بالنسبة لبعض طلبتنا و بعض الاخوان الذين لا يعرفون ذلك انه مارس المسرح في الخمسينات بين 1950و 1958، وأنه و نظرا لوطنيته فقد مارس المسرح كاداة للخطاب السياسي فقد عمل مع حمادي عمور، واحمد الطيب العلج واحمد الركيبي العبدي ، وعائد موهوب و عفيفي ، و عبد القادر البدوي . و كان من مؤسسي فرقة " الفوز " مع احمد العبدي وشارك في التحضير لمسرحيات " مسمار جحا"و "عبد الرحمن الناصر"

و كثير من المسرحيات .

هذه الاشياء لم اعشها معه ، و لكن تمتعت بالاستماع اليه في مناسبات عدة و هو يحكي لي عن تجاربه الكثيرة . اضيف شيئا آخر: إن السي محمد الكتاني ذاكرة التعليم ببلادنا لاكثر من 30 سنة. اسألوه يحدثكم عن 30 سنة أو 40 سنة من التعليم و سيحدثكم عنها. إن ذاكرته قوية جدا بحيث يذكر الاحداث والتطورات و يمكن الرجوع اليه فيما يتعلق بتاريخ التعليم ببلادنا، لانه عاشه و مارسه و كتب عنه و ما زال يعيشه الى يومنا هذا.

طبعا لا اريد ان اطيل، و من هذا المنبر اقول لاستاذي واخي وصديقي سيدي محمد الكتاني : هنيئا لطلبتك بك و هنيئا لكليتك بك و هنيئا لعائلتك بك وهنيئا لوطنك بك . فحياك الله واطال عمرك، وحفظك لاسرتك ، وابقاك دائما مثالا يحتذى، و نبراسا ينيرالطريق لاجيالناالصاعدة . حفظك الله ورعاك و قدما الى الامام .
و السلام عليكم

عـــرس الفضيلـــة

عبد الرحمان بناني
كلية الآداب - مكناس

العيد عيدك يامحمد فاستلم قبل التهاني والمنى إجـــلالا
وقف الزمان لينتفي لك موعـدا يسقيك فيه من النعيـــم زلالا
ويقيم عرسا للفضيلة خالـــدا يكسوك فيه مهابة وجـــلالا
فانعم بيوم مشرق الجنبات مـــن عمر ملأته ، صابرا ، أعمـــالا
نور على نور ، صفا لك منبـــر تعلوه وحدك آمنا مختـــالا

ياصانع الأجيال ، ذكرك عاطـــر غمر المجالس نسوة ورجـــالا
طوبى لمن أرسى العلوم على التقى طوبى لمن أهدى النفوس كمالا
طوبى لمن أحيى البيان مجـــددا ورعى الفنون كتابة ومقـــالا
فجواهر الآداب بعض بديعـــه والنثر بعض بيانه إن قـــالا
وحديقة الأشعار فاح عبيرهـــا تزدان إلهاما ، به و خيـــالا

شيدت صرحا للأصالة شامخـــا وترى الحداثة منهجا ونضـــالا
أرسيت للبحث الرصين قواعـــدا يزداد منها الباحثون نهـــالا
علمتنا أن الطموح مبـــادئ ليس الطموح تعالما وضـــلالا
أعددت جيلا للرسالة حامـــلا مستبصرا متواضعا فعـــالا
مسترشدا بهداك فذا مخلصـــا كل الذرى يرتاد والأهـــوالا

شهدت وفود العلم أنك مفـــرد تزن الجبال رزانة وجـــلالا
لك في المحافل منطق ومناهـــج فيها بصائر تستقيم جمـــالا
لك في الحوار محاسن، لا تبتغـــي أهل النفاق تكبرا وجـــدالا

ياصاحب الشرفين حزت محبـــة من معجبين تزايدوا إقبـــالا
والله راعي من رعى له ذمـــة والله يحفظ عالما مفضـــالا

كلمة الدكتور محمد الكتاني

حضرات السادة الأساتذة الأجلاء ، والأصدقاء الأوفياء ، والطلبة الأعزاء .

السلام عليكم ورحمة الله وبعد ،
فإن أولى الأشياء بالتقديم في هذا المقام أن أحمد الله العلي القدير على ما وهب من نعمة الإيجاد ، والإمداد بسوابغ النعم التي لا يحصيها عد أو حساب ، فاللهم لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

ثم اسمحوا لي بدء ذي بدء أن أتوجه بالشكر والامتنان لهذه الزمرة من الأساتذة بكلية آداب مكناس ، في هذه المدينة الأصيلة ، التي هي إحدى قلاع التراث الحضاري المغربي ، الذين نظموا هذه الندوة التكريمية بدعم من المجلس البلدي لحمرية ، ورعاية من قيدوم كلية الآداب الزميل الأود الدكتور إدريس أوعويشة ومباركة من عميد الجامعة الدكتور عبد اللطيف الشاذلي . فإلى هؤلاء جميعا أعبر عن شكري وامتناني وتأثري بالتفاتتهم الكريمة واحتفائهم قلبا وقالبا بشخصي المتواضع .

وأجدني وسط زمرة من أصدقائي الأساتذة الأجلاء الذين أسبغوا على شخصي من خلع التحلية وعبارات التزكية ورقيق العواطف وجميل التقدير ما أكاد أغص بحلاوة جريانه ، وأتعثر في سابغ أذياله ، هؤلاء الذين تجشموا السفر من بعيد ، ليحضروا هذا التكريم ، ويقولوا كلمتهم فيه . فولا صادق ودهم وموصول وفائهم ما كان لهذا الاحتفاء أن يأخذ رواءه وبهاءه .

أيها الأصدقاء الخلصاء والزملاء الأعزاء ،
كم سعدت بهذه اللحظات بين ظهرانيكم والتنقل عبر أحاديثكم يومين ،

بين نثير من العواطف البارة وباقات من الآراء والتحاليل والعروض عن إنتاجي بكل جوانبه ، مما يشهد لهذا الجيل من شباب الأساتذة الجامعيين الذين تخرجوا على أيدي أساتذة جيلنا بأنه توافر على أداة البحث والمعرفة من طرفيها تحصيلا وإنتاجا . لقد سعدت سعادة غامرة بين رياض القلب والفكر ، بين عاطفة تنشر أريجها وفكر يشرق بتوهجه فارتقى هذا التكريم ارتقاء جعله يشمل عددا من الجوانب والرجالات من أبناء جيلي بشكل ضمني ، أو من باب دلالة الاقتضاء كما يقول البلاغيون .

إن التكريم للأساتذة والشيوخ الأحياء بهذه الصورة التي تجمع بين التحليل لآثار المحتفى بهم ووضعها في سياق العصر والتاريخ والنسق الثقافي والعلمي وبين الشهادات المخلصة الوفية التي يقدمها رفاق المحتفى بهم ، أقول إن هذا التكريم بهذه الصورة العلمية والأدبية والأخلاقية الرفيعة يتحول من مجرد تكريم شخص مفرد في حد ذاته الى تكريم أشمل وأعم ينطلق من المحتفى به إلى جيله ، وشيوخه والقيم التي جمعت هذه الأجيال كلها حول أهداف مشتركة ورسالة متجددة العطاء .

إنه تكريم لم يؤسس على المجاملة ولا العواطف وحدها ، وإنما هو تكريم مؤسس على قيم التواصل العلمي والثقافي بين أجيال الأمة الواحدة . وما لهذا التواصل من مرجعيات حضارية وعقدية وقيم اخلاقية .

ولم لا أقول إن هذا التكريم هو ضرب من التناصر والتآزر والالتحام في زحمة النضال والكدح الذي هو قدر الانسان في هذه الحياة .

إن نضالية العلماء والمفكرين تستهدف بالأساس أن تصبح المعرفة والعلم في مقدمة قيم الحياة الإنسانية ، ولا أدل على ذلك من أن الاسلام جعل العلم أساس العقيدة ومنطلقها ، وأمر الإنسان أول ما أمره أن يقرأ أولا . ليعرض ما يلقى إليه من خطاب إلهي أو يلقى إليه من علم ومعارف يقدمها العقل وينهض بها العلماء . وبما أن العلم مسؤولية ينهض بها العلماء فيجب أن تستمر من جيل إلى جيل وتتفارط الأجيال في حملها خلفا عن سلف .

وفي تظاهرات التكريم للعلماء والشيوخ والمفكرين ما يكشف عن صور الترابط والتواصل حينا وما يدل علي معنى التعاقب والتداول بين الأجيال حينا آخر ، في صور زاهية من العواطف البارة والنبل الوجداني الذي يمنح هذا التواصل أبعاده الروحية والأخلاقية على نحو ما تجلى في هذه الندوة التكريمية بالذات .

قلت إن هذا التكريم هو مظهر من مظاهر التواصل بين الأجيال باعتراف اللاحق للسابق على ما أسدى وأنجز ، ومن الواجب أن أقر لكم بأن هذا التكريم الذي حظيت به هو حق من حقوق أبناء جيلي جميعهم على كاهل الجيل الجديد . فالجيل الذي أنتمى إليه هو الجيل الذي فتح عينيه في الثلاثينيات من هذا القرن ، ووعى ماوعى من الحياة المحيطة به ما عرفه مغربنا في أربعينيات هذا القرن بعد الحرب العالمية الثانية، ثم شب عن الطوق في الخمسينيات وانخرط في الحياة العامة لأمته في الستينيات والعقود التي تلتها .

هذا الجيل هو الذي تلقى رسالة الأمة ، ومسوولية بناء المغرب بعد الاستقلال تلقاها من يد الرواد قادة الحركة الوطنية وبناة المغرب الحديث . ومن شيوخ العلم يومئذ ، ومن بقية خيرة من السلف الصالح الذين جلسنا إليهم وتأثرنا باخلاقهم وصوفيتهم وموسوعيتهم ونهجهم في الحياة وريادتهم في البناء والإصلاح . ومن المعلوم لدينا جميعا أن العلم والوطنية ازدوجا في رجالات جيل الريادة الوطنية المغربية فكان العالم هو المجاهد ، وهو الأستاذ ، وهو الكاتب ، وهو المعلم ، وهو المسؤول عن الخلايا التنظيمية للمقاومة أو التوعية .

ولقد جلسنا إلى رجال و رجال من هذا الرعيل ، وتلمذنا لهم ، وتلقينا عنهم مسوولية البناء للاستقلال ، وبلورة طموحات شعبنا المناضل خلال العقود الخمسة الأولى من القرن العشرين إلى تأسيس كيان مغربي حضاري جديد يجمع بين الأصالة المجسدة في القيم الروحية والتراثية بثوابتها المعلومة وبين المعاصرة المجسدة في المؤسسات الديمقراطية ودولة القانون ، وقيام التنمية على ركائز العلم منهجا والعدالة الاجتماعية غاية ، وتوظيف المؤسسة الجامعية في تأهيل المغاربة لإنجاز تلك المعاصرة المنشودة على أساس معرفي متفتح ومتجدد . في هذا السياق تحددت رسالة طائفة من أبناء جيلي في بناء الجامعة المغربية الحديثة علي أسس وتقاليد تستجيب لنهضة المغرب الحديث وأهداف هذه النهضة . وهي رسالة لم يكن النهوض بها بالامر

اليسير . فإذا كنتم أيها الأصدقاء والزملاء تحتفون بي في رحاب مؤسسة جامعية هي كلية الآداب . وداخل جامعة هي جامعة المولى اسماعيل بمكناس ، باعتباري قضيت في العمل الجامعي أكثر من ربع قرن فاسمحوا لي أن اعتبر هذا التكريم موجها الى أبناء جيلي ورفاقي من بناة الجامعة المغربية الحديثة في العقود الثلاثة الأخيرة .

إنه تكريم وفي لجيل من بناة الجامعة المغربية ، وبناة البحث العلمي والتحقيق للتراث والمؤصلين لمناهج الدرس الأدبي ، والمبدعين ، وجيل من المؤرخين والمفكرين والاجتماعيين والمنظرين الذين كانوا الهياكل الأولى للجامعة المغربية .

وقبل كل ذلك هو تكريم موجه إلى جملة من القيم العلمية والأخلاقية التي أتيح لي كما أتيح لغيري أن يمثلها أو يشخصها ويظل وفيا لها ، والتي ظلت الشخصية المغربية بفضلها ثابتة علي أصولها، متوارثة للسمات والخصائص عبر الأجيال . وبفضل هذه القيم ظل المغرب صامدا في وجه أعاصير التقلبات والمؤامرات قادرا على المواجهة، مميزا بين الثوابت والمتغيرات . وكان علماؤه ومفكروه وقياديوه أوفياء لهذه الرسالة ولرؤيتها الحضارية في احتفاء برموزها. وإحياء لذكراهم وتكريمهم أمواتا وأحياء .

أيها الإخوة الأعزاء ،
كم أنا سعيد حين أجد نفسي بعد أن طويت أربعين سنة في حقل التربية والتعليم أن هذه الأربعين لم تمض سدى ، وإنما كانت دربا فسيح الأفق غامر العطاء ، فأنى التفت وجدت من حولي من يعترفون لي بشيء من الجميل الذي قدمته في تكوينهم أو توجيههم . وبذلك أعتبر نفسي واحدا من جيل من المربين والأساتذة ، جيل آثر أن يعيش في تفاعل مع قيم العلم والتعليم ، موثرا للعطاء على الأخذ .

وهكذا يأخذ معنى تكريمكم إياي مغزاه الحق في سياق من تثبت القيم الثقافية والتربوية والعلمية ، ومن التنويه بشأن المعلم والمربي والاستاذ والباحث ، في عالم ينحسر الاعتبار فيه تدريجيا عن هذه النماذج الانسانية الرائدة المعطاء ، وبهذا الاعتبار أيضا يتسع هذا التكريم لجيلي ولشيوخ هذا الجيل أيضا ممن تأثرنا بهم وتلقينا عنهم وواصلنا السير في طريقهم .

أيها السادة ،

لا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أنوة مرة أخرى بالكرماء الذين كرموني وكرموا القيم التي أتيح لي أن أشخص بعضها بقدر الطاقة والوسع بهداية من الله وتوفيقه ، " ولولا فضل الله عليكم مازكّى منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكي من يشاء " . (صدق الله العظيم)

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة السيد القيدوم

أيها السادة
أيتها السيدات

ماذا عساني أقول بعد شهادات أساتذتي الكرام ، فطاحلة اللغة والأدب في وطننا المعطاء ؟

إن كل الكلمات في هذه اللحظة المؤثرة لعاجزة عن إيفاء هذا الرجل الفذ الأستاذ الدكتور محمد الكتاني حقه إنسانا وباحثا ومؤطرا ومسؤولا جامعيا .

... لا نملك إلا أن نتمنى له جميعا عمرا مديدا حتى يستمر عطاؤه ويتواصل إشعاعه في خدمة البحث الأدبي والاسلامي الحديث ببلادنا .

فشكرا له على قبوله هذه الالتفاتة ، واتاحة الفرصة لكليتنا لجمع أساتذة باحثين من مختلف أنحاء وطننا الشاسع للمناقشة والحوار والتعبير عن إخلاصهم ووفائهم لشيوخهم العلماء .

وإنني إذ أهنىء اللجنة المنظمة على التفكير في مبادرة هذا التكريم ، وحسن السهر على سير أعمال الندوة ، لأشكر أيضا جماعة حمرية الحضرية (في شخص رئيسها) على التعاون المتواصل معنا، ودعمنا لتحقيق اعترافنا بجيل شامخ من أساتذتنا.

كما لا يفوتني أن أشكر السيد عميد جامعة المولى إسماعيل على سنده وتشجيعه .

حضرات السادة والأوانس والسيدات.
لقد توقفنا طويلا عندما يمكن المساهمة به في هذا التكريم المؤثر ، فاستقر الرأي في نهاية المطاف على أن تهدي الكلية للأستاذ المحتفى به

الدكتور محمد الكتاني عصارة أفكار أساتذتها منذ تأسيسها إلى اليوم، راجين أن تظل ذكرى جميلة تذكره بمدينة مكناس : طلبة وأساتذة وإداريين وهيئة منتخبة ... فليتقبل منا أستاذنا محمد الكتاني هذه الهدية المتواضعة دلالة على مدى حبنا له وتأكيدا لمكانته في قلوبنا .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

الدكتور ادريس أوعويشة

برنامج الندوة

الخميس : 16 - 12 - 1993

15 : 00 افتتاح الندوة :
كلمة عميد الجامعة
كلمة القيدوم
كلمة اللجنة المنظمة

15 : 30 الجلسة الأولى :
البحث الأدبي الحديث في المغرب
- قضاياه ومناهجه -
الرئيس : سعيد الأيوبي (كلية الآداب بمكناس)
المقـــرر : عزالدين السلاوي (كلية الآداب بمكناس)

البحث الأدبي الحديث في المغرب : المجال والمنجزات
أحمد اليابوري (كلية الآداب - الرباط)
حداثة البحث الأدبي في المغرب
حسن المنيعي (كلية الآداب - فاس)
الصراع بين القديم والجديد والمشروع النقدي في الأدب العربي
حميد لحميداني (كلية الآداب - فاس)
قضايا المنهج في تحليل النص الأدبي القديم
عبد العزيز الحلوي (كلية الآداب - تطوان)
الجانب الأدبي في أبحاث المرحوم عبد الله گنون
محمد الحسيني گنون (كلية الآداب - وجدة)

16 : 45 استراحة
17 : 00 مناقشة
18 : 00 نهاية الجلسة

الجمعة : 17 - 12 - 1993

9 : 00 الجسلة الثانية :

الانفتاح على الشرق والغرب
- تأكيد الهوية وتحقيق التواصل -

الرئيس : أحمد اليابوري (كلية الآداب بالرباط)
المقـــرر : علال الحجام (كلية الآداب بمكناس)

غربة التأصيل والحداثة في المسرح المغربي : الطيب الصديقي نموذجا .
مصطفى الرمضاني (كلية الآداب - وجدة)

المسرح المغربي والانفتاح على الغرب: "مسرحية فاوست والأميرة الصلعاء " نموذجا .
يونس الوليدي (كلية الآداب - مكناس)

مصادر تفسير النص الشعري عند العرب القدامى .
مصطفى السلاوي (كلية الآداب - وجدة)

أثر تكريم الشيوخ والعلماء في الدرس الأدبي بالمغرب.
علال معكول (كلية الآداب - مكناس)

10 : 30 استراحة
10 : 45 مناقشة
12 : 00 نهاية الجلسة

الجمعة : 17 - 12 - 1993

15 : 00الجلسة الثالثة:

جهود الدكتور محمد الكتاني في البحث الأدبي
- تحقيقا وتأليفا -

الرئيس :حسن المنيعي (كلية الآداب بفاس)
المقـــرر : عبد العالي بوطيب (كلية الآداب بمكناس)

جهود الأستاذ محمد الكتاني في تحقيق " روضة التعريف بالحب الشريف "
نجاة المريني (كلية الآداب - الرباط)

" روضة التعريف " نموذج للتحقيق الجامعي
عبد الله الهمس (كلية الآداب - مكناس)
" روضة التعريف " بين تحقيقي محمد الكتاني وعبدالقادر أحمد عطا .
محمد بنعبد الجليل (كلية الآداب بمكناس)
تحقيق النص الأدبي لدى المدرسة المغربية بين الأصالة والإحاطة: " روضة التعريف " نموذجا .
عبد اللطيف مومن (كلية الآداب بمكناس)
منهج الكتاني من خلال كتابه الصراع بين القديم والجديد
أحمد الدويري (كلية الآداب - مكناس)
جوانب من الشخصية الفكرية للكتاني من خلال بعض كتاباته .
ابراهيم القادري بوتشيش (كلية الآداب بمكناس)
قراءة في كتاب محمد أقبال مفكرا اسلاميا لمحمد الكتاني .
عبد العزيز العماري (كلية الآداب - مكناس)

17 : 00 استراحة
17 : 15 مناقشة
18 : 00 نهاية الجلسة

السبت : 18 - 12 - 1993

9 : 00 الجلسة الرابعة :
تكريم الأستاذ الدكتور محمد الكتاني : شهادات
الرئيس : عباس الجراري (كلية الآداب بالرباط)

تتدخل فيها مجموعة من زملاء الأستاذ محمد الكتاني وطلبته وأصدقائه ، منهم :
- عباس الجراري
- محمد السرغيني
- عبد الوهاب التازي سعود
- أحمد اليابوري
- أحمد الطريسي

- محمد العميري
- ادريس اوعويشة قيدوم الكلية

11 : 00 كلمة ختامية للأستاذ محمد الكتاني .
12 : 00 نهاية الجلسة .

كلمة ختامية للسيد قيدوم الكلية .

اللجنة المنظمة

الميلودي شغموم
سعيد الأيوبي
عزالدين السلاوي
علال الحجام
عبد اللطيف مومن
عبد الله الهمس
عبد العالي بوطيب

تلقى العروض بمدرج الإمام مالك .
تحدد مدة كل مداخلة في 15 دقيقة